أجاثا كريستي

ذكريات

ترجمة
أحمد حسن

الحرية
للنشر والتوزيع

اسم الكتــاب	ذكريات
ترجـــمـــة	أحمد حسن
النـــاشـــر	الحرية للنشر والتوزيع
	٣ ميدان عرابى وسط البلد ـ القاهرة
	ت: ٢٦١٥٦٤٦ ـ ٥٧٤٥٦٧٩
	م: ١٢٣٨٧٧٩٢١.
رقم الإيـداع	٢٠٠٧/١٨٧٨
الترقيم الدولى	48 - 85 - 23 - 206

الحريـــة 3 ميدان عرابى وسط البلد ـ القاهرة

للنشر والتوزيع 0123877921 - 25745679

صديقة قديمة

قطبت جوان سكودامور حاجبيها في محاولة لاختراق عتمة غرفة الطعام بمحطة الترحيل، وكانت قصيرة النظر شيئا ما.

وتمتمت تقول محدثة نفسها: - أنها هي بالتأكيد.. كلا، هذا محال... ولكنني أعتقد أنها هي... بلانش هاجارد.

لم يكن هذا بالأمر المتوقع... أن تعثر في قلب الصحراء على صديقة قديمة من أيام المدرسة الداخلية لم ترها منذ... أوه، نعم... منذ خمسة عشر عاما بالتأكيد.

تملكتها فرحة الدهشة في بادئ الأمر... فقد كانت اجتماعية بطبعها، وكانت تفرح دائما بمعارفها وصديقاتها وقالت تحدث نفسها: ولكن الفتاة المسكينة تغيرت كثيرا. أنها تبدو أكبر من سنها بسنوات... نعم... بسنوات كثيرة، فلا يمكن أن يزيد عمرها في الواقع عن... نعم... عن ثمانية وأربعين عاما.

وبحركة تلقائية تحولت إلى المرآة التي خلفها، وطمأنتها الصورة التي طالعتها عن نفسها وقالت:

- الحق أنني أعرف كيف أعنى بنفسي وكيف لا أشيخ.

كانت الصورة التى أمامها لامرأة بين عصرين، نحيفة، هيفاء، جميلة، مليحة البشرة ذات شعر كستنائى لا يكاد يظهر فيه الشيب، وعينين زرقاوين تفيضان سحرا وفتنة وشفتين باسمتين، ترتدى تاييرا من القماش الخفيف، بسيط الصنع، وتمسك فى يدها حقيبة كبيرة نوعا ما بسبب ضرورات المرحلة.

والواقع أن جوان سكودامور كانت فى طريق العودة من بغداد الى لندن عن طريق البر. وكانت قد أقبلت من بغداد بالقطار، وكان يتعين عليها قضاء الليل فى محطة الترحيل لكى تستأنف رحلتها فى صباح اليوم التالى فى الحافلة.

فقد اضطرها مرض ابنتها المفاجئ الى مغادرة بريطانيا العظمى على عجل، خشية من أن يفقد صهرها روحه المعنوية وأن تعم الفوضى البيت.

ولكن سيسير كل شئ على ما يرام من الآن فصاعدا، فقد تولت هى نفسها كل شئ، وقامت بكل ما يجب عمله من أجل المولود ومن أجل ويليام، ومن أجل بربارا الناقهة، وتوقعت وعملت حساب كل شئ، وأشرفت على كل كبيرة وصغيرة، وقالت تحدث نفسها: (أحمد الله على أننى أحتفظ بهدوئى دائما، حتى فى أشد الأوقات حرجا).

وقد لهج ويليام وبربارا بالشكر والامتنان، وألحا عليها لكى تطيل إقامتها معهما ولكى لا تغادرهما بمثل هذه العجلة، ولكنها ابتسمت لكى تتغلب على تنهيدة الأسف ورفضت البقاء محتجة بأنه لابد لها من أن تفكر فى رودنى... فى رودنى المسكين الذى لم يستطع أن يتخلى عن عمله المرهق والذى ليس هناك من يعنى بأمره غير حفنة من الخدم.

وكثيرا ما كانت جوان تقول:- لعنة الله على الخدم... أنهم لا

يساوون شيئا.

ولكن بربارا كانت ترد عليها قائلة:- ولكنك تعرفين كيف تروضينهم يا أماه.

وقد ضحكت جوان، ومهما يكن فقد أشاع هذا القول الغبطة فى قلبها، فان المرء ليروقه الاعتراف بالواقع، وقد تساءلت أحيانا اذا لم يكن الانسان يميل بطبعه الى الاعتقاد بأن نظام البيت، والجهد الذى يبذله فى سبيل ذلك أمر طبيعى.

ولم يكن معنى ذلك أن هناك ما يكن أن تعيبه على أى واحد منهم، فان توم وأفيويل وبربارا كانوا أولادا ممتازين، ولديها هى ولدى رودنى من الأسباب ما يحدوهما الى الفخر بنتيجة تربيتهما لهم، وبنجاحهم فى الحياة.

فقد كان تونى يدير مزرعة للبرتقال فى روديسيا، أما أفيريل فبعد أن أثارت قلق أبويها بعض الشئ استقرت بأن تزوجت من وكيل أعمال ثرى ووسيم. أم زوج بربارا فقد كان يشغل وظيفة ممتازة فى وزارة الأشغال العامة ببغداد.

كانوا يتمتعون كلهم بصحة جيدة، وبمركز لا بأس به. وقد اعترفت جوان بأن الحظ واتاها وزوجها، وأن الفضل لهما فى نجاح أولادهما فى الحياة يرجع لهما، فقد بذلا كل عنايتهما وكل جهدهما فى سبيل تربيتهم ولم يبخلا عليهم بأى شئ، مضحين بكل غال ونفيس... أفضل الخدم وأفضل المربيات والممرضات... وفيهما بعد أحسن المدارس والكليات.

كان وجهها يطفح بشرا وهى تتحول عن المرآة وقالت تحدث نفسها:- ما أجمل أن نتحقق من نجاح مجهوداتنا. لم أشعر قط

بالرغبة فى الالتحاق بوظيفة ما أو فى أن أسرى عن نفسى بأى شئ... اغتبطت دائما بدورى كزوجة وام، وأحببت زوجى دائما. وقد نجح فى عمله... ولعله يدين لى بنجاحه هذا شيئا ما... فان تأثير الزوجة عظيم... يا لهذا العزيز رودنى!

وأحست بالدفء عندما فكرت أنها لن تلبث أن تراه قريبا... بعد خمسة أيام بالتحديد. وكانت ترجو أن لا يكون قد تألم كثيرا من الوحدة أثناء غيابها، فهى لم تتركه أبدا مثل هذه الفترة الطويلة. لقد كانت حياتهما سعيدة هادئة دائما.

أوه، لعلها تبالغ بعض الشئ وهى تصف حياتهما بالهدوء، فان حياة الأسرة لا يمكن أن تتسم بالهدوء أبدا بما يتخللها من أجازات وأمراض معدية وأعطاب تصيب مواسير التدفئة فى الشتاء... والحياة مهما تكن فما هى إلا سلسلة من المآسى الصغيرة، وقد أرهق رودنى نفسه بالعمل على حساب صحته بحيث هذه التعب منذ سبع سنوات... صفوة القول أنه لا يقاوم الشيخوخة كما تقاومها هى، فقد أحدودب ظهره قليلا ولم يستطع أخفاء الشعيرات البيضاء التى تخللت شعر رأسه. وكانت هناك حول عينيه دوائر مزرقة.

ولكن كان هذا أمر طبيعي على كل حال. والآن وقد تزوج الأولاد وراجت أعمال المكتب بفضل مساعدة الشريك الجديد فان فى مقدور رودنى أن ينعم بالراحة، ببعض الراحة. وأن يسرى عن نفسه معها من وقت لآخر. سيكون فى مقدورهما التوسع فى إقامة الحفلات وقضاء أسبوع أو أسبوعين فى لندن من وقت لآخر. بل قد يستطيع رودنى أن يمارس هوايته فى لعب الجولف. لماذا لم تسمح له بممارسة هذه اللعبة من قبل؟ أنها تسليه صحية لرجل كرس حياته كلها لعمل مكتبى مرهق.

وإذ فـرغت من هذه المسـألة عـادت تنظر من جـديد الى المرآة الجالسة فى آخر قاعة المطعم والتى خيل لها أنها تعرف فيها إحدى صديقات المدرسة الداخلية.

بلانش هاجارد. أنها شغفت بها عندما كانتا معا فى مدرسة سانت آن. كان الجميع يتعلقون ببلانش هاجارد، وكانت هذه الأخيرة جريئة جدا... وغريبة الأطوار جدا... وجميلة جدا.... وأنه لمن المضحك أن تفكر فيها هذه الليلة بالذات وهى ترى هذه المرأة العجوز الناحلة الزرية الهيئة... يا لغرابة الستين من العمر. وقالت جوان:- أننى أعرف أنها عاشت عيشة قاسية.

أتت جوان بحركة تدل على نفاد الصبر، فان بلانش أفسدت حياتها بطيشها ونزقها لأنها وهى فى الحادية والعشرين من عمرها، والعالم كله تحت قدميها، وعلى ما كانت تتمتع من جمال وطيب المحتد وقعت فى غرام رجل قذر... رجل كهل ومتزوج فوق ذلك. وهذا ما زاد الأمـر خطورة. وقـد اعـتـرض أهلهـا على ذلك كل الاعـتـراض، واصطحبوها معهم فى رحلة ترفيهية إلى الخارج، ولكن بلانش هربت منهم فى نابلس وعادت إليه. وقد فقد الرجل وظيفته نتيجة لذلك، وانكب على الشراب فى حين رفضت زوجته الطلاق، واضطرت بلانش إلى مغادرة كرايمنستر مع عشيقها. ومرت سنوات لم تسمع جوان عنها حتى ذلك اليوم الذى التقتا فيه وجها لوجه فى لندن، فى أحد محال بيع الأحذية. دار بين المرأتين حديث قصير علمت جوان منه أن بلانش تزوجت من رجل يدعى هوليداى يعمل موظفا باحدى شركات التأمين. وقالت بلانش أنه سيقدم استقالته لأنه ينوى تأليف كتاب عن وارين هاستنجز وأنه يريد أن يكرس وقته فى كتابته بدلا من أن يكتبه على مراحل فى أوقات فراغه. واذ قالت لها جوان أن هذا يتطلب موارد

شخصية خاصة أجابتها بلانش فى مرح فقالت أنه لا يملك شروى نقير، وقد أصرت جوان على أن استقالته أمر غير مقبول أو غير معقول إلا إذا كان يضمن نجاح الكتاب وسألتها أن كان هناك شريك يقدم له المال اللازم فاجابتها بلانش فى مرح بالنفى وقالت أنها لا تتوقع نجاحا كبيرا فى الواقع لان توم على الرغم من تحمسه الشديد لا يملك الموهبة الكافية، وعندئذ قالت لها جوان أن من واجبها أن تثنى زوجها عن نيته هذه فأجابتها بلانش وهى تحدق فيها بعينيها المتسعتين ولكن المسكين يتحرق شوقا للكتابة، وهذه الفكرة تلح عليه.

وقالت لها جوان عندئذ أن الانسان يجب أن يكون لديه من العقل ما يكفى اثنين، فضحكت بلانش وأجابتها بأنها لم تستطع أبدا أن يكون لديها من العقل ما يكفيها هى وحدها.

وإذا تذكرت جوان ذلك استنتجت أن بلانش لم تنطق إلا صدقا. وفى السنة التالية التقت بها فى أحد المطاعم وكان برفقتها امرأة غريبة الأطوار، مخضبة بشكل ملحوظ واثنان من الممثلين، ولم تسمع عنها بعد ذلك إلا بعد خمس سنوات عندما أرسلت إليها خطابا تسألها فيه أن تقرضها خمسين جنيها لأنه يتعين عليها إجراء عملية جراحية لابنها الصغير. وقد أرسلت جوان اليها خمسة وعشرين جنيها ومعها كلمة طيبة سألتها فيها عن أخبارها. وجاءها الرد فى صورة بطاقة بريدية كتبت بلانش على ظهرها هذه العبارة (أنت كريمة يا جوان. كنت أعرف أنك لن تخذلينى) وهى عبارة ظريفة حقا ولكنها وجيزة. وبعد ذلك الصمت التام. والآن... وهذه الليلة بالذات، فى مطعم ملحق بمحطة السكة الحديد بالشرق الأدنى، وتحت ضوء مصابيح الغاز الباهت المتراقص خلال رائحة البارافين والفليت وقعت على صديقة الطفولة وقد تغيرت كل هذا التغيير... عجوز مبتذلة.

وكانت بلانش أول من فرغ من عشائها، وقد همت بالخروج عندما وقع بصرها على جوان فتسمرت فى مكانها قائلة:

– رحماك يا ربى... جوان!

وأسرعت تجر مقعدها الى جوار جوان، وراحت المرأتان تثرثران. وقالت بلانش:

– أنك تعرفين كيف تعنين بنفسك جيدا يا عزيزتى. كأنك فى الثلاثين من العمر. أين قضيت وقتك بعد أن رأيتك آخر مرة؟... فى ثلاجة؟

– ليس تماما... لم أبرح كرايمنستر.

– ولدت وشببت وتزوجت ودفنت نفسك فى كرايمنستر.

قالت جوان وهى تضحك ضحكة قصيرة: – أهو مصير محزن الى هذا الحد؟

هزت بلانش رأسها وأجابت بلهجة الجد:– كلا. بل أننى لاحسدك على هذا المصير. كيف أولادك... فلا شك أن لك أولادا كثيرين؟

– نعم، ثلاثة. ولد وبنتان. وابنى فى روديسيا. أما البنتان فقد تزوجتا واحداهما تقيم فى لندن وأنا الآن عائدة من لدن الأخرى... من بغداد. وهى تدعى راى... بربارا راى.

غمزت بلانش بعينيها وقالت:– لقد سمعت عنها وأنا هناك. أن لها طفلا جميلا. أنها تزوجت وهى صغيرة جدا، أليس كذلك؟

أجابت جوان بلهجة قاطعة:– ليس هذا رأيى. إن ويليام غزا قلوبنا. وهما زوجان جميلان.

– نعم. يبدو ذلك أن كل شئ قد عاد الى نصابه الآن، ولا ريب أن

الطفل قد أعاد التوازن بينهما. فإن مولد الأطفال يهدئ الفتيات عادة.

وأردفت تقول حالمة:- اننى لا أتكلم عن نفسى. اننى كنت مجنونة بولدى، لين ومارى، ولكن هذا لم يمنعنى، بمجرد أن ظهر جون بلهام، من أن أهرب معه وأن أهجر ولدى بدون قصد سيئ.

نظرت جوان إليها مؤنبة وقالت:- حقا يا بلانش. كيف أقدمت على هذا العمل؟

أجابت بلانش:- أنه عمل مذموم، أليس كذلك؟ ولكننى كنت أعرف طبعا أنهما سيكونان فى أمان تام بين يدى توم. فقد كان دائم العناية بهما، وكان يغسل لهما ثيابهما ويعطى كلا منهما بزازته. وقد الحق ممرضة لخدمتهما بعد رحيلى، وهى ممرضة ظريفة، تليق به أكثر منى، تعنى بالمطبخ وتهتم بكل كبيرة وصغيرة فى البيت، حتى جواربه راحت ترفوها له. بالتوم العزيز يا له من شجاع. كان يرسل لى بطاقة فى أعياد الميلاد دائما. وقد استمر على ذلك سنوات كثيرة، وهذه لفتة رقيقة منه. أليس كذلك؟

لم تنطق جوان... لم يسعفها النطق، فقد هاجمتها أفكار مضادة كثيرة. دهشت قبل كل شئ من أن تكون هذه... الحثالة التى تجلس أمامها بلانش هجارد تلك الفتاة المثقفة الرقيقة التى كبرت وشبت فى مدرسة سانت آن، وأن تتخلى عن كل خجل وتكشف عن تفاصيل فاضحة من حياتها كهذه... وبأية ألفاظ؟

مع أنها ربحت الجائزة الأولى بمدرسة سانت آن لتفوقها فى اللغة الإنجليزية.

وارتدت بلانش الى الوراء قائلة:- انه ليدهشنى قليلا أن تكون بربارا راى ابنتك يا جوان، وفى هذا دليلا على أن الإشاعات توجد فى

كل مكان، فقد سمعت هناك أنها كانت تعيسة مع أهلها وأنها تزوجت أول من تقدم لها لكى تهرب من البيت.

– هذا سخيف. من أين تأتى مثل هذه الإشاعات؟

– لا أدرى. ومهما يكن فاننى واثقة أنك كنت دائما أما مثالية، ولا أتصورك متقلبة الأطوار أو ذات أهواء عابرة.

– أنك لطيفة حقا يا بلانش. والواقع أظن أننى أستطيع أن أقول أننى هيأت كل ما فيه إسعاد أولادى فى البيت واننى بذلت جهدى فى سبيل ذلك، وأظن أن من الضرورى أن تكون الام صديقة لأولادها.

– اذا كان هذا فى الاستطاعة.

– أوه، فى استطاعة كل أم أن تفعل ذلك. يكفى أن تتذكر شبابها وأن تتفاهم معهم، وقد بذلنا، أنا ورودنى، جهدنا دائما فى سبيل ذلك.

– رودنى؟... دعينى أتذكر. أنك تزوجت محاميا، أليس كذلك؟ نعم اننى ذهبت إلى المكتب عندما أراد هارى أن يطلق زوجته الشريرة. وأظن أن زوجك هو الذى استشرناه... رودنى سكودامور؟... نعم كان رقيقا جدا ومتفاهما جدا وكريما... هل بقيت معه كل هذه المدة؟ دون أن تمنحى نفسك أية نزوات؟

توترت جوان قليلا قبل أن ترد:– لم أشعر بأية رغبة لذلك، لا أنا ولا هو. أنا ورودنى عرفنا السعادة الزوجية الكاملة.

– أنك كنت باردة كالسمكة دائما يا جوان... ولكننى لا أظن أن زوجك، بعينيه الزائغتين...

– أوه. بلانش...

واصطبغ وجهها لفرط حنقها واستطردت:– عينان زائغتان؟ رودنى؟

وعلى الفور مر بذهنها خاطر... خاطر عابر كذلك الثعبان الذى رأته يتلوى بالأمس فى طريق السيارة المترب والذى ما أن رأته حتى اختفى. وفى هذه المرة كان الخاطر عبارة عن كلمتين لم تدر من أين ظهرتا وسرعان ماطواهما النسيان: الفتاة راندولف.

وانسابت كلمات الاعتذار من بين شفتى بلانش فقالت:- معذرة يا جوان... هلمى بنا الى الصالون لاحتساء القهوة... اننى كنت دائما مبتذلة الذهن.

- أوه كلا.

ارتفع الاحتجاج إلى شفتى جوان تلقائيا وفى استنكار. وقالت بلانش وقد سرها ذلك:

- بل هذا صحيح. ألا تذكرين ذلك.

ولكن ذكريات جوان عن صديقتها كانت كلها طيبة. بلانش على أرض الهوكى بشعرها الأشقر الذى يتطاير خلف ظهرها. بلانش الأولى على الفصل تبتسم فى زهو وانتصار. بلانش تكشر بمجرد أن يوليها مدرس اللغة الفرنسية ظهره أو تقلد لهجة مس لوريمر مدرسة الحساب.

- ومع ذلك فانك تذكرين ذلك اليوم الذى قفزت فيه من فوق السور لكى أغازل ابن الخباز.

هزت جوان كتفيها. كانت قد نسيت هذه الحادثة وان كانوا قد جعلوا منها حادثة جريئة رومانسية فى ذلك الوقت... كانت حادثة بغيضة حقا إنصافا للحق.

اضطجعت بلانش فى مقعدها إلى الوراء وطلبت القهوة وقالت ضاحكة:- كنت بغيا صغيرة وان لم أكن قد نضجت بعد. أوه. اننى أعرف ما الذى أضاعنى. اننى اهتممت دائما بالرجال... وبالأوغاد منهم

على وجه الخصوص وهذا أمر مضحك، أليس كذلك؟ أولا هارى الذى لم يكن يساوى شيئا حقا وان كان وسيما جدا. ثم توم الذى لم يكن فيه أى شئ مدهش ومع ذلك فقد افتتنت به، وجون بلهام. ولم أقض معه إلا فترة قصيرة، ثم جيرالد ولم يكن هو الآخر جديرا بالاحترام.

وجاءت القهوة فى هذه اللحظة فقطعت الاعترافات التى رأت جوان أنها فى غير مناسبتها. وأدركت بلانش ذلك فقالت:

– معذرة يا جوان. اننى أجرح شعورك، فأنت دائما متزمتة.

قالت جوان فى ابتسامة متسامحة:– أوه. أظن أننى أعرف كيف أكون واسعة الأفق. وأردفت تقول فى لهجة حرقاء: اننى إنما أريد أن أقول اننى لا أحبذ...

– طريقة حياتى؟... (وبدا كأن الفكرة أطربتها) أنك ظريفة جدا يا عزيزتى، ولكن دعى عنك هذه المشقة... اننى استمتعت بحياتى تماما.

تفرست جوان فى صديقتها على الرغم منها. هل تدرك بلانش أن هيئتها تدل على الكرب والحزن، بشعرها المصبوغ بغير عناية وثيابها الرثة الصارخة الألوان ووجهها الزائغ النظرات المملوء بالتجاعيد... كانت امرأة عجوزا جدا عاشت عيشة تعسة بائسة... عجوزا فاجرة... مومس...

وعادت بلانش تقول فى لهجة الجد:– نعم، أنت على حق يا جوان. أنك عرفت كيف تعيشين. أما أنا فقد أفسدت حياتى. اننى هبطت إلى الدرك، أما أنت فقد صعدت، كلا... أنك بقيت فى نفس الدرجة، تلميذة طيبة، وتزوجت زيجة محترمة... كنت أحسن دعاية للمدرسة.

أرادت جوان أن تعيد الحديث الى الموضوع الذى يربط بينهما فصاحت تقول:

– كان ذلك فى الأيام الجميلة الماضية، أليس كذلك قالت بلانش فى هدوء وبغير ارتباك:– بين بين... كنت أشعر بالضيق والضجر فى أغلب الأوقات... ذلك الجو المرح السخيف الصحى الى حد الوسوسة كان يحملنى إلى الهروب والى رؤية بلاد أخرى.

وأردفت فى مرح متظاهرة بأنها تمزح:– حسنا... اننى رأيت بلادا كثيرة. أستطيع أن أقول...

تنبهت جوان فجأة إلى أن بلانش صديقة سفر. لقاء عرضى كان محتملا ولكنها كانت تشك فى أن تقوم بدورها كصديقة مخلصة أثناء رحلة طويلة فى أوروبا كلها، فان ذكريات الماضى الجميلة سرعان ما تزول.

قالت بلانش وهى تبتسم ابتسامة قصيرة:– كلا. اننى ذاهبة إلى الناحية الأخرى... الى بغداد للقاء زوجى.

– زوجك؟

دهشت جوان لمجرد أن يكون لبلانش زوج محترم.

– نعم. أنه مهندس بالسكك الحديدية.. اسمه دونوفان.

هزت جوان رأسها قائلة: دونوفان... لا أذكر أننى التقيت به.

ضحكت بلانش وقالت:– ما كان لك أن تلتقى به يا عزيزتى فهو ليس من طبقتك على الاطلاق. أنه من طبقة متوسطة لا يكف عن الشراب، ولكن له قلبا من ذهب. ولعله يدهشك أن تعرفى اننى كل شئ بالنسبة له.

قالت جوان فى صدق وإخلاص:– أن هذا واجبه.

– يا لجوان العزيزة المخلصة... أنها هى دائما لم تتغير، أليس كذلك؟ يمكنك أن تغتبطى لأننى لن أرحل معك. أنك لتفقدين صبرك

لو أنك قضيت بضعة أيام معى. لا داعى للاحتجاج فاننى أعرف كيف أصبحت... مبتذلة جسدا وروحا. هذا رأيك، ومهما يكن فالأمر أسوأ.

والحق أن جوان، فى قرارة نفسها خامرها الشك فى أن يكون الأمر أسوأ من ذلك حقا فان انحلال صديقتها بدا لها مأساة حقيقية.

ولكن بلانش لم ينضب معينها فقالت:– أرجو أن تقومى برحلة طيبة، وأن كنت أتوقع غير هذا لأنه يخيل لى أن الأمطار سوف تهطل. وإذا حدث هذا فستقضين مدة طويلة سجينة الصحراء.

– لا سمح الله. وألا انقلبت كل تقديراتى. أن مكانى محجوز.

– أوه –إن عبور الصحراء نادرا ما يتم طبقا للتقديرات. وإذا أفلحت فى عبور المخاوض فان كل شئ عندئذ سيسير على ما يرام. والسائقون يحملون معهم بالطبع ما يكفى من الزاد ومن الماء وانه لمن المزعج أن يقضى المرء وقته فى الانتظار، لا شاغل له الا التفكير.

ابتسمت جوان وقالت:– قد يكون هذا تغييرا طريفا فان الحياة العادية لا تترك للمرء وقتا لكى يستريح تماما وطالما تمنيت أن أقضى أسبوعا لأقوم فيه بأى عمل على الإطلاق..

– كنت أظن أنك تستطيعين أن تمنحى نفسك كل ما تريدين من الوقت.

– أنك مخطئة يا بلانش، فاننى كثيرة المشاغل. فأنا سكرتيرة اللجنة الزراعية وعضو بمجلس الصليب الأحمر المحلى ثم اننى أهتم بالجمعيات الخيرية وبالمرشدات ولى نشاط كبير فى النواحى السياسية، ومع كل هذا فهناك شئون البيت. وإذا كنا نخرج كثيرا فإننا نستقبل أيضا، وطالما اعتقدت أن من الأفضل لرجل القانون أن ينمى علاقاته. ثم اننى أعبد الزهور وأحب أن أقوم بفلاحة البستان بنفسى.

وصدقيني يا بلانش انني لا أجد دقيقة فراغ فيما عدا ربع ساعة من وقت لآخر قبل العشاء فأجلس في هدوء وأستريح قليلا، وهذا لكي أكون على علم بالكتب الحديثة التي يتحدثون عنها.

قالت بلانش وهي تنظر إلى وجه صديقتها الخالي من التجاعيد :- لا ريب أنك تقومين بكل هذا بأعجوبة.

- الأفضل أن يرهق الإنسان نفسه في العمل بدلا من أن يتبلد ذهنه. وأعترف بأنني تمتعت دائما بصحبة جيدة. وانني أدرك حظي حقا، وعلى الرغم من كل هذا فان من الأفضل أن نحس أن هناك يوما أو يومين لا نبذل فيهما شيئا غير التفكير والتأمل.

قالت بلانش:- انني لأتساءل فيم يمكن أن تفكري؟

راحت جوان تضحك، وكانت ضحكة رقيقة صافية وقالت:- هناك أمور كثيرة يمكن أن يفكر المرء فيها على ما أعتقد.

قالت بلانش وهي تغتصب ابتسامة:- يمكننا التأمل دائما في الخطايا التي نرتكبها.

ردت جوان في لهجة مهذبة يشوبها الاستهجان:- نعم. هذا صحيح.

نظرت بلانش إليها نظرة ثاقبة وقالت:- لن يستغرق منك هذا وقتا طويلا على كل حال.

ثم قطبت حاجبيها واستطردت على الفور:- وستنتقلين بعد ذلك إلى استذكار كل أعمالك الطيبة وكل الفرص التي يسرت لك حياتك... ولعمري... لا أدري... وقد يكون هذا أمرا مزعجا.. وانني لأتساءل - وترددت- إذا لم يكن أمام المرء ألا أن يفكر في نفسه طوال أيام متتالية... انني أتساءل ما الذي يمكن أن يكتشفه؟

قالت جوان متشككة ومتمردة على هذه الفكرة:- وهل يمكن أن يكتشف شيئا لم يكن يعرفه من قبل؟

قالت بلانش وهى تزن كلماتها:- أظن أن هذا ممكن.

ثم أردفت وهى ترتجف:- واننى أؤثر أن لا أحاول.

قالت جوان:- هناك أشخاص يميلون بطبعهم الى حياة التأمل. أما أنا فلست منهم. أن مفهوم التصوف والتأمل غريب عنى تماما ولا أعتقد أبدا أننى أملك هذا النوع من العبادة فهو نوع مبالغ فيه إذا جاز لى القول.

قالت بلانش:

- من الأسهل طبعا أن نلجأ إلى الصلوات القصيرة العادية.

وأسرعت تقول ردا على نظرة جوان المتسائلة:- ليرحمنى الله وليغفر لى فاننى آثمة كبيرة.

أحست جوان بشئ من الارتباك وقالت: -نعم... نعم... طبعا.

ضجت بلانش بالضحك وقالت:- إن المزعج معك يا جوان هو أنك لست آثمة. وهذا يحرمك من صلوات كثيرة، أما أنا فان آثامى لا تعد ولا تحصى ويبدو لى أحيانا أننى لم أكف عن القيام بعكس ما كان يجب أن أقوم به.

لزمت جوان الصمت لا تدرى ماذا تقول واستطردت بلانش فى استخفاف:- أوه. من العسير أن يعرف المرء كيف يعيش فهو يرحل عندما ينبغى أن يبقى ويحتد ويثور فى الوقت الذى يجب أن يلتزم فيه الهدوء، وفى بعض الأحيان تكون الحياة جميلة بحيث لا يصدق الأمر الواقع. ثم ينقلب كل شئ ويهوى فى جحيم الكوارث والأشجان. وعندما

يسير كل شئ على مايرام يعتقد ان الامر سيدوم إلى الابد.. وهذا طبعا محال. وعندما يقع فى ورطة يظن أنه لن يخرج منها أو ينجو منها على الإطلاق. هذه هى الحياة، فماذا تريدين؟

كان هذا استيعاب بلانش للحياة، وهو يختلف كل الاختلاف عن استيعاب جوان لها بحيث تعذر عليها الرد بطريقة حكيمة. ونهضت بلانش فجأة وقالت:

– أنك تغالبين النوم، وأنا كذلك. ثم أننا سنرحل غدا صباحا فى وقت مبكر. يسرنى أننى التقيت بك يا جوان.

وتبادلت المرأتان التحية واحتفظت كل منهما بيد الأخرى مدة أطول مما يجب، وأسرعت بلانش تقول فى لهجة خرقاء يشوبها شئ من الغبطة:

– لا تنزعجى بخصوص بربارا، فاننى واثقة أن كل شئ على ما يرام. أن بيل راى شاب باسل شهم ثم أن الطفل سيسوى أمورهما. انها مازالت صغيرة السن بالطبع والحياة التى تحياها هنا تدير رؤوس الكثير من النساء.

أبدت جوان دهشتها التامة إزاء هذا القول الذى لم تفهم له معنى وقالت فى صراحة:

– اننى لا أفهم ما تقولين إطلاقا.

اكتفت بلانش بأن نظرت إليها فى إعجاب وقالت:

– عهدى بك كما كنت فى المدرسة دائما. لا تقرين بالواقع أبدا. وبهذه المناسبة، أننى أدين لك بخمسة وعشرين جنيها. هذه أول مرة أفكر فيها فى هذا الموضوع.

- أوه... لا تزعجى نفسك.

قالت بلانش ضاحكة:- لا تخافى، فان فى نيتى أن أردها لك. ولكن الإنسان عندما يقرض غيره مالا يعرفه أنه لن يراه بعد ذلك أبدا، وعليه فأنا لا أزعج نفسى بالمرة بأمره. لقد أتانى هذا المبلغ كمعجزة.

- أظن أنك كنت تجرين عملية لاحد أولادك.

- كنت أخشى ذلك. ولكن الطفل شفى وحده. وعندئذ أقمنا حفلة صغيرة واشتريت مكتبا جميلا قدمته هدية لتوم وقد فرح به كثيرا.

وتذكرت جوان عندئذ شيئا فسألتها:- هل ألف كتابا عن وارين هاستجز؟

انبسطت أسارير بلانش وقالت:- مرحى يا جوان. ان لك ذاكرة قوية، نعم ١٢٠٠٠٠ كلمة.

- وهل نشره؟

- كلا بالطبع. ولكنه بعد أن فرغ منه كتب ترجمة حياة بنيامين فرانكلين، ولم يلق نجاحا هو الآخر. وأنه لذوق غريب، أليس كذلك؟... أن يتدله فى ترجمة حياة الملتحين بالذات، أما أنا فاننى إذا فكرت فى كتابة ترجمة لحياة أحد ما فاننى أكتب ترجمة حياة كليوباترا أو كازانوفا مثلا... أى ترجمة حياة شخص حفلت حياته بالمغامرات. ولكن لكل ذوقه الخاص... وقد عاد توم فالتحق بوظيفة أخرى ولكنها أقل شأنا من وظيفته السابقة. ويسرنى جدا أنه لقى هذه الفترة لكى يستريح ويسرى عن نفسه، فانه لمن الأهمية بمكان أن يمارس الرجال نشاطهم فى المجال الذى يروق لهم.

قالت جوان:- هذا رهن بأمور كثيرة. فهناك وجهات نظر جمة يجب أخذها فى الاعتبار.

– ألم تعيشى أنت وفق ما أحببت واشتهيت؟

قالت جوان وقد أخذت على غرة:– أنا؟

– نعم، أنت. أردت الزواج برودنى سكودامور، أليس كذلك؟. وأردت انجاب أولاد، وأردت فوق كل شئ أن يكون لك بيت هادى.

وقهقهت ثم أردفت تقول:

– وأن تعيشى سعيدة، وأن تسبحى بحمد الله.

راحت جوان تضحك هى الأخرى وقد تملكها الارتياح إزاء اللهجة الرقيقة التى تكلمت بها زميلتها وقالت:

– لا تسخرى منى... أعترف أن الحظ قد ابتسم لى كثيرا.

ولكنها لم تلبث أن ارتاعت لعدم لباقتها أمام بؤس بلانش وشقائها فأسرعت تقول:

– يجب أن أصعد حقا لكى أنام. طابت ليلتك. يسرنى أننى التقيت بك.

وضغطت على يد بلانش فى حرارة (هل تنتظر بلانش أن تتعانقها؟ كلا بالطبع) وصعدت السلم فى رشاقة وقالت وهى تنضو عنها ثيابها فى عناية ثم تخرج زوجا من الجوارب لليوم التالى. (مسكينة بلانش... أنه لأمر محزن حقا).

ولبست بيجامتها وراحت تمشط شعرها (مسكينة بلانش... أنها فظيعة... ومبتذلة جدا).

وإذا همت بأن تستلقى فوق فراشها ترددت حائرة. ما من أحد يؤدى الصلاة كل يوم طبعا. وقد مر وقت طويل لم تؤد فيه جوان صلاتها. ولم تطأ الكنيسة بقدميها فى الأيام الأخيرة... ولكن لم يكن هذا ليزعزع إيمانها.

وفجأة تملكتها رغبة قوية فى أن تركع بجوار الفراش غير المريح... (هذه الأغطية القطنية الخشنة!) الحمد لله أنها جاءت معها بوسادة ناعمة و... نعم... وأن تتلو صلاتها بتقوى وورع، كطفلة صغيرة.

وأخجلتها هذه الفكرة وجعلتها تشعر بأنها على غير راحتها.

ووثبت الى فراشها مرة واحدة وأعادت الأغطية فوقها ثم أخذت الكتاب الذى كانت قد ألقته فوق الطاولة الصغيرة بجوار الفراش وعنوانه (مذكرات الليدى كاترين) وهو عبارة عن قصة طريفة تتناول العهد الفيكتورى. وقرأت بضعة سطور ولكنها لم تلبث أن أدركت أنها لا تستطيع التركيز فقالت (اننى متعبة جدا).

وأعادت الكتاب مكانه واطفأة النور.

وأعادت إليها رغبتها فى الصلاة. ما هذا الذى نطقت به بلانش وجرح شعورها هكذا؟ أن هذا يحرمك من صلوات كثيرة... ما الذى كانت تقصده بهذه الكلمات؟

وصاغت صلاة قصيرة مكونة من بضع كلمات غير منسجمة ولا رابط بينها.

(ربى... أحمدك... مسكينة بلانش... أحمدك يا رب على اننى لست مثلها... الحمد لله... اننى كنت محظوظة جدا... خصوصا وأننى لست مثل هذه المسكينة بلانش مسكينة هى... أنها فظيعة جدا حقا. ولكن الذنب ليس ذنبها طبعا. فاجرة. فظيعة. كانت صدمة لى. الحمد لله. اننى مختلفة جدا عنها. مسكينة بلانش. وغلبها النوم.



المسافرة الوحيدة

كان المطر ينهمر عندما خرجت جوان سكودامور من محطة الترحيل فى صباح اليوم التالى، وبدأ هذا الرذاذ الخفيف غريبا فى هذه البقعة من العالم.

ورأت جوان أنها المسافرة الوحيدة فى طريق الغرب، وهى مناسبة غريبة كما قيل لها على الرغم من قلة عدد المسافرين فى ذلك الموسم، ولو أنها سافرت يوم الجمعة الماضى لكان برفقتها عدد كبير منهم.

وجدت أما الباب سيارة قديمة من سيارات السياحة يقودها سائق أوروبى ومعه مساعد من الاهالى.

وكان مدير المحطة واقفا فى ضوء القمر الباهت فى انتظارها لكى يساعدها على الركوب، وصاح بالحمالين لكى ينقلوا الحقائب الى المكان الذى تريد، ثم تمنى لها رحلة طيبة وانحنى فى عظمة وأعطاها صندوقا صغيرا من الورق المقوى يحتوى على وجبة غذاء. وصاح السائق فى مرح:

- ابتعد يا ابليس... الى اللقاء الليلة أو الأسبوع المقبل، وأظن بالحرى اننا سنلتقى فى الأسبوع المقبل.

وانطلقت السيارة وأخذت تتلوى فى شوارع المدينة الشرقية بين المبانى على طريقة المعمار الغربى بما فيها من تناقض غريب. وفوجئ بعض الحمير بصوت بوق السيارة المتتابع فأفسحت لها الطريق، وتفرق بعض الصبية المتجمهرين، وخرجت السيارة من المدينة وأخذت طريقا غير ممهد بدا أنه يمتد حتى نهاية العالم، ولكنه لم يلبث بكل أسف أن انتهى بعد أثنى عشر كيلومترا الى طريق ضيق، شديد الضيق.

وعلمت جوان أنه لابد من نحو سبع ساعات، إذ كان اليوم صحوا، لبلوغ تل أبو حميد، وهو آخر طريق السكة الحديد التركية، ويأتيها القطار القادم من اسطنبول فى الصباح الباكر ويغادرها فى الساعة التاسعة والنصف مساء. ويقضى المسافرون ساعات الانتظار فى محطة ترحيل صغيرة بسيطة يستطيعون تناول طعامهم فيها عند الضرورة. ولعلهم يلتقون فى الطريق بقافلة السيارات القادمة منها.

وراحت سيارة جوان تتقدم وهى تهتز وترتج رجات شديدة بحيث ان جوان نفسها أخذت تهتز من ناحية لأخرى، وخيل لها أنها ستسقط على أرضية السيارة.

وصاح بها السائق من فوق كتفه فقال أنه يأمل أن تحتمل هذا الوضع لانهما يقطعان طريقا وعرا مملوءا بالمطبات، ولان عليه أن يسرع بقدر الأمكان خشية من حدوث مالا تحمد عقباه عند عبور المخاوض الثلاث التى لابد من عبورها.

وكان ينظر ما بين لحظة وأخرى الى السماء فى قلق وجزع.

وراح المطر يهطل أكثر عن ذى قبل، وراحت السيارة تهتز وتنزلق بحيث استولى الانزعاج على جوان.

وبلغا المخاضة الأولى فى نحو الساعة الحادية عشرة. وكان الماء

يجرى بها ولكنهما تمكنا من عبورها بدون أى عائق. وبعد أن صعدا منحدرا وعرا بعض الشئ على الجرف المقابل أحسا بشئ من الارتياح. ولكن بعد كيلومترين اثنين غاصت العجلات فى الطين وأبت السيارة أن تتقدم.

وارتدت جوان معطفها الواقى من المطر وخرجت من السيارة وفتحت علبة الورق المقوى وراحت تأكل وهى تسير جيئة وذهابا تتابع عمل الرجلين وهما يحاولان تخليص العربة مستعينين بالمجارف والرافعة وببعض ألواح من الخشب كانا قد أحضراها معهما. وكانا يتصببان عرقا وراحت العجلات تدور حول نفسها عبثا. واجتاح جوان الشك من نجاح هذه العملية ولكن السائق أكد لها بأنه رأى أسوأ من ذلك. وأخيرا وبسرعة الدوران لمست العجلات الأرض واندفعت العربة الى الأمام فوق أرض أكثر صلابة.

وبعد ذلك بقليل رأوا حافلتين قادمتين من الطريق المضاد. وتوقفت الحافلات الثلاث ودار الحديث بين السائقين وأخذوا يتبادلون النصح والمعلومات.

ورأت جوان بين المسافرين بالحافلتين الأخريين أمرآة ووليدها وضابط فرنسى وعجوز أرمنى ورجلين من رجال الأعمال الإنجليز.

وانطلقت حافلة جوان فى طريقها، وتوقفت مرتين اضطراريتين. وفى كل مرة كانت مجهودات المجارف والرافعة والألواح الخشبية تغلب الطبيعة، وكانت المخاضة الثانية أشد صعوبة من الأولى فى العبور، وقد بلغاها مع المغرب وقد تجمع فيها سيل حقيقى.

وقالت جوان تسأل فى قلق: - هل ينتظر القطار؟

- ان المواعيد تسمح بأن ينتظر ساعة لا أكثر، وهم لا ينتظرون

عموما بعد الساعة السابعة والنصف.

ولكن الطريق تحسن بعد ذلك إذا تغيرت طبيعة الأرض وراحت الحافلة تنطلق فى قلب الصحراء. غير أن المخاضة التالية كانت تدخر لهم صعوبات أشد بسبب الجرف الذى كان لابد لهم من صعوده، فقد كان وعرا موحلا وشديد الانزلاق. وكان الليل قد هبط عندما انتقلت الحافلة الى أرض صلبة، وأصبح الطريق بعد ذلك سهلا. ولكنهم لم يبلغوا تل أبو حميد قبل العاشرة والربع، وكان قطار اسطنبول قد انطلق.

وكانت جوان مجهدة تكاد تسقط من التعب بحيث لم تع شيئا.

ودخلت وهى تترنح إلى غرفة الطعام بمحطة الترحيل وتهاوت أمام أحدى الموائد وأبت أن تتناول طعاما واكتفت بفنجان من الشاى ثم أسرعت الى الغرفة ذات الأسرة الثلاثة، وكانت ضعيفة الضوء، كئيبة المنظر. وبعد أن أخرجت أقل ما يمكن من ثيابها ألقت بنفسها فوق الفراش وراحت فى سبات عميق.

واستيقظت فى صباح اليوم التالى وقد استردت هدوءها ونشاطها العاديين، واستوت جالسة فوق الفراش، ونظرت إلى ساعتها، فإذا بها التاسعة والنصف فنهضت وتجملت ومضت إلى غرفة الطعام. وأسرع إليها رجل هندى يغطى رأسه بعمامة مهيبة فطلبت أن يأتيها بطعام الإفطار ثم ذهبت فى بطء إلى الباب وألقت نظرة الى الخارج.

وفى مرح معتدل اعترفت بينها وبين نفسها بأنها بلغت بلدا مفقودا.

كانت قد قامت برحلة الذهاب إلى بغداد بالطائرة وكان طريق البر اكتشافا جديدا لها. كان لابد لها من سبعة أيام لكى تصل من بغداد إلى لندن: القطار المنطلق إلى كركوك ويوم فى الحافلة وليلة فى محطة

الترحيل وباقى المدة فى الحافلة إلى أن تبلغ تل أبو حميد ثم تستقل قطار الشرق. كان هذا هو الطريق المرسوم، ولكن كل التقديرات انهارت فى الماء وألفت نفسها متعطلة عن الحركة تقريبا.

لم يكن هناك أى خطر فى أن يهطل المطر صباح اليوم من جديد فقد كانت السماء زرقاء بلا غيوم، ولم تكن العين تطالع فى كل مكان غير الرمال. وبجوار محطة الترحيل شبكة من الأسلاك الشائكة تحيط بكمية من القمامة والمعلبات الفارغة، وبجوارها أرض مسورة تتسكع فيها بعض الدجاجات الهزيلة وهى تطلق صيحات حادة وسحب من الذباب كانت تحط على العلب الفارغة تشدها رائحة الأطعمة. وما اعتبرته جوان كومة من الخرق البالية القذرة تحركت فجأة فإذا بها تتكشف عن غلام صغير.

وبعد قليل، وخلف شبكة أخرى من الأسلاك الشائكة، تقوم محطة السكة الحديد، وهى عبارة عن مبنى صغير بجواره بئر ارتوازية، ومن بعيد، نحو الشمال كان يبدوا أن الأفق تحدده سلسلة غامضة من الجبال.

وفيما عدا كل هذا، لم يكن هناك غير العدم. لا أسوار ولا بيوت ولا نباتات. لا شئ غير المحطة وقضبان من الأسلاك ولا شئ غير ذلك.

حدثت جوان نفسها فقالت ان هذا أمر يدعو إلى الطرب حقا... أن تتوقف هكذا مرغمة فى مثل هذا المكان الغريب. وظهر الهندى على عتبة الباب وأعلن أن طعام إفطار السيدة قد أعد.

استدارت جوان ودخلت لتجد الجو المميز لمحطات الترحيل... العتمة ورائحة دهن الخروف وزيت الريافين والفليت، كل هذا استقبلها كنوع من الطقوس الغريبة.

وكان صاحب المحطة قد أعد القهوة ومعها بعض اللبن وطبقا من البيض المقلى، وخبزا مقددا يابسا كالحديد ومربى وكومبوت خوخ.

وأكلت بشهية مفتوحة ثم جاء الهندى أيضا فسألها عن الوقت الذى تحب أن تتناول فيه غذاءها واتفقا على أن يقدم لها الغذاء فى منتصف الساعة الثانية.

وكانت تعلم أن القطارات تنطلق ثلاث مرات كل أسبوع: الاثنين والأربعاء والجمعة. وكان اليوم يوم خميس وعليه فلن تستطيع الرحيل قبل مساء الغد، وسألت الهندى صاحب العمامة اذا كان ذلك صحيحا فأجاب قائلا:

– تماما يا سيدتى. لقد فاتك قطار أمس مساء وهذا حظ سيئ فان الطريق لا يمكن عبوره الآن لأن المطر كان شديدا فى الليلة الماضية، ومعنى هذا أن السيارات لن تأتى أو تنطلق الى الموصل قبل أيام كثيرة.

– ولكن القطارات تنطلق فى مواعيدها طبعا.

لم تكن جوان لتهتم أو تبالى بطريق الوصول.

– نعم. سيأتى القطار غدا ثم ينطلق فى المساء.

هزت جوان رأسها مسرورة وسألته عن الحافلة التى أقلتها فأجاب:

– أنها عادت فى الصباح الباكر، ويتعشم السائق أن يجتاز الطريق. أما أنا فلست واثقا وأظن أنه سيضطر إلى التوقف يوما أو يومين فى الطريق.

وبدون إظهار مزيد من الاهتمام خطر لجوان أن الأمر محتمل فى الواقع.

واستطرد ذو العمامة فى تقديم بياناته قائلا: - وهذا المبنى الذى هناك، خلف الأسلاك الشائكة هو المحطة... وهى تقع بعد الحدود.

تأملت جوان الحدود فى احترام وهى تعجب فى نفسها من المنظر الغريب الذى يطالعها... أهذه هى الحدود اذن؟... عبارة عن بضعة أسلاك شائكة تفصل بين أرضين؟...

وقال الهندى وهو يبتسم ابتسامة كبيرة: - (الغذاء بعد ساعة ونصف تماما) ثم اختفى. وتساءلت جوان فيم تكرس هذا الصباح؟ كان مقدورها أن تستأنف قراءة مذكرات الليدى كاترين ديزارت الممتعة أو أن تكتب بعض الرسائل التى تستطيع أن تبعث بها من محطة حلب. فان معها بلوكنوت وبضعة ظروف فى حقائبها. ولكنها ترددت لحظة وهى واقفة بباب محطة الترحيل، فان المكان كان معتما جدا وكريه الرائحة... ربما تقوم بنزهة فى الخلاء.

ومضت فأخذت قبعتها لا لأن الشمس كانت شديدة الخطر فى الموسم ولكن لأنها رأت أن والأفق أن تتوخى الحرص والحذر. ولبست نظارتها السوداء، ووضعت البلوكنوت والقلم الحبر فى حقيبتها ثم خرجت وسارت بمحاذاة أكوام العلب الفارغة والقمامة، مولية ظهرها إلى المحطة وهى تفكر فى التعقيدات الدولية التى تقع لو أنها حاولت اجتياز الحدود.

وقالت تحدث نفسها: - ما أغرب أن ينطلق المرء هكذا دون أن تكون له غاية أو غرض.

وكان هذا أحساسا جديدا وجديرا بالملاحظة... فان المرء عندما يمشى فى الكثبان والأراضى البور وعلى الشاطئ أو فى طريق فانه يفعل ذلك لغرض معين لكى يذهب إلى الناحية الأخرى من الجبل مثلا

أو إلى غابة ما أو إلى حقل معين أو لعبور ممر ما حتى المزرعة لكى يبلغ الطريق العام الموصل إلى المدينة المجاورة أو ليسير بمحاذاة الشاطئ حتى يصل إلى الخليج.

ولكن الأمر هنا كان على العكس فانه يمكن أن ينطلق من مكان معين ولكن لم تكن هناك غاية لانطلاقه هذا. كان كل ما يستطيع أن يفعل هو أن يبتعد عن محطة الترحيل، فإلى اليمين والى اليسار والى الأمام لم يكن هناك غير الأفق الداكن العارى.

وانطلقت دون أن تسرع الخطى. كان النسيم جميلا والطقس حارا ولكن فى اعتدال. وسارت نحو عشر دقائق قبل أن تلتفت الى الخلف. بدت محطة الترحيل وملحقاتها بعيدة وقد أكسبتها المسافة طابعا غريبا. وبدت محطة السكة الحديد بعدها مكعبا حجريا أو لعبة من لعب الأطفال.

ابتسمت جوان واستأنفت السير. كان الهواء جميلا حقا والجو صافيا باردا فى اعتدال ولم يكن هناك أى أثر للبشر ولا للمدنية... الشمس والسماء والرمال ولا شئ غير ذلك. كان المنظر رائعا، واغتبطت وهنأت نفسها بمصيرها. كانت هذه مغامرة حقا... شرخ لذيذ فى رتابة الحياة. اغتبطت ان فاتها القطار. أربع وعشرون ساعة من الراحة الكاملة والسلام التام... تستطيع أن تستفيد منها وأن تحتفظ بهدوئها النفسى حيث أنه ليس هناك من ينتظر عودتها بصفة عاجلة ويمكنها على كل حال أن تبرق لرودنى من اسطنبول لكى تفسر له سبب تأخيرها.

لله دره هذا العزيز المسكين رودنى... تساءلت ماذا عساه يفعل الآن؟ لم يكن من العسير أن تحدس ذلك فقد كانت تعرفه جيدا. كان

يجلس الان أمام مكتبه بمكتب الدرمان وسكودامور وويتنى، فى غرفة فسيحة مريحة بالطابق الثالث تشرف على ميدان السوق، كان قد انتقل إليها عقب وفاة ويتنى العجوز. كان يحب هذه الغرفة، وتذكرت جوان يوم أقبلت فيه إلى المكتب لزيارته فألفته واقفا أمام النافذة ينظر إلى السوق، (وكان اليوم يوما من أيام السوق الرسمية) ويتابع بعينه الماشية التى يأتون بها من وقت لآخر. وقد قال لها عندئذ هذا قطيع جميل من شتلاند... وكانت قد أتتْ لكى تقول له (أريد أن أتحدث معك عن جهاز التدفئة يا رودنى. ان عطاء جالبريت يبدو لى مرتفعا جدا فهل يجب أن ألجأ الى تشامبرلين؟).

ولكنها رأت رودنى يتحول إليها فى غير اكتراث ويرفع نظارته ويدعك عينيه قبل أن ينظر إليها فى شرود كما لو كان لا يراها، وما زالت تسمع حتى الآن لهجته وهو يقول(جهاز التدفئة)؟ كما لو كان الأمر يتعلق بشئ غريب معقد يستغلق عليه فهمه وأخيرا قال فى غباء (أظن أن هودوسدون يبيع عجلة الصغير فهو يعانى ضائقة مالية على ما اعتقد).

وقد رأت جوان أن من الكياسة أن يهتم رودنى بهودوسدون العجوز صاحب (المزرعة الصغيرة) فان الرجل المسكين كان فى حالة يرثى لها، ولكنها تمنت أن يعجل رودنى بالرد عليها فيما جاءته من أجله لأن المحامى يجب أن يكون حاضر البديهة فى كل وقت، وإذا كان رودنى يستقبل عملاءه بمثل هذا الشرود فان من الممكن أن يحدث ذلك أسوأ الأثر فى نفوسهم.

ولهذا أسرعت تقول فى فروغ صبر وفى شئ من الغطرسة: - دع حديث الصوف والخراف الآن يا رودنى. اننى أحدثك عن جهاز التدفئة.

وعندئذ وافق رودنى على أن يلجأ إلى شخص آخر ولكنه أردف يقول أن الأسعار فى ارتفاع مستمر وأن هذا قد يبرر طلب جالبريت. وإذ نظر إلى الأوراق المكدسة فوق مكتبه أسرعت تقول أنها لا تريد أن تضيع وقته لأنه يبدو أن لديه الكثير من العمل.

ابتسم رودنى وأجاب بأن العمل يتكدس فى الواقع وأنه راح ينظر إلى السوق ليسرى عن نفسه قليلا وأردف يقول (لهذا السبب أحب هذه الغرفة. فاننى انتظر يوم الجمعة طوال الأسبوع. انصتى إلى هذا.

ورفع يده فأرهفت السمع، وسمعت أصوات الماشية وخوارها... خليط من الأصوات المتنافرة الفظيعة بدأ انه يروق لرودنى سماعها. وكان يحتفظ برأسه مائلة بعض الشئ دون أن يكف عن الابتسام.

ولكن اليوم لم يكن من أيام السوق، ولا ريب أن رودنى جالس الأن أمام مكتبة لا يفكر فى التسرية عن نفسه، وليس هناك أى خوف من أن يستقبل عملاءه فى شرود... كان الجميع يقدرونه ولا يذكرونه إلا بكل خير.

وقالت جوان فى كبرياء: - لولاى أنا لرفض هذه المهنة.

وعاد ذهنها إلى ذلك اليوم الذى أطلعها فيه رودنى على اقتراح عمه.

كان الأمر يتعلق بعملية عائلية... مكتب محاماة رائج يضمنه ماضيه، وكان المتفق دائما أن يلتحق رودنى به مجرد أن يفرغ من دراسة الحقوق. ولكن العم هنرى عرض عليه أن يتخذه شريكا على الفور بشروط مجزية لم تكن متوقعة.

وبدأت جوان دهشتها وغبطتها وهنأت رودنى فى حرارة ولكنه لم يشاركها غبطتها وسرورها ونطق بهذه العبارة الغريبة (هذا اذا قبلت).

وصاحت مرتاعة: - ولماذا لا تقبل يا رودنى؟

تذكرت فى وضوح وجلاء وجهه الأصفر المتعب حين التفت إليها، واكتشفت عندئذ مدى انفعاله وعصبيته. كان ينتزع العشب بأصابع مرتعشة ولمعت عيناه السوداوان بنظرة غريبة فيها توسل وغمغم: (اننى أكره حياة المكاتب... أمقتها).

رثت جوان له من كل قلبها وقالت (أوه. اننى أعلم هذا تماما يا عزيزى. أنها حياة خانقة... عمل متواصل مرهق جدا وخال من كل متعة أو بهجة، ولكن صفة الشريك ستغير كل شئ. أعنى أنك ستولى اهتمامك بالطبع...

وحيث أن... وبما... الخ.

نطق بهذه العبارة القانونية الخرقاء وعلى شفتيه ابتسامة ولكن بعينين حزينتين تنطقان بالرجاء والتوسل. كما لو كان يتوسل إليها وهو جاث على ركبتيه. يتوسل إليها وهى التى تحبه كل الحب. وقالت له:

– ولكن كان من المتفق عليه دائما أن تلتحق بالمكتب.

– هذا صحيح. ولكننى لم أكن أعرف أن الأمر سيضايقنى الى هذا الحد.

– آه... ولكن... ما هى المهنة التى تحب مزاولتها؟

وعندئذ أسرع يقول على عجل وفى حمية كبيرة: – أود أن أشتغل بالزراعة. (إن المزرعة الصغيرة) معروضة للبيع، وهى فى حالة يرثى لها فان هارلى لم يعن بها كما يجب، ولكن لهذا السبب بالذات يمكن الحصول عليها بثمن بخس... وهى أرض طيبة كما تعرفين.

واستمر فى كشف خططه فى كلمات فنية أدهشتها أيما دهشة لأنها كانت تجهل الفرق بين القمح والشعير كما تجهل كل ما له صلة بالغلة والماشية ونوع البقرات الحلوب ولم يسعها إلا أن تقول فى صوت فاتر:

- (المزرعة الصغيرة)؟... ولكنها تبعد عن أشلدون... فى بقعة نائية عن العمران تماما.

- أنها أرض طيبة يا جوان... مكشوفة.

واندفع من جديد. ولم تكن تعتقد أنه يمكن أن يتكلم بكل هذا الحماس وأن تتدفق الكلمات من بين شفتيه هكذا. وسألته مشدوهة:

- ولكن هل تستطيع أن تكسب قوت يومك منها يا حبيبى؟

- أكسب قوت يومى؟... أوه، نعم. ربما فى شئ من التواضع.

- هذا ما كنت أظن، فطالما قيل لى أن من المحال أن يثرى المرء من المزرعة.

- آه... هذا صحيح. إلا إذا كان المرء يملك دخلا آخر لا بأس به.

- أوه، أرأيت؟... هذا أمر غير معقول وغير مقبول.

- ولم لا يا جوان؟ اننى أملك رأس مال صغير كما تعرفين، وبما تدره المزرعة مع دخلى الصغير سنكون فى بحبوحة. فكرى فى الحياة الرائعة التى سنعيشها. ما أجمل أن يعيش المرء فى الريف؟

- يبدو لى أنك لا تعرف شيئا عن ذلك.

- أوه، بل أعرف. هل نسيت أن جدى لأمى كان مزارعا كبيرا فى أقليم ديفونشاير؟ كنت أقضى كل أجازاتى لديه فى صباى. لم أشعر فى حياتى بالسعادة مثلما شعرت بها فى تلك الأوقات.

وحدثت نفسها عندئذ فقالت صحيح أن الرجال ما هم إلا أطفال كبار.

وقالت فى رفق: - أريد أن أصدق هذا يا رودنى، ولكن الحياة ليست أجازات فحسب. يجب أن نفكر فى المستقبل... وفى مستقبل تونى بالذات.

ذلك أن تونى كان قد بلغ شهره العاشر عندئذ.

وأردفت تقول: - وقد تتجب أولادا غيره.

ونظر إليها عندئذ متسائلا فأحنت رأسها وهى تبتسم فقال: - ولكن إلا تفهمين يا جوان أن هذا سبب آخر لأنه ليس هناك أفضل من جو الريف للأولاد، فانه جو صحى فضلا عن أنه سيتوفر لهم البيض واللبن الطازج والهواء النقى، وسيتعلمون العناية بالحيوانات.

- ولكن هناك نقاط كثيرة يجب أن تفكر فيها يا رودنى. يجب أن نفكر فى تربيتهم أولا. لابد لهم من كليات من الدرجة الأولى وأنت تعرف المصاريف التى يجب مواجهتها فى سبيل ذلك، ثم هناك الأحذية وطبيب الأسنان، وطبيب الأمراض الباطنية، ثم يجب أن يتعارفوا ببعض الأصدقاء، وليس من حقك أن تفعل ما يدور برأسك أنت بالذات - يجب أن تفكر فى الأولاد. ومهما يكن فان عليك واجبات حيالهم.

وقال رودنى متعنتا وان كانت لهجته يشوبها شئ من الشك: - أنهم سيكونون سعداء...

- إن فكرتك هذه مستحيلة التنفيذ يا رودنى. انك لا تتكلم بلهجة الجد طبعا. فكر جيدا. انك اذا التحقت بالمكتب فانه يمكنك أن تحصل ذات يوم على مرتب لا يقل عن ألفى جنيه فى السنة.

- أعتقد أننى أستطيع الحصول على هذا المرتب بكل سهولة فان عمى هنرى يربح أكثر.

- أرأيت؟ لا يمكنك أن ترفض مثل هذا الاقتراح، فان هذا ليكون جنونا.

وأبدت عزما وثباتا كبيرين فقد كان لابد لها ان تدافع عن حلمها وأن تحمله على التسليم بوجهة نظرها.

وإذا كان لا يرى الفائدة التى ستعود عليه من عرض عمه فعليها هى أن تتحمل المسئولية... إن الاشتغال بالزراعة فكرة مؤثرة... ولكنها سخيفة ومضحكة. بدأ لها رودنى كصبى صغيرا وأحست بالقوة والثقة فى نفسها وبالأمومة نحوه وقالت:

– لا تظن أننى لا أفهمك أو أننى لا أرثى لك يا رودنى. اننى أتعاطف معك ولكن رغبتك لا تتوافق مع الحياة العادية.

قاطعها لكى يقول لها ان الحياة فى الريف هى الحياة العادية.

– نعم، ولكنها حياة لا تتفق مع بيئتنا... فى حين أنهم يعرضون عليك مركزا ممتازا يمكنك أن تبدأ فيه بداية طيبة بفضل العرض المدهش الذى يعرضه عليك عمك.

– أوه، اننى أعلم، فهو عرض يتجاوز كل ما يمكن أن أتوقعه.

– إذن فأنت لا تستطيع... لا تستطيع أن ترفض حقا... أنك ستندم على ذلك طوال حياتك... سيبكتك ضميرك.

غمغم يقول: – يا لهذا المكتب اللعين.

– أوه، رودنى... لا يمكن أن تكره المكتب الى هذا الحد.

– بل أكرهه... تذكرى اننى قضيت فيه خمس سنوات.

– ستتعود عليه. ومهما يكن فسيختلف الأمر عندما تكون شريكا به. وسينتهى بك الأمر الى الاهتمام به كل الاهتمام، وستهتم كذلك بالعملاء الذين سيأتون لاستشارتك. سترى يارودنى. ستكون سعيدا جدا فى النهاية.

يا لنظرته إليها عندئذ أنها ما زلت ترى نظرته الحزينة المهمومة. قرأت فيها الحب واليأس وشيئا آخر لعله قبس آخر ضعيف من الأمل.

سألها قائلا: - وكيف تعلمين أننى سأكون سعيد؟

أسرعت تقول فى مرح:

- اننى واثقة من ذلك كل الثقة. سوف ترى.

وأكدت قولها هذا بهزة من رأسها فى قوة وفى إقناع فتنهد وقال فى حدة:

- حسنا. اتفقنا. ليكن ما تريدين.

فكرت جوان فقالت: - نعم. أوشك أن يتم الأمر.. وكان من حظ رودنى أنها تمسكت برأيها وأنها لم تتركه يلقى بمستقبله فى سبيل نزوة عابرة. وحدثت نفسها قائلة إن الرجال يفسدون حياتهم لو لم تنصحهم النساء. فان النساء يتمتعن بالاعتدال وحسن الإدراك.

نعم، إن فى مقدور رودنى أن يعتبر نفسه سعيدا بزواجه منها.

ونظرت الى ساعتها. العاشرة والنصف. لا داعى لأن تذهب أبعد من ذلك. هذا فضلا عن أنه ليس هناك ما يستحق أن تراه.

نظرت خلفها... عجبا... ان محطة الترحيل اختفت تقريبا. تلاشت فى البانوراما بحيث لم يعد ممكنا تمييزها إلا بشق النفس... يجب أن أحرص لكى لا أبتعد كثيرا، فاننى أخشى أن أضل طريقى.

يالها من فكرة سخيفة. كلا ليست سخيفة إلى هذا الحد فى الواقع، فان هذه الجبال التى تمتد تحت الأفق انمحت وأصبحت تبدو كما لو كانت سحبا. واختفت محطة الترحيل عن الأنظار ولم يعد لها وجود.

رددت جوان النظر حولها فى غبطة... لا شئ... ولا أحد.

وألقت نفسها فوق الرمل فى هدوء وفتحت حقيبتها وأخرجت البلوكنوت والقلم الحبر... ستكتب بعض الرسائل. وأنه لمن الممتع أن

تدور انطباعاتها.

ولكن لمن تكتب؟... هل تكتب لليونيل وست؟ أو لجانيت انسمور أو لدوروتى؟... ربما تبدأ بالكتابة لجانيت.

ورفعت غطاء القلم. وبخطها الرشيق السريع بدأت تقول:

عزيزتى جانيت... لن تخمنى أبدا من أين أكتب لك هذه الرسالة... أننى اكتبها وأنا فى قلب الصحراء. اننى فى مكان مفقود لا أستطيع حراكا بين قطارين، لان القطارات تنطلق ثلاث مرات فى الأسبوع فحسب. وأنا هنا فى محطة الترحيل يشرف عليها رجل هندى يلبس عمامة كبيرة ويعاونه بعض العرب. ومعنا بضع دجاجات هزيلة ولا شئ آخر. ليس هناك من أتحدث إليه وليس هناك ما أفعله، ولا أستطيع أن أقول إلى أى حد يروق لى هذا.

أن جو الصحراء رائع يتسم ببرودة لا مثيل لها.. وهذا الهدوء يتعذر وصفه. ولابد من أن تحسى به لكى تدركى كنهه. ويبدو لى أننى وحدى أمام نفسى لأول مرة فى حياتى. ان الحياة العادية ما هى إلا دوامة يعيشها الإنسان عادة فى الجرى من نقطة إلى أخرى، وأعتقد أن هذا ما يجب أن يكون. ولكن لابد له من أن يمنح نفسه لحظات قصار للتأمل... وللاستجمام.

(وأنا لست هنا إلا منذ نصف يوم فحسب ولكننى أحس بأننى أحسن ألف مرة، فلا أحد معى ولم أدرك أبدا قبل ذلك مدى رغبتى فى الوحدة. وان مجرد الإحساس بأنه ليس هناك حولك، على مدى مئات الأميال، شيئا غير الرمال والشمس لمسكن هادئ للأعصاب).

وراح قلم جوان يجرى على الورق فى سرعة عادية.

ميـرنـا

توقفت جوان عن الكتابة لكى تنظر إلى ساعتها.. كان الوقت قد تجاوز الظهر بربع ساعة.

وكانت قد انتهت من كتابة ثلاثة خطابات. ولكن الحبر فرغ من قلمها ورأت أن دفترها أوشك أن يفرغ هو الآخر. وقد أزعجها هذا لأنه كان فى مقدورها أن تكتب رسائل أخرى لصديقات أخريات.

وتثاءبت. كانت الشمس قد أصابتها بخدر لذيذ. وقالت تحدث نفسها أنها ستتمدد بعد الغذاء فى أغفائة قصيرة، ونهضت وعادت إلى المحطة فى هدوء.

وتساءلت ترى ماذا تفعل بلانش فى هذه اللحظة. لا ريب أنها بلغت بغداد والتقت بزوجها هناك. كان هذا الأخير من طبقة غريبة... مسكينة بلانش... شد ما تدهورت وانحدرت إلى الحضيض... كيف تعلقت بهارى مارستن هذا... لا ريب أنه شاب جميل وسيم. ولكنه كان متزوجا... لم تربط مصيرها برجل شريف كرودنى؟... ان بلانش اعترفت هى نفسها بأن رودنى كان رقيقا.

هذا صحيح، لكنها قالت عنه شيئا آخر... فماذا قالت؟ وفى أية مناسبة قالت أن رودنى زائغ العين؟.. يا لهذا التعبير المبتذل. أنه تعبير

غير ملائم وليس هناك ما يبرره. أن رودنى لم يكن أبدا ... أبدا ...

ومرت بذهنها نفس الفكرة التى مرت بها أمس والتى سرعان ما تلاشت.

تلك الفتاة راندولف.

وقالت تحدث نفسها وهى تسرع الخطى فجأة كما لو تسابق رؤيا غير لائقة:

- حقا، اننى لا أعرف لماذا أفكر دائما فى تلك الفتاة راندولف... أن رودنى لم يفعل شيئا أبدا، ثم أنه ليس لدى أى دليل ولا أى سبب يحملنى على الاعتقاد ...

ولكن السبب فى هذه الفكرة الثابتة الملحة هو أن ميرنا راندولف كانت من هؤلاء الفتيات اللاتى ينتظر منهن كل شئ ... كانت فتاة طويلة القامة جميلة سمراء من هذا النوع الذى يحاول إغراء الرجال.. فتاة لو أنها القت شباكها على رجل لا يمكنه أن يفلت منها.

ولكن نتكلم فى وضوح كانت ميرنا قد غازلت رودنى بطريقة علنية ولم تترك فرصة إلا وجاملته، وبحثت عنه دائما لكى يزاملها فى لعبة التنس، ولم تبال بمن حولها لكى تلتهمه بعينيها.

وقد اغتر رودنى بذلك طبعا، وما كان لأى رجل فى مكانه إلا أن يغتر مثله. وأنه ليكون أحمق حقا لو أنه لم يغتر ولو أنه لم يفتتن بفتاة جميلة أصغر منه بكثير ... فتاة تعتبر من أجمل فتيات المنطقة.

قالت جوان تحدث نفسها (لو أننى لم أتصرف بلباقة فى هذا الأمر...).

واستعرضت فى ذهنها الوسائل التى استنفدتها. وأحست بالسرور

والرضا لنجاحها فى هذه المهمة، فقد أحسنت التصرف حقا وأظهرت لباقة كبيرة.

– أن حبيبتك تتظرك يا رودنى فلا تدعها تنتظر... أعنى ميرنا راندولف طبعا... أوه. نعم يا حبيبى، انك على حق... لا يهمها أن تكون أضحوكة طبعا.

وذلك يوم قال رودنى متذمرا :– (لا أريد أن أتخذها زميلة لى بعد... فلتزامل غريمى)... وأسرعت جوان ترد دون خوف (كن ظريفا يا رودنى... يجب أن ترضى بها).

وما عليها الآن أن تهنئ نفسها لمسلكها هذا، فقد أخذت الأمر بلا مبالاة متظاهرة بالاعتقاد بأنه مجرد دعابة، ظهرت تماما بأنها على علم بهذه المغازلة وأنها لا تعدو وأن تكون مغازلة بريئة.

وقد اغتبط رودنى بصداقة الفتاة بالطبع على الرغم من أنه لم يكف عن التذمر ضدها وعن التأكيد بأنه يضيق بها. فان ميرنا راندولف كانت من هؤلاء الفتيات التى يفتتن بهن الرجال لكنها كانت متقلبة الأطوار، مدللة، تتظاهر بأنها تزدرى عشاقها وتعاملهم فى غلظة، ثم بغمزة خفيفة من عينيها تعيدهم إلى حظوتها من جديد.

وقالت جوان تحدث نفسها فى حماس لم تكن لتتوقعه (صفوة القول أن هى الا حقا... بذلت جهدها لكى تكدر سعادتنا الزوجية.

وهى لم تكن تنتقد رودنى بالطبع، فقد كانت الفتاة وحدها هى التى تستحق اللوم، لأن الرجال يسهل إغراؤهم بسهولة. وكان رودنى متزوجا فى ذلك الوقت منذ أكثر من عشر سنوات، وهى الفترة التى يتحدث عنها الكتاب فيقولون أنها نقطة تحول شديدة الخطورة، فهو الوقت الذى يمكن لأحد الزوجين أن يحيد فيه عن الطريق المستقيم،

وهو فوق ذلك تجربة يجب اجتيازها فى حذر ويستطيع الإنسان بعدها أن يستقر وأن يحتفظ بتوازنه المريح... وكانا يجتازان هذه الفترة معا فى ذلك الوقت.

كلا أنها لا تحقد على رودنى ولا تستطيع أن تلومه على هذه القبلة التى ضبطته وهو يطبعها على شفتى ميرنا فجأة.

وكان ذلك بحجة فوزهما على غريمتهما.

فقد كانت ميرنا من الوقاحة بحيث قالت وهى تدخل الصالون (إننا نحتفل بفوزنا فى مباراة اليوم، وأرجو أن لا يجرح هذا شعورك).

وقالت جوان تحدث نفسها (لحسن الحظ أننى تمالكت هدوئى ولم ينم وجهى عن شئ).

وقد ردت على ميرنا عندئذ قائلة:- والآن أفرجى عن زوجى يا ميرنا، وابحثى عن شاب آخر أصغر منه سنا يستطيع أن يزاملك.

ودفعت ميرنا من كتفيها فى مرح متظاهرة بأنها تمزح.

وعندئذ قال لها رودنى:- معذرة يا جوان، ولكنها فاتنة ونحن فى موسم عيد الميلاد.

وابتسم لها ابتسامة كبيرة وأطال اعتذاراته، ولكن من غير أن يبدو عليه الارتباك أو الدهشة، وفى هذا وحده الدليل على أن الشر لم يكن مستطيرا.

ووقف الأمر عند هذا الحد ولم يزداد خطورة، وقد حرصت على ذلك وتصرفت بحكمة لكى تحتفظ برودنى بعيدا عن مخالب ميرنا راندولف. وفى عيد الفصح تمت خطبة ميرنا لابن ارلنجتون بحيث أنه فى نهاية الأمر لم يكن للحادث أية ذيول. بل لعل رودنى وجد فيه مادة

للتسلية والترفيه... مسكين هذا العزيز رودنى. كان يستحق أن يرفه عن نفسه قليلا فعلا. فقد كان يرهق نفسه فى العمل باستمرار.

عشر سنوات من الزواج.. نعم، كانت نقطة تحول خطيرة... حتى هى نفسها لم تسلم من ريح الجنون.

فذلك الشاب المتهور... ذلك الفنان... ترى ما اسمه؟... أنها لا تستطيع حتى أن تتذكر اسمه.

واعترفت سرا وهى تبتسم بأنها تصرفت معه تصرفا أحمق، فقد كان لحوحا جدا يكاد يلتهمها بعينيه. وذات يوم طلب منها أن تقف أمامه لكى يرسم لها صورة.

وكان ذلك مجرد حجة طبعا. وقد خط بضعة خطوط كروكيه بالقلم الفحم لم يلبث أن مزقها فى عصبية وهو يقول أنه لا يستطيع أن (يهتدى الى روحها) وأن صورتها لن تكفيه.

وقد تذكرت جوان أن هذا القول قد غرها وأنها اغتبطت به وقالت (يا للفتى المسكين)... أخشى أن يكون قد وقع فى هواى حقا.

ولكنها قضت معه شهرا لذيذا.

ومع ذلك فقد جاءت النهاية، وكانت تدعو الى الحيرة ولم تتوقعها إطلاقا. والواقع أن هذه النهاية كشفت لها ما يكل كالاواى على حقيقته. نعم، كالاواى... هذا هو اسمه... كان من هؤلاء الرجال الذين لا يرتوون ولا يعرفون كيف يسيطرون على أنفسهم.

كانا قد خرجا للنزهة معا، وهى تذكر الآن أنهما خرجا الى غابة هالينج بالذات، وأخذا الطريق الذى يمتد بمحاذاة (المزرعة الصغيرة) ويهبط فى تعرجات من مرتفعات أشلدون... فقد راح يتوسل اليها فى صوت أجش خجول بأن تصحبه فى هذه النزهة، وتصورت الحديث

الذى سيدور بينهما، لعله سيقول لها أنه يحبها. وستعامله عندئذ بكل رقة وبكل رفق وستبدى له تفاهما كبيرا وتعبر له عن أسفها، وقد تصورت عبارات كثيرة رقيقة رأت أن فى مقدورها أن تنطق بها ويغتبط مايكل بها ويسره أن يتذكرها فيما بعد.

ولكن حدث شئ آخر يختلف عن ذلك الذى تصورته تماما... فقد أخذها مايكل كالاواى فجأة وضمها إليه وقبلها فى قوة وغلظة بحيث أنها أحست أنها تكاد تختنق ثم ابتعد عنها وهو يصيح فى زهو وانتصار (يا الهى). اننى أشعر بالهدوء الآن (... ثم راح يحشى غليونه فى غير اكتراث وقد أصم أذنيه عن العتاب العنيف الذى توجهه اليه واكتفى بأن قال وهو يتمطى ويتثاءب:

– آه... أشعر الآن بأننى أحسن حالا.

وتذكرت جوان وهى تستعيد هذه القصة إلى ذهنها بأن قوله هذا كان أشبه بذلك القول الذى ينطق به رجلا يكاد يموت من العطش بعد أن يحتسى قدحا من البيرة.

وقطعا طريق العودة فى صمت تام، فيما يتعلق بجوان على الأقل، لان مايكل راح يبذل جهده فى الغناء لا لشئ إلا لكى يقطع الصمت. وفى آخر الغابة عند بداية الطريق الممتد من كرايمنستر إلى ماركت وويلنج توقف لحظة ونظر اليها فى ازدراء وقال لها فى اقتناع:

– هل تعرفين أنك من هؤلاء النسوة التى يجب اغتصابهن. سيكون هذا درسا جميلا لك. وإذ تسمرت مكانها لا تنطق لفرط الغضب والدهشة أردف يقول منهمكا:

– سأتكفل أنا نفسى طواعية بهذا الاغتصاب لكى أرى إذا كنت تستفيدين من الدرس.

ثم اندفع إلى الطريق العام وبدلا من أن يغنى راح يصفر فى مرح وسرور.

ولم تخاطبه بكلمة واحدة بعد ذلك طبعا. ولم يلبث أن غادر كريمنستر بعد بضعة أيام.

حلقة غريبة ومذهلة لم تحاول أن تستبعدها من ذاكرتها ذكاكرتها أبدا. ولكن لماذا تذكرتها الآن؟

كانت هذه الحادثة فظيعة... فظيعة جدا...

يجب أن تحرر ذهنها منها على الفور. لا يجب أن تتذكر مثل هذه الذكريات البغيضة وهى تستريح وتستجم تحت أشعة الشمس. فان هناك ذكريات حلوة أخرى يحلو لها أن تتذكرها.

ثم أن طعام العشاء ربما يكون قد تم إعداده الآن، وألقت نظرة الى ساعتها، ولم تكن قد تجاوزت الربع بعد الواحدة.

وعادت الى محطة الترحيل ومضت الى غرفتها لكى ترى أن كان معها بلوكنوت آخر. كلا تبا لذلك. سوف تستغنى عنه فقد تعبت من كتابة الخطابات ثم أنها روت كل ما لديها من أنباء واخبار ولا يمكنها أن تكرر نفسها إلى ما شاء الله. ما هى الكتب التى جاءت بها؟ (مذكرات الليدى تيزارت) طبعا ورواية بوليسية اشتراها لها ويليام من المحطة. كانت لمسة رقيقة منه ولكنها لم تكن تحب الروايات البوليسية كثيرا. وكان معها رواية أخرى عنوانها (رجل القدر) من تأليف جون بوكان، وهى رواية قديمة جدا سبق أن قرأتها قبل ذلك.

مهما يكن سوف تشترى روايات حديثة من محطة حلب.

* * *

كـان الغـذاء مكونا من عـجـة بالبـيض وبيض بالكارى وسلمـون وفاصوليا وفاكهة محفوظة، وبالاختصار كانت وجبة عسيرة الهضم، وما أن غادرت مكانها من المائدة حتى مضت إلى غرفتها واستقلت فوق فراشها ورقدت نحو ساعة صحت بعدها وراحت تقرأ كاترين ديزارت حتى بلغت الساعة الخامسة.

وقدم لها الشاى ممزوجا باللبن المحفوظ ومعه بعض البسكويت، وبعد ذلك خرجت لنزهة قصيرة ثم عادت وفرغت من قراءة (الليدى تيزارت. وتناولت العشاء وكان لا يختلف عن طعام الغداء تقريبا. ثم أخذت روايتها البوليسية وفرغت منها مرة واحدة. وفيما هى تنهض لكى تأوى إلى غرفتها خاطبها صاحب محطة الترحيل قائلا وهو يبتسم ابتسامة كبيرة.

– طابت ليلتك يا سيدتى. سيصل القطار غدا صباحا، فى الساعة الثامنة والنصف وسينطلق بعد ذلك فى تمام الثامنة والنصف مساء.

هزت جوان رأسها. كان معنى هذا أنها ستقضى نهارا بطوله فى محطة الترحيل، ولكن من حسن حظها أنه كان لديها رواية (رجل القدر) ولكنها رواية قصيرة للأسف.

وخطرت لها فكرة فسألت الهندى قائلة:– سيأتى بعض المسافرين فى القطار بالطبع.. آه، ولكنهم سيستأنفون السفر حتى الموصل رأسا.

ولكن الهندى هز رأسـه سلبـا وقـال:– لا أظن ذلك، فلم تأت أية حافلة اليوم وأظن أن الطريق الى الموصل ردئ جدا... لن يستطيع أحد عبوره قبل أيام.

انبسطت أسارير جوان، فابتداء من الغد ستمتلئ محطة الترحيل بالمسافرين، وسيكون هذا ظريفا. كانت واثقة أنها ستجد بينهم من

يروق لها صحبتهم.

وأوت الى فراشها وقد انتعشت وزادت مرحا عما كانت عليه منذ عشر دقائق وفكرت قائلة:- أن جو هذا المكان حقا... أظن أن ذلك بسبب رائحة الدهن الزنخة... أنها رائحة تزكم الأنوف وتملأ الإنسان بالتقزز والاكتئاب.

وفى صباح اليوم التالى، كانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف عندما صحت من النوم. وارتدت ثيابها على عجل ثم مضت الى غرفة الطعام. وكانت هناك مائدة واحدة معدة. ونادت جوان على صاحب المحطة فظهر الرجل الهندى -وكان يستشيط غضبا، وقال:

- لم يأت القطار يا سيدتى.

- لم يأتى؟... هل تعنى أنه تأخر؟

- كلا. انه لن يأتى اليوم. لقد هطل مطر شديد فى نصيبين وأغرقت المياه القضبان الحديدية ولا يستطيع القطار السير قبل ثلاثة أو أربعة أيام... وربما بعد خمسة أو ستة أيام.

ألقت جوان إليه نظرة يائسة وقالت:- ولكن ماذا أفعل؟

- ستبقين هنا يا سيدتى، فالطعام متوفر وكذلك البيرة والشاى. ستنتظرين حتى يأتى القطار.

قالت جوان:- يا الهى. يا لهؤلاء الشرقيين... لا حساب للوقت بالنسبة لهم. وسألته قائلة:

- ألا يمكن أن أستأجر عربة؟

قال مشدوها:- عربة؟... ومن أين؟.. ان طريق الموصل ردئ جدا. وقد توقف كل شئ خلف المخاضة.

ألا يمكنك أن تتكلم فى التليفون؟.. ان الخط ملك للأتراك وهم قوم من العسير التعامل معهم. ثم أنهم لا يفعلون شيئا فيما عدا الاهتمام بالسكة الحديد.

فكرت جوان وهى تتذكر المتعة التى منت نفسها بها وقالت:- سبل المواصلات بيننا وبين المدينة مقطوعة حقا.. لا تليفون ولا برقيات ولا سيارات.

وقال الهندى مواسيا:- إن الوقت جميل والطعام وفير وكل وسائل الراحة متوفرة هنا.

فكرت جوان قائلة:- نعم أن الوقت جميل وهذا من حسن الحظ. لو أنى اضطررت إلى البقاء هنا من الصباح إلى المساء لكان هذا أمرا فظيعا.

وقال الهندى كما لو كان قد خمن ما يدور فى ذهنها: أن الطقس جميل هنا والمطر قليل. ولكنه يهطل كثيرا على مقربة من الموصل وفوق السكة الحديد.

وجلست أمام المائدة وانتظرت أن يأتوها بطعام الإفطار، ولحظة خيبة الأمل قد ولت. ولم تكن لتستطيع شيئا حيال ذلك، وكانت عاقلة بما فيه الكفاية لكى تدرك أنه ليست لديها حيلة. لم يكن عليها إلا أن ترضخ للأمر الواقع على الرغم من أن فيه مضيعة للوقت.

وابتسمت ابتسامة خفيفة وهى تفكر. لقد استجاب الله لى فانى تمنيت أمنية وأنا أتحدث مع بلانش وتم لى ما أردت. قلت لها اننى أود لو أن أستريح بعض الوقت لكى أريح أعصابى. حسنا... لقد تم لى ذلك فليس هناك ما أفعله هنا على الإطلاق. بل ليس لدى أى كتاب اقرأه. يجب أن انتهز الفرصة إذن وأن استجم فى قلب الصحراء

استجماما تاما.

ولكن أفكار بلانش ارتبطت بشئ آخر جعلها تشعر بالضيق... بشئ كانت تؤثر أن تنساه وأن لا تتذكره... ومهما يكن فلماذا تفكر فى بلانش الآن؟

ما أن فرغت من تناول طعام الإفطار حتى خرجت. ومشت مرة أخرى حتى مسافة معقولة من محطة الترحيل وعيناها نصف مطبقتين. قالت لنفسها أنه لأمر رائع أن تحس بهذا الأمان و الهدوء اللذين يغمرانها وأحس بنعمتها حقا فقد كان الهواء لطيفا والشمس صافية دائما.

وقضت لحظة أخرى تحت هذا الإحساس الجميل ثم نظرت إلى ساعتها. كانت قد بلغت الدقيقة العاشرة بعد العاشرة. فقالت:

– سرعان ما يمر الوقت.

هل تكتب كلمة لبلانش. أن من الغريب حقا أنها لم تفكر فى الكتابة الى بلانش فى اليوم السابق بدلا من أن تكتب هذه الرسائل التافهة لصديقات لها فى بريطانيا العظمى وأخرجت البلوكنوت والقلم.

(عزيزتى بربارا... لم أوفق كثيرا فى رحلتى، فقد فاتنى القطار مساء يوم الاثنين، وأنا الآن بعيدة عن العمران، ربما لأيام كثيرة. والمكان هادئ جدا

وتوقفت. ماذا تقول أكثر من ذلك؟ هل تسألها عن أخبار المولود؟... أو عن ويليام؟ لماذا قالت لها بلانش بحق الشيطان.. (لا تزعجنى من أجل بربارا). هذا هو السبب فى أنها لا تشعر بأية رغبة فى أن تفكر فى بلانش، فانها نطقت بكلمات غريبة وهى تتكلم عن بربارا.

وهى لم بربارا؟.. ألا تعرف كل ما يتعلق ببربارا؟ لقد قالت بلانش:- اننى واثقة أن كل شئ سيكون على ما يرام الآن. ومعنى هذا أن كل شئ لم يكن على ما يرام.

ولكن من أية وجهة نظر؟ لقد أوعزت بلانش أن بربارا تزوجت وهى صغيرة.

ارتجفت جوان قلقا تذكرت أن رودنى نطق بشئ مماثل عند الزواج، فقد قال فجأة وبلهجة حاسمة:

- اننى لست مسرورا بهذا الزواج يا جوان.

- رودنى، لماذا؟.. أن ويليام شاب ظريف ويبدو أنهما متفاهمان جدا.

- أعلم أنه شاب باسل، ولكنها لا تحبه يا جوان.

أخذتها الدهشة وقالت:- رودنى. ما هذا الذى تقول؟ ولكنها مغرمة به والا فلماذا تزوجته بحق الشيطان؟

أجاب فى لهجة غامضة:- هذا ما يزعجنى.

- ولكنك تمزح يا عزيزى.

ولكنه لم يهتم بعدم مبالاتها هذه واستطرد: اذا كانت لا تحبه فلا يجب أن تتزوجه. أنها صغيرة جدا لكى تقدم على هذه الحماقة. ثم أنها حادة الطباع.

- وماذا تعرف أنت عن حدة الطباع يا رودنى؟

وقد أطربها هذا الحديث على الرغم منها، ولكن رودنى لم يبتسم وقال:

- إن الفتيات يقدمن على الزواج أحيانا لا لشئ إلا لمغادرة بيوتهن.

وعندئذ قهقهت:

– ليست بربارا من هذا النوع. ما من فتاة عرفت الحياة المنزلية السعيدة التى عرفتها هى.

– هل أنت واثقة يا جوان؟

– كل الثقة. ان هؤلاء نالوا دائما كل ما كانوا يحتاجونه.

– يبدو لى أنهم لم يستقبلوا أصدقاءهم فيه كثيرا.

– ماذا تقول يا عزيزى. أننى أستقبل كثيرا وأدعو الشباب دائما. وأننى أصر على هذا. أنها بربارا نفسها هى التى تصر على أنها ليست اجتماعية وتأبى أن تدعو أصدقاءها.

هز رودنى رأسه من الحيرة والشك. وفى مساء ذلك اليوم بالذات. وفيما هى تدخل المكتب سمعت بربارا تقول فى فروغ صبر:

– لا فائدة يا أبى يجب أن أرحل. لم أعد أستطيع الاحتمال. ولا تنصحنى بأن الحق بوظيفة لأننى أكره الالتحاق بأى عمل.

وسألتها جوان قائلة:– ما الخبر.

وبعد صمت. صمت قصير جدا قالت بربارا متمردة وقد اضطربت وجنتاها:

– هو أبى الذى يعتقد أنه يفهم كل شئ... يريد أن أظل مخطوبة بضع سنوات ولكننى قلت له أننى لا أستطيع الاحتمال وأننى أريد أن أتزوج ويليام وأن أرحل الى بغداد. لا ريب أن الحياة رائعة هناك.

أجابت جوان: نعم يا عزيزتى. ولكن مما يؤسف له أن المكان بعيد جدا... كنت أود أن تبقى هنا معى... تحت سقف بيتى.

– أوه، أماه... لم أعد طفلة فى المهد.

- أعـرف ذلك يا عـزيزتى. ولكنك لا تدركين مـدى شـبـابك وعـدم خبرتك لو تبقين معى فاننى أستطيع أن أقدم لك كل معونة.

ولكن بربارا قـالت تحسم الموضـوع وهى تبتسم:- حـسنا. أرجـو أن أتمكن من تدبير أمورى بدون حاجة الى تجاربك الشخصية.

وفيما كان رودنى يخرج من الغرفة فى بطء أسرعت خلفه وارتمت عليه قائلة (أبت العزيز... أبت العزيز).

وقـد فكرت جـوان عندئذ فـقـالت أن هـذه الصـغـيـرة أصـبـحت مـهـووسـة، ولكن كـان هذا يثبت على كل حـال أن رودنى مـخطئ، فـان بربارا كـانت تتـعـجل الرحـيل الى الشـرق مع وليـام، وأنه لأمـر رائع أن ترى شابين عاشقين يواجهان المستقبل بمثل هذه الثقة.

ولكن مـا هذه الفـكرة المضـحكة؟ ولماذا خطر لهـا بمجـرد أن فكرت فى بغـداد أن بربارا كـانت تعـيسـة فى بيت أهلهـا. ذلك أن بغـداد بدت حـافلة بالأقـاويل والشـائعـات إلى حـد أنهم كانوا لا يكادون يسـتطيعـون النطق باسم بالذات... اسم الميجور ريد مثلا.

لم تكن جـوان تعـرف الميـجـور ريد ولكن بربارا أشـارت إليـه فى رسـائلهـا مرارا. أقبل الميـجـور ريد لتناول العشـاء... خرجـوا للصـيـد مع الميـجـور ريد... وأمضت بربارا كل شـهـور الصيف فى جبـال أركـاندوس مع امـرأة شـابة اسـتـأجرت مـعـهـا كوخـا صـغـيـرا وقـد ذهـب الميـجـور ريد لزيارتهمـا... وقد زاملته فى لعبة التنس كثـيـرا وكسبت مـعه البطولة فى النادى.

وكـان من الطبـيـعى بمجـرد وصـولهـا إلى بغـداد أن تسـتقى فى مـرح أخبـار الميـجـور ريد، فقـد سـمـعت عنه كثيرا بحيث أحست بالرغبـة فى معرفته.

ولكن الحرج الذى سببه سؤالها أثار الضحك حقا فقد امتقع وجه بربارا وأضطرم ويليام وغمغم بضع كلمات بصوت غير عادى:

- إننا لا نريد أن نراه بعد اليوم.

وكان قوله هذا قاطعا بحيث لم تشعر بأية رغبة فى الإلحاح.

ولكنها فيما بعد، عندما أوت بربارا إلى فراشها استأنفت الموضوع فقالت وهى تبتسم ابتسامة رقيقة أنها تشعر أنها أقدمت على عمل أخرق وأنها كانت تعتقد أن الميجور ريد كان صديقا حميما للعائلة.

ونهض ويليام وخبط بغليونه على رف الموقد وقال: أننا خرجنا للصيد معا بضع مرات ولكن لم نعد نراه منذ مدة طويلة.

ولم يخدعها هذا الرد، وابتسمت فيما بينها وبين نفسها... ما أشد سذاجة الرجال حقا. لقد أطربها ويليام الأخرق. كان يعتبرها امرأة متعجرفة متحشمة... حماة (من الدقة القديمة) وقالت:

- آه. فهمت. أنه أثار فضيحة.

استدار ويليام وقال فى غضب شديد:

- فيم تفكرين؟

ابتسمت جوان وقالت:- أى بنى العزيز... انك لا تجيد أخفاء لعبتك. اننى أخمن بالإشارة أنك اكتشفت عنه شيئا ما لم يرق لك. واضطررت أن تمتنع عن مخالطته. أوه، اننى لا أسألك شيئا... اننى أعلم أن هذه الأمور مكدرة جدا.

رد ويليام فى بطء:- نعم. أنك على حق. أنها مكدرة جدا.

قالت جوان:- إننا نحسن الظن بأصدقائنا ولكننا حين ندرك أخطاءنا نضطرب ونشقى.

- أنه غادر المنطقة وهذا أفضل شئ قام به... سافر الى افريقيا الشرقية.

وفجأة تذكرت جوان بضع كلمات من حديث سمعته ذات يوم فى النادى... وكان يدور حول سفر تومى ريد إلى أوغندا.

فقد قالت سيدة من الموجودين:- مسكين تومى. ليس الذنب ذنبه إذا لاحقته الفتيات الحمقاوات..

وأطلقت امرأة أخرى ضحكة وقالت:- انهن سببن له انزعاجا كبيرا. إن الفتيات الساذجات النقيات نقاء الزهور تحت الظل اللاتى لا يعرفن التعقيد تفتته دائما، وأعترف أنه يعرف كيف يستميلهن اليه، فهو لا يقاوم فى هذا المضمار. وهذه الحمقاء الصغيرة كانت تحسبه متيما بها فى حين أنه كان يفكر فى أن يغزو قلب فتاة أخرى غيرها.

قالت الأولى:- ستتحسر عليه كل نساء المنطقة مع ذلك، فقد كان يروق لهن صحبته.

راحت الأخرى تضحك ثم قالت:- ولكننى أعرف أزواجا لن يضيرهن أن يغادر المنطقة. يجب أن نعترف بأنه لم يكن محبوبا من الرجال.

- من المؤكد أنه أشعل غراميات كثيرة هنا بحيث أصبح موقفه لا يحتمل.

وعندئذ قالت المرأة الثانية:- صه.

وخافتت من صوتها بحيث لم تسمع جوان المزيد. ولم تعلق جوان أهمية على هذه الأقوال ولكنها تذكرتها الآن وأثارت حيرتها.

وقالت لنفسها انه اذا كان ويليام قد تهرب من الرد فربما تكشف

بربارا عن قلبها وتذكر لها حقيقة ما هناك.

ولكن بربارا قالت فى وضوح وفى صراحة بغيضة:- دعينا عن الحديث عنه يا أماه.

فكرت جوان أن بربارا كانت منطوية على نفسها دائما، وقد تهرب بصورة غريبة عن الرد فيما يتعلق بمرضها وسببه. كان راجعا على كل حال الى حالة التسمم وقد عزت جوان ذلك إلى أن الطعام لم يكن طازجا وأنه أصابه الفساد بسبب شدة الحر ولكن ويليام وبربارا أبديا نفورا كبيرا إزاء إزجاء التفاصيل، وحتى الطبيب الذى لجأت جوان إليه فى غير خجل أو حياء بصفتها أم بربارا لزم الصمت ولم يزد عن التلميح بأهمية تجنب أية إشارة عن هذا المرض لمسز راى الشابة وقال أنه من الضرورى أن تتحاشى استجوابها فى هذا الشأن وأن تحاول أن تسرى عنها بدلا من استجوابها.

- أنها بحاجة ماسة الى رعاية دائمة واستجمام تام. يجب استبعاد كل استفسار فى هذا الخصوص فان الحديث عنه لن يفيد المريضة أبدا وقد يضر بها. وهذه نتيجة أرى أنه لابد لى من إزجائها إليك يا مسز سكودامور.

وردت جوان أنه رجل سمج لا قلب له، فقد كان يجب أن ينفعل باخلاص أم غادرت بلدها على عجل لكى تخف الى مساعدة ابنتها.

أوه، لم يكن هناك أى شك فى أن بربارا كانت ممتنة لها... كانت جوان تعتقد ذلك على الأقل فقد شكرتها بربارا فى رفق... وقد أدرك هو الآخر الجهد الذى بذلته.

وعندما ذكرت جوان لهما أنها كانت تود لو أن تطيل أقامتها معهما أكد لها ويليام أن هذا يسره واضطرت هى أن تلح عليهما لكى لا يصرا

على ذلك فقد كان الإغراء قويا حتما، وكانت تود طبعا لو أن تقضى الشتاء كله فى بغداد ولكن كان يجب أن تفكر فى والد بربارا، ولم يكن من الواجب أن تطيل غيابها عنه.

وقالت بربارا عندئذ فى صوت رقيق:- يا لابى العزيز!

وأردفت تقول بعد صمت قصير:- ولكن لماذا لا تبقين معنا مدة أطول حقا يا أماه؟

- فكرى قليلا فى أبيك يا عزيزتى.

أجابتها بربارا فى لهجة غريبة بأنها تفكر فيه هو بالذات ولكن جوان قالت:

- كلا، لا يمكن أن نترك رودنى المسكين تحت رحمة الخدم.

ومع ذلك، وقبل اليوم المحدد لرحيلها بقليل أوشكت أن ترجع عن قرارها تقريبا، فقد رأت أنه يمكنها أن تطيل إقامتها شهرا آخر، ولكن ويليام أسرع يحذرها فى حماس كبير عن صعوبة اجتياز الصحراء اذا تأخرت فى السفر بحيث أن الخوف استولى عليها ورأت أن تتمسك بقرارها الأول. وعندئذ أظهر وليام وبربارا رقة كبيرة فى معاملتها لها بحيث أوشكت أن تؤجل سفرها من جديد، غير أنها لم تشأ أن تفعل.

ومع ذلك، فلو أنها تأخرت فى السفر أكثر من ذلك كان الأمر ليزيد سوءا عما هو عليه الآن.

نظرت جوان مرة أخرى إلى ساعتها. الحادية عشرة إلا خمس دقائق. فكيف استطاعت أن تحرك كل هذه الذكريات فى مثل هذه الفترة القصيرة؟ أحست بشئ من الندم لأنها لم تأخذ معها (رجل القدر)... ولكن لا... كان هذا هو الكتاب الوحيد الذى لم تقرأه والاجدر بها أن تحتفظ به لوقت الحاجة.

ساعتان باقيتان على موعد الغداء... ذلك لأنها أصدرت تعليماتها بأن يعد لها طعام الغداء اليوم فى الساعة الواحدة. لعل من الأوفق أن تقوم بجولة أخرى. ولكن بدا لها أن من السخف أن تمشى وأن تسير بلا غاية معلومة مادام ليس هناك ما يدعو إلى المشى، ثم أن الشمس كانت حامية جدا.

ومع ذلك فطالما تمنت أن تخلد الى الراحة لحظة لكى يتسنى لها أن تفكر. وقد سنحت لها الفرصة الآن، ومن يدرى لعلها لا تسنح لها بعد ذلك... فلم يسبق أن وجدت ما يكفى من الوقت للتفكير.

وبحثت جوان فى ذاكرتها ولكنها كانت واثقة أنها لن تجد فيها أية مواضيع ذات صيغة عامة. مثال ذلك أن تتذكر أين وضعت هذا الشئ أو ذاك وأن تنظم أجازات الخدم وأن تقرر النظام الجديد لغرفة المكتب التى فقدت فائدتها.

لم يكن لهذه الأمور أهمية تذكر. كانت فى نوفمبر، وكان الوقت لا يزال مبكرا لتحديد الأجازات، ثم أنه كان لابد لها من معرفة متى يأتى عيد العنصرة ولابد لها من نتيجة للسنة الجديدة لمعرفة. ولكن لم يكن هناك ما يمنع على العكس من اتخاذ التدابير لتغيير نظام صالة الانتظار. هل تختار للجدران لونا زاهيا مع ستائر من قماش قمحى اللون ووسائد ملساء؟.. نعم، سيكون كل هذا فى مجموعه جميلا.

بلغت الساعة الحادية عشرة والدقيقة العاشرة... لم تشغلها مسألة الأثاث والزخرفة أكثر من دقائق معدودات. راحت تقول فى غموض... لو أننى توقعت كل هذا الفراغ لاتيت معى بكتاب جديد عن العلم الحديث والاختراعات لكى أعرف مثلا ما يدور فى عالم تفتيت الذرة.

وعندئذ راحت تفتش فى ذهنها عن الخاطر الذى جعلها تفكر فى

تفتيت الذرة ولم تلبث أن قالت نعم. أنها تلك الستائر... ستائر مسز شيرستون.

وتذكرت ذلك اليوم الذى سمعت فيه ذلك السؤال الشائك:- قطيفة أو كريتون لأجل الصالون؟ كانت تتحدث مع مسز شيرستون، زوجة مدير المصرف، وفى أثناء الحديث هتفت مسز شيرستون فجأة تقول:- أريد أن أفهم مسألة تفتيت الذرة. أليس غريبا أن يقال ان الطاقة تنقسم الى جزيئات صغيرة جدا؟

تفرست جوان فيها فى ارتياع وهى لا تستطيع أن ترى الصلة بين تفتيت الذرة وبين الكريتون بحيث أن مسز شيرستون تمتمت وقد اضطرم وجهها:

- اننى حمقاء. لا أدرى كيف تأتينى مثل هذه الأفكار، وهذه الفكرة بالذات تثير اهتمامى.

ولكن جوان رأت غير ذلك وتحول مجرى الحديث. غير أنها تتذكر الآن نوع القماش الذى اختارته مسز شيرستون، فقد اختارت نوعا من القماش المنسوج باليد وعليه رسم من أوراق الشجر مطبوع بألوان مختلفة. وقد قالت جوان عندئذ:- ان هذا القماش فريد فى نوعه. أهو ثمين؟ وأجابتها مسز شيرستون بالايجاب:- نعم. أنه ثمين جدا.

ولا ريب أن هذا القماش قد تكلف مبلغا باهظا لأن ثمن المتر منه لم يكن يقل عن الجنيه، وهو ثمن مرتفع جدا فى ذلك الوقت، وقد أعطاها ذلك فكرة عن البذخ الذى يعيش فيه مستر شيرستون وزوجته، ولم يكن هناك أى شك فى أنهما كانا يعيشان فوق مستوى مواردهما، وقد تحققت من صحة نظريتها هذه بمجرد أن وقعت الكارثة.

وهى شخصيا لم تشعر بأى عطف نحو مسز شيرستون. رأت

نفسها جالسة أمام مستر شيرستون فى المصرف تدرس احتمالات بعض الاستثمارات، ولكن رجلا طويل القامة عريض الكتفين تافه المظهر، ساذج الى أبعد حدود السذاجة يبالغ فى لهجته المهذبة. كان يبدو كما لو أنه يريد أن يقول: اننى رجل اجتماعى يا سيدتى العزيزة، فلا تحسبى أننى آلة من آلات النقود. لو ترك لى الخيار لقضيت كل وقتى فى لعب الجولف والبريدج... والرقص. ان شيرستون الحقيقى هو ذلك الذى ترينه فى المجتمعات، وليس رجل الأعمال الذى يقول ليس لك رصيد.

فكرت جوان محنقة:- ما هو إلا قربة كبيرة جوفاء... إنسان مخادع... مخادع دائما. لا ريب أنه بدأ فى تزييف حساباته فى ذلك الوقت، هذا إذا كان قد أتهم بالاختلاس، وهو أمر لا أدريه حقا. ومع ذلك فقد كان يروق للمجتمع. كانوا يذكرونه بكل خير ويختلف كثيرا عن رجال المصارف الذين يعرفونهم.

حسنا، رغم الجميع، حصلت مسز شيرستون على ستائرها المنسوجة باليد. ولم يقل أحد أن اختلاسات شيرستون سببها إسراف زوجته المفرط، فلم تكن مسز شيرستون تبدو من أول وهلة أنها امرأة مسرفة. كانت ترتدى دائما ثيابا قديمة من التويد الأخضر، وكانت تحب ممارسة الفلاحة وتبدو سعيدة وهى تتمشى فى الريف بخطى كبيرة. ونفقات ملابس الأولاد لم يكن تدل على الاسراف هى الأخرى. وقد ذكرت جوان يوما دعتها ليزلى شيرستون لتناول الشاى. وكانت حفلة عادية لم تقدم فيها غير بضع كسرات من الخبز وبعض المربى مع فنجان الشاى. وقد قامت ليزلى شيرستون بالخدمة. كانت هذه المرأة تبدو طبيعية لا يشغلها شئ، مرحة دائما، تمشى باعوجاج وتبتسم بطريقة غير مباشرة، ومع ذلك فان ابتسامتها المعيبة كان لها سحر

خاص، ولكنها على الرغم من كل ذلك كانت جذابة.

نعم، مسكينة مسز شيرستون... كانت حياتها تعيسة... تعيسة جدا.

ارتجفت جوان وقد تملكها قلق يتسم بالانفعال. كيف أتت هذه الكلمات (كانت حياتها تعيسة جدا) الى ذهنها؟ ذكرتها هذه الكلمات بحياة بلانش هاجارد على الرغم من أن تعاسة هذه الأخيرة كانت من نوع آخر مختلف، وتفكيرها فى بلانش نقلها الى التفكير فى بربارا وفى مرضها الغامض. ألا يمكن أن تفكر فى شئ آخر دون أن تحملها أفكارها الى وجهة مؤلمة؟

نظرت الى ساعتها من جديد. مهما يكن من أمر فان الستائر المنسوجة باليد وتعاسة مسز شيرستون جعلتاها تقضى ما يقرب من نصف ساعة، ففيم يمكن أن توجه أفكارها الآن، كان لابد لها من موضوع سائغ خال من كل المتفرعات المضنية.

كان رودنى من غير شك أكثر المواضيع التى يمكن أن تفكر فيها أمانا وبدون أن يتملكها الكدر. يا للعزيز رودنى! واستسلمت جوان فى مرح لذكرى زوجها واستعرضت صورته كما رأته آخر مرة على رصيف محطة فيكتوريا، عندما تمنى لها رحلة موفقة، قبيل انطلاق القطار.

نعم. يا لرودنى العزيز. مازالت تراه واقفا لا يتحرك وهو لا يفارقها بعينيه ووجهه فى ضوء النهار تحت الشمس التى تكشف فى قسوة التجاعيد التى تحيط بعينيه ويا لهما من عينين متعبتين. نعم. أنهما عينان متعبتان حقا ومتسمتان بحزن عميق. وفكرت أن رودنى ليس حزينا بصفة خاصة ولكن أساريره تكسبه هذه السمة، والحيوانات عيونها حزينة أحيانا ولا يعنى هذا شيئا. ثم أنه كان معتادا على لبس

النظارات ولا يتبين أحد الحزن من خلف النظارات، ولكن لم يكن هناك أى ريب فى أنه كان يبدو متعبا ولا يستغرب هذا من رجل مرهق بالعمل. والواقع أنه لم يكن يمنح نفسه ولو يوما واحد أجازة. وقالت (سأغير هذا الوضع بمجرد عودتى. لابد له من أن يستجم وأن يسترخى. كان يجب أن أفكر فى هذا الأمر من قبل).

نعم، أنها رأت، فى النور أن الشيخوخة تظهر عليه أو بالحرى أنه يبدو أكبر من سنة. خفضت عينيها إليه ورفع هو عينيه إليها وتبادلا العبارات الأخيرة المعتادة الحمقاء.

وانطلق القطار فجأة فارتدت جوان إلى الخلف، وأشار رودنى إليها بيده ثم استدار، وانحنت بحركة تلقائية لكى تراه. وكان قد ابتعد فوق الرصيف.

وأحست بالتأثر فجأة وهى ترى هذا المظهر الذى كان مألوفا لها مع ذلك. أحست بأن رودنى قد استعاد شبابه فجأة، فقد اعتدلت رأسه ورسخت كتفاه.. هزتها هذه الرؤيا.

فهذا الرجل الذى يشق طريقه بين الجمهور كان شابا خالى البال.

عاد كما كان فى ذلك اليوم الذى تعرفت فيه عليه لأول مرة، كما لو كان فى ذلك اليوم الذى قدم إليها لكى يزاملها فى لعبة التنس وقد بدأت اللعبة على الفور إذ قال لها:

– هل تحبين أن أقف أمام الشبكة.

وقد نظرت إليه عندئذ، حين أولاها ظهره. ومشى لكى يأخذ مكانه أمام الشبكة وقد أدهشها منظره، فقد كان ظهره جميلا طاب لها أن تنظر اليه، ولم تنس مشيته الرشيقة القوية ولا اعتدال رأسه ووسامة عنقه.

وقد تملكها الانفعال من غير سبب فصدرت منها غلطتان مدوجتان متتابعتان وأرهقها الجو الحار ووهنت عزيمتها ولكن رودنى أدار رأسه وشجعها بابتسامة. ابتسامة رقيقة شريفة أتت سحرها. وفى الحال فتنتها ابتسامته وبدا لها أن رودنى رجل لا يقاوم وقد عشقته على الفور.

وإذ رأته وهى واقفة بالقطار يبتعد حتى اختفى بين جمهور المحطة ظنت أنها تجد فيه لاعب التنس الذى قدم إليها فى ذلك اليوم البعيد. بدا لها أن رودينى قد تخفف من عبء سنوات كثيرة وأنه عاد شابا متألقا يطيب للإنسان أن يراه.

تخفف من عبء سنوات كثيرة؟

سرت فى بدنها رجفة يسيرة لم تجد لها معنى تحت شمس الصحراء المحرقة.

وقالت:– كلا. كلا. لا أريد أن أتوقف عند هذه النقطة... فلأفكر فى شئ آخر.

رودنى يمشى فى خطوات سريعة فوق الرصيف وهو رافع الرأس وقد تخفف من عبء التعب الذى يرهق كتفيه وقد أصبح رجلا آخر طرح عنه حملا لا يطاق وقالت:– ولكن ماذا دهانى؟

أنها تختلق اسبابا كاذبة وتطلق العنان لوهم كاذب... لقد خدعتها عيناها قبل سفرها من لندن. وهذا كل شئ.

ولكن لماذا لم ينتظر حتى ينطلق القطار.

ولماذا ينتظر؟ كان يتعجل العودة الى مكتبه للفراغ من الأعمال التى تنتظره. ثم أن هناك أناسا كثيرين لا يطيب لهم أن يروا القطار يبتعد بشخص عزيز عليهم.

ولكن... ما هذه الحماقة؟ لماذا تستعيد بمثل هذا الإصرار صورة رودنى موليا ظهره فوق الرصيف.

كانت ضحية خيالها.

ولكن هذه الملاحظة لم تقدم لها أى عون أو مساعدة ولم يكن الاستنتاج الذى وصلت إليه جوان محتملا حقا. قالت لنفسها أن رودنى كان سعيدا وهو يراها ترحل.

ولم يكن هذا صحيحا بالطبع... لم يكن صحيحا أبدا.



ضربة شمس

بلغت جوان محطة الترحيل وهى تتصبب عرقا. وكانت قد حثت خطابها على غير وعى منها كما لو كانت تريد الهرب من هذه الفكرة البغيضة بالذات.

وحدق الهندى فيها فى دهشة وقال:- لقد أسرعت السيدة فى سيرها. ولكن لماذا الإسراع؟... ليس هناك ما يدعو إليه.

فكرت جوان:- أعرف ذلك جيدا. نعم. ليس هناك ما يدعو إلى الإسراع حقا.

الهندى ومحطة الترحيل والدجاجات الهزيلة والأسلاك الشائكة وأكداس العلب الفارغة.. كل ذلك يثير أعصابها.

ولاذت بغرفتها وأخذت كتاب رجل القدر وهى تقول اننى هنا على الأقل فى حمى من هذه الحرارة ومن هذا الضوء.

وجلست. وراحت تقرأ.

وكانت قد فرغت من نصف الكتاب عندما أزفت ساعة الغداء. وقدموا لها طبقا من العجة تحيط بها كمية من الفاصوليا وسمك مع الأرز ومربى المشمش. ولم تذق المربى إلا بطرف لسانها ثم عادت إلى

غرفتها واستلقت فوق الفراش.

إذا كانت قد أصيبت حقا بضربة شمس بسبب إسراعها فى السير فى قيظ الحر فان من الخير لها أن تستريح قليلا.

وأطبقت عينيها ولكنها لم تجد للنوم سبيلا.

أحست بأنها متنبهة بصورة غريبة، وميالة جدا الى التفكير. وعندئذ نهضت وابتلعت ثلاثة أقراص أخرى من الاسبرين وعادت فاستلقت فوق الفراش من جديد، ولكنها كانت كلما أغمضت عينيها ترى رودنى وهو يبتعد على رصيف محطة فيكتوريا ولم تستطع أن تحتمل ذلك فرفعت الستارة لكى يتسلل النور وأخذت كتاب رجل القدر وعندما اقتربت من نهايته غلبها النوم.

ورأت فى المنام أنها تلعب التنس مع رودنى، وأنهما عثرا على الكرات فى شئ من الصعوبة ومضيا بعد ذلك الى أرض الملعب.

وما أن بدأ اللعب حتى لحظت أنها تلعب ضد رودنى والفتاة راندولف. وكان لعبها يتسم بأخطاء متتابعة وراحت تقول لنفسها أن رودنى سيخف الى نجدتها وأخذت تبحث عنه عبثا فقد اختفى. ومضى الآخرون كذلك وهبط الليل وفكرت قائلة: اننى وحدى... هجرنى الجميع.

واستيقظت مذعورة وهى تصيح:- لقد هجرنى الجميع.

وكانت لا تزال واقعة تحت تأثير حلمها ولم تستطع أن تتخلص من إحساس بغيض فان الكلمات التى أفلتت منها ملأتها خوفا.

ولكنها عادت تقول على غير وعى منها:- لقد هجرنى الجميع.

وأقبل الهندى فوارب الباب قليلا وسألها قائلا:- هل تنادين يا

سيدتى؟

فأجابت:- نعم. أريد قدحا من الشاى.

- تريدين شايا يا سيدتى؟... قبل الساعة الثالثة؟

- لا أبالى... أريد قدحا من الشاى.

وسمعته يبتعد وهو يصيح:- شاى... شاى...

ونهضت دفعة واحدة ووقفت أمام المرآة التى لطخها الذباب. وطمأنها منظر وجهها العارى الهادئ وقالت وهى تنظر إلى صورتها فى المرآة: اننى أتساءل إذا لم أكن مريضة. اننى أصبحت غريبة الأطوار.

لعلها أصيبت حقا بضربة شمس.

وعندما جيئ لها بالشاى كانت قد لقيت توازنها العادى. كانت هذه المغامرة مضحكة حقا... أتجرفها أعصابها... هى، جوان سكودامور؟... ولكن الواقع أنها لا يجب أن تلوم أعصابها وإنما يجب أن تلوم الشمس فهى التى لعبت هذا الدور البغيض. ستحرص بعد ذلك على عدم الخروج قبل الشفق.

وأكلت بعض البسكويت وشربت قدحين من الشاى ثم فرغت من قراءة كتاب رجل القدر وعندما أطبقت الكتاب كانت قد استعادت هدوءها العادى وفكرت: ليس لدى الآن ما اقرأه.

لا شئ تقرأه ولا بلوكنوت لكى تكتب ولا حتى صوف للحبك... ليس معها أى شئ... وليس أمامها أى شئ الا أن تنتظر قطارا مشكوكا فيه قد تمضى أيام كثيرة قبل أن يأتى.

وعندما عاد الهندى ليأخذ الصينية سألته قائلة:- ماذا تفعل هنا؟

فبدا عليه الذهول وأجاب:- اننى أتولى خدمة المسافرين يا

سيدتى.

- أعرف ذلك.

وتغلبت على نفاد صبرها واردفت:- ولكن هذا لا يشغل كل وقتك.

- اننى أقدم طعام الفطور والغداء والعشاء.

- كلا. ليس هذا ما أعنيه... ألديك أعوان؟

- غلام صغير غبى وكسول جدا وقذر جدا. اننى أشرف بنفسى على كل شئ. والغلام لا يصلح لشئ، فهو يأتى بالماء النقى وينقل الماء القذر ويساعد فى المطبخ ولا يفعل أكثر من ذلك.

- إذن فأنتم ثلاثة هنا. أنت والطباخ والصبى الصغير... لا ريب أنك تجد فراغا كبيرا. يمكنك أن تقرأ.

- اقرأ؟... ماذا تعنين؟

- تقرأ كتابا.

- كلا. اننى لا أقرأ أبدا.

- ماذا تفعل إذن بعد أن تفرغ من عملك؟

- انتظر الساعة التى تأتينى بعمل آخر.

فكرت جوان:- لا فائدة ترجى... لا يمكن تبادل الحديث مع هؤلاء الناس، فهم لا يفهموننا. وهذا الرجل يقضى وقته هنا، ويعيش حياته يوما بعد يوم وأظنه يمنح نفسه أجازة من وقت لآخر فيمضى إلى المدينة ويسكر ويعاشر أمثاله. ولكنه بعد ذلك بأسابيع يبقى هنا، برفقة الطاهى والغلام الصغير طبعا. ولكن هذا الأخير يرقد تحت الشمس بمجرد الفراغ من عمله. وهذه هى حدود الحياة بالنسبة لهم، ولا يمكن أن يقدموا لى أى عون، لا هم ولا غيرهم، فهم لا يعرفون شيئا فيما

عدا الطعام والشراب والطقس.

أخذ الهندى الصينية وخرج. وراحت جوان تذرع أرض غرفتها وهى تقول:

– يجب أن أتصرف وأن أرسم خطة واهتدى الى طريقة... لكى أشغل وقتى فى التفكير مادمت وحدى وأن أتغلب بكل وسيلة... على الذعر والفزع.

وفكرت أن الحقيقة ترغمها على أن تعترف بأنها قضت حتى الآن عيشة حافلة بالآف المسائل المختلفة... عيشة امرأة متمدنة. والمرأة التى يهمها كل الاهتمام أن تعيش عيشة عادية من الطبيعى أن تأخذها الحيرة إذا انتقلت فجأة إلى حياة كلها فراغ لا فائدة فيها. ولكن كلما كانت نشيطة مثقفة كلما بدت لها هذه الحياة عسيرة صعبة إذا لم تستطع مزاولة نشاطها وثقافتها.

ولكن هناك طبعا أناسا يقضون الساعات المتتابعة من غير أن يفعلوا شيئا ومثل هؤلاء الناس يرتضون مرحين بمثل الفراغ الذى تعرفه هى الآن.

حتى مسز شيرستون... فعلى الرغم من أنها تتمتع بنشاط وحيوية تكفى شخصين فانها كانت من تلك النساء اللاتى يتركن الوقت يمضى تباعا لمدة ساعات طويلة دون غاية أو شاغل. ونزهاتها خير دليل على ذلك، فقد كانت تنطلق بخطى ثابتة ثم تتهالك فجأة بجوار شجرة أو فوق العشب وتبقى مكانها جامدة لا تتحرك تحلق بعينين شاردتين فى الفضاء، ويشهد على ذلك اليوم الذى حسبتها فيه جوان الفتاة ميرنا راندولف.

اصطبغ وجه جوان بحمرة خفيفة عندما تذكرت الطريقة التى

تصرفت بها فى ذلك اليوم، فقد كانت طريقة تقترب إلى التجسس، وهو شئ لا تقره إطلاقا ولا يتفق مع أخلاقها أبدا.

ومع ذلك فانه مع مخلوقة مثل ميرنا راندولف... تلك الفتاة التى يبدو أنها تفتقد كل معانى الأخلاق...

ولكن ما الذى حدث بالضبط؟... جمعت جوان ذكرياتها... كانت قد ذهبت بباقة من الزهور الى العجوز مسز جاريت، وكانت تهم بالخروج عندما سمعت صوت رودنى فى الطريق، عبر السياج... صوت رودنى يصاحبه صوت امرأة.

وأسرعت تستأذن مسز جاريت فى الانصراف ثم خرجت الى الطريق. وإذ بلغت أول الشارع رأت رودنى، وكانت واثقة من أنه هو رودنى، ينعطف إلى الطريق الذى يؤدى إلى أشلدون.

كلا، أنها ليست فخورة بما كانت تنتوى القدوم عليه. ولكنها قالت لنفسها انه يجب أن تنتهز الفرصة لكى تعرف حقيقة ما يدور فان رودنى لم يكن مذنبا أبدا والجميع يعرفون أن ميرنا راندولف لا تساوى شيئا.

وعرجت جوان على طريق الغابة الذى يخترق هالنج وود والمؤدى إلى مرتفعات أشلدون. وإذ بلغت المرتفعات فى أتم هدوء يتأملان المنظر الشاحب الذى يمتد تحت قدميهما.

وقد أحست بارتياح كبير عندما رأت أن الفتاة ليست ميرنا راندولف كما كانت تتوقع وانما هى مسز شيرستون. وكانا جالسين غير متلامسين تفصل بينهما أربع خطوات على الأقل، وهى مسافة سخيفة حقا لا تدل على أكثر من أن بينهما صداقة عادية. والواقع أن مسز شيرستون كانت امرأة غير ودودة لا تتمتع بشئ من الفتنة. ولا ريب أنها

كانت عائدة من إحدى نزهاتها عندما التقت برودنى صدفة. وبما عرف عن هذا الأخير من رقة فقد عرض عليها أن يصحبها وعندما بلغا المرتفعات جلسا يستريحان لحظة ويتأملان منظر الطبيعة قبل أن يعودا إلى بيتيهما.

ولكن كان من الغريب حقا أن يتوقفا هكذا وأن يجلسا متباعدين دون أن يأتى أحد منهما بأى حركة أو ينطق بكلمة واحدة. لم يكن المنظر ظريفا أبدا. أوه.. من المحتمل أن كلا منهما كان يتابع أفكاره الخاصة بحيث لم يخطر له أن يتبادل الحديث مع زميله.

وفوق ذلك فان آل سكودامور فى ذلك الوقت لم يكن بمقدورهم الادعاء بأنهم يعرفون ليزلى شيرستون حق المعرفة. فان اكتشاف اختلاسات شيرستون أثارت فضيحة كبيرة فى كرايمنستر، وكان مستر شيرستون يقضى عقوبته فى السجن، وقد تولى رودنى الدفاع عنه بصفته محاميا واهتم بمصالح ليزلى. وكان قد رثى بكل جوارحه لهذه المرأة التى بقيت بمفردها هى وولداها الصغيران بدون مورد أو عائل. وأشفق الجميع على مسز شيرستون، وإذا كانوا لم يظهروا لها اهتماما أكثر فقد كان الذنب فى ذلك ذنبها هى لأن تصرفاتها جرحت شعورهم.

- لا ريب أنها من ذلك النوع العديم الإحساس.

وأجابها فجأة بأن ليزلى شيرستون تتمتع بشجاعة قل أن تتمتع بها غيرها من النساء فقالت:

- أوه، هذا صحيح، ولكن الشجاعة ليست كل شئ.

وأجابها رودنى فى لهجة غريبة:- آه... حقا؟

وخرج من المكتب على اثر ذلك لا يلوى على شئ.

الشجاعة... ما من أحد يستطيع أن ينكر أن ليزلى شيرستون تتمتع بهـا، فـأنهـا إزاء التـزامـهـا بكسب قـوتهـا وقـوت ولديهـا فـقـد أوفت بالتزاماتها على خير ما يكون على الرغم من أن الظروف لم يسبق أن هيأتها لذلك. لم يكن لها غير معاش بسيط ورثته عن عمة لها ولم يكن يسمح لها بالعيش هى وولديها إلا على الكفاف فتمرنت على أعمال الفلاحة على يد أحد البستانيين بحيث لم يمر عليها وقت طويل الا وكانت تعرف كل دقائق المهنة، وعندما خرج شيرستون من السجن ألقاها فى مركز اجتماعى مختلف تشتغل بزراعة الفواكه والخضروات للاتجار فيها. وراح يقود عربة نقل صغيرة لتسليم الطلبات. ولم يلبث الولدان أن ساعداهما بحيث انتهى بهم الأمر الى المعيشة فى بحبوحة، ولم يكن هناك أى شك فى أن مسز شيرستون قست على نفسها، وقد نالت تقدير الجميع واحترامهم لهذا السبب وحده، لأنها بدأت فى ذلك الوقت تحس بأعراض المرض الذى أودى بها فى النهاية.

فكرت جوان قائلة:- نعم. أنها كانت تعشق زوجها، فقد كان المعروف عن شيرستون أنه رجل وسيم يسحر النساء. ومع ذلك فعندما خرج من السجن كان قد تغير كثيرا. وقد ألقت اليه جوان نظرة عابرة ولكنها تأثرت عندما رأت ما هو عليه من هزال وما تدل عليه عيناه من تعب وإرهاق... ومع ذلك فانه لم يفقد شيئا من كبريائه. كان لا يزال يحاول الخداع والمباهاة، ولكنه لم يكن يفلح. ومع ذلك فقد ظلت ليزلى على حبها وولائها له وشملته بعطفها وحنانها. وقد احترمتها جوان لهذا السبب.

ولكنها من ناحية أخرى... ناحية الأولاد... كانت لها أخطاء كثيرة.

فان العمة العجوز الثرية خفت الى نجدتها بمجرد أن ألقى القبض على شيرستون، ثم تقدمت باقتراح آخر عند خروجه من السجن،

فعرضت أن تتبنى الولد الصغير فى حين يتولى عم له الإنفاق على الولد الأكبر على أن يقيم الولدان لديها أثناء الأجازات السنوية. وبهذا تضمن العمة والعم مستقبل الولدين، بل أن العم تعهد بوثيقة رسمية أن يعطيهما اسمه.

ولكن ليزلى شيرستون رفضت هذا العرض رفضا باتا، ولامتها جوان على أنانيتها هذه فان معناها أنها ترفض أن يعيش ولداها عيشة هانئة رغدة أكثر من تلك التى يمكن أن يعيشها فى كنف أمهما... عيشة خالية من كل التعقيدات والصعوبات.

ومهما يكن من أمر الحب الأموى فان جوان كان من رأيها، وقد شاركها رودنى فى هذا الرأى، أن تفكر ليزلى فى مصيرها وولديها قبل أن تفكر فى راحتها الخاصة.

ولكن ليزلى أصمت أذنيها عن صوت العقل، وحتى رودنى نفسه لم يستطع أن يقنعها وقال أخيرا فى صوت متعب أن ليزلى تعرف خيرا من أى شخص آخر ما يجب أن تفعل، وكان من رأى جوان أنها امرأة متعنتة جدا حقا.

واستمرت جوان تذرع غرفتها جيئة وذهابا فى عصبية وانفعال. واستعادت فى ذهنها من جديد صورة ليزلى شيرستون وهى جالسة بجوار رودنى فوق مرتفعات أشلدون.

كانت فى جلستها تميل الى الأمام وقد ألقت مرفقيها على ركبتيها ودفنت ذقنها فى راحتيها. وكانت جالسة فى هدوء لا تتحرك بصورة غريبة تنظر فى شرود إلى المنظر الريفى الذى يطالعها والى حقول المزرعة الصغيرة... والى سفح ليتل هافرينج وود حيث ترتفع الأشجار وتصطبغ بلون أحمر ذهبى جميل... ليزلى ورودنى يستريحان دون أن

يأتى أحدهما بأية حركة... وينظران أمامهما.

لماذا لم تذهب للقائهما؟ لم تدر جوان ما الذى منعها من ذلك... ربما الإحساس بالخجل لان الشك خامرها فى رودنى وميرنا راندولف.

مهما يكن من أمر فقد تجنبتهما. وبدلا من أن تسرع اليهما تسللت خلف الأشجار وعجلت بالعودة إلى بيتها. لم تفكر أبدا فى هذا الأمر بعد ذلك وحرصت على ألا تتكلم عنه مع رودنى فإنها خشيت أن يعتقد أنها تتجسس عليه وهو وميرنا راندولف بطريقة ما.

ولكن صورة رودنى وهو يبتعد على رصيف محطة فيكتوريا ألحت عليها من جديد.

أوه... ولكنها لن تفكر فى هذا الأمر السخيف بعد. من أين تأتيها هذه الفكرة الغريبة؟ ولماذا تشك فى أن رودنى اغتبط برحيلها وهو الذى كان رقيقا ومخلصا دائما معها.

أية شكوك يمكن أن تثيرها هيئة رجل يمشى وهو يوليك ظهره.. كان لابد لها من أن تقصى عن مخيلتها هذه الصورة الغريبة الحمقاء.

أنها ستتجنب من الآن فصاعدا التفكير فى رودنى. إذا كان التفكير فيه سيؤدى إلى مثل هذه الاكتشافات البغيضة.

أنها لم تكن أبدا حتى اليوم فريسة لمثل هذا الخيال المضطرب.

كان هذا طبعا بسبب ضربة الشمس.



الضجر

مرت فترة العصر والأمسية فى
بطء مميت.

خيل لجوان أن من الأفضل ألا تخرج قبل أن تنخفض الشمس فى الأفق، ولهذا اضطرت الى البقاء داخل محطة الترحيل.

ولكنها بعد انقضاء نصف ساعة رأت أن هذا الموقف لا يطاق. لم تستطع أن تروض نفسها على البقاء مستمرة فى مقعدها دون أن يشغلها شاغل فعادت إلى غرفتها وفى نيتها أفراغ حقائبها وإعادة ترتيبها من جديد متذرعة بأنها وضعت ثيابها كيفما اتفق وان هذا الأمر سيقتضى منها بعض الوقت.

وقامت بعملها هذا بدقة كبيرة. وعندما فرغت كانت الساعة قد بلغت الخامسة. وكان فى مقدورها أن تخرج عندئذ دون أن تخشى أى خطر. فان البقاء بين جدران غرفتها كان أمرا مقبضا.. وودت لو أنها جاءت معها بكتاب فتقرأه أو ببعض الكلمات المتقاطعة لتشغل بها وقتها.

وخرجت. ولكنها تأملت فى تقزز أكداس العلب الفارغة والدجاجات الهزيلة والأسلاك الشائكة. كان المكان فظيعا حقا.. فظيعا جدا.

وأرادت التغيير فأخذت السكة الحديد والحدود التركية. وأعطاها هذا التغيير وهما جديدا جميلا.. ولكن بعد ربع ساعة أصبح المنظر رتيبا.. حتى القضبان التى كانت تمتد على بعد مائتى متر منها لم تكن لتزاملها أطلاقا.

لم يكن هناك شئ غير الصمت.. الصمت وهذه الحصيرة الكبيرة من الشمس.

وحاولت أن تستظهر بعض الأشعار. وكانت تحفظ بعض القصائد منذ إن كانت فى المدرسة فأخذت تتلو بعضا منها من الذاكرة فى محاولة لقضاء الوقت. وكان من بينها قصيدة (صيفك الخالد لن يذوى)، وتذكرت أنها استظهرتها مرة لرودنى وأنه ردد البيت الأخير منها قائلا:

وعلى براعم مايو تهب رياح الأعوام الماضية القاسية.

ولكنه نظر إليها عندئذ وقال: نعم. ولكنها الآن فى أكتوبر. أليس كذلك؟

وكان هذا الخاطر غريبا حقا بحيث أنها تفرست فى رودنى وقد اتسعت عيناها وقالت تحدث نفسها وهى تسير بمحاذاة القضبان الحديدية.

– لماذا قال رودنى ولكننا الآن فى أكتوبر؟.. ماذا كان يقصد؟

وإذ هى تلقى على نفسها هذا السؤال تذكرت أمرا غريبا، تذكرت أنه نطق بهذه العبارة فى مساء اليوم الذى رأته فيه فوق مرتفعات اشلدون مع مسز شيرستون.. ومن يدرى.. لعل مسز شيرستون استظهرت بعض الأشعار فى ذلك اليوم. ولكن لا.. لا يمكن أن تكون قد فعلت ذلك لأنها لم تكن مثقفة على الإطلاق.

نعم، كان شهر أكتوبر فى تلك السنة رائعا جدا.. وتذكرت أن رودنى أشار بعد ذلك بأيام إلى شجرة من فصيلة الأشجار الوردية وقال فى ارتباك:

- أليس غريبا أن تزدهر هذه الشجرة فى مثل هذا الوقت؟

كانت الشجرة من ذلك النوع المبكر الذى يزدهر عادة فى شهر مارس أو فى آخر فبراير. ولكنها كانت فى ذلك الشهر، شهر أكتوبر تزدهر بازهار حمراء قانية وتغطيها البراعم.

وأجابته قائلة: .. هذا صحيح.. هذا ازدهار الربيع ولكنه يتجدد أحيانا فى الخريف إذا كان الموسم جميلا وحارا بوجه خاص..

ولمس رودنى أحد البراعم بأنامله فى رقة وتمتم فى صوت خافت:

على براعم مايو..

ولكنها قاطعته مصححة: مارس.. وليس مايو..

- يخيل لى أنها قطرات من الدم.. قطرات من قلب يدمى.

وأدهشها أن يبدى رودنى مثل هذا الاهتمام بالزهور..

بل أنه تصادق مع هذه الشجرة بالذات. وتذكرت أنه بعد بضع سنوات من ذلك أخذ زهرة منها ووضعها فى عروة جاكتته. وكانت زهرة ثقيلة لم تلبث أن وقعت كما كانت تخشى.

والغريب أن هذا المنظر وقع فى مقبرة.. فقد كانت جوان تسير خلف الكنيسة فرأت رودنى فلحقت به قائلة:

ضحك قبل أن يرد عليها قائلا: أننى أفكر فى أيامى الأخيرة واختار مقبرتى.

وكانت قد ألتقت به أمام مقبرة جديدة تحمل اسم (ليزلى

شيرستون). وإذ رآها تنظر إلى الاسم قال فى بطء:

- ليزلى أدلين شيرستون، زوجة أدوارد شيرستون المحبوبة. ماتت فى ١١ مايو سنة ١٩٣٠, ليجفف الله دموعها.

وبعد لحظة من الصمت عاد يقول: هذه الرخامة الباردة فوق ليزلى شيرستون.. يالها من حماقة فظيعة. وما من شك فى أن شيرستون أثبت أنه أغبى الأغبياء باختياره هذه العبارة، فاننى لا أظن أن ليزلى ذرفت دمعة واحدة طوال حياتها.

وعلى الرغم من تأثرها، وعلى الرغم من إحساسها بأنها تنطق بدعابة تجديفية فإنها قالت:

- وما هى العبارة التى كنت تختارها أنت؟

- تعنين اختارها لها.. كنت أبحث عن عبارة مناسبة.. فى وجودك منتهى الفرحة مثلا.

- ولكنى أقصد ماذا تختار أنت لنفسك.

- أوه.. لى أنا.

وفكر لحظة ثم ابتسم ابتسامة قصيرة وقال الرب يرعانى ويرشدنى عبر المراعى الخضراء.. هذه عبارة تناسبنى تماما.

- طالما فكرت فى أن هذه العبارة تعطينا فكرة مبتذلة عن الجنة.

- وكيف تتخيلين أنت الجنة يا جوان؟

- حسنا. أتخيلها بدون كل الأبواب الذهبية التى يتكلمون عنها وبدون كل الهذر الآخر الذى يذكرونه طبعا. أننى أتخيلها كحالة نفسية تسمح لكل شخص أن يظهر نشاطه فى ظروف عجيبة لكى يجعل هذه الدنيا أجمل أو اسعد، وتغيث الأحياء. هذه هى فكرتى عن دورنا فى الجنة.

قال فى خبث وهو يضحك لكى يخفف من سخرية كلماته:

- يا لك من امرأة معتزة بنفسها يا جوان.

وأردف يقول: - أما أنا فيكفينى واد أخضر. اننى أتخيل قطيع الماشية يتبع الراعى لكى يعود إلى الحظيرة فى طراوة الغسق.

وامسك لحظة ثم استطرد: - وهذه حماقة من ناحيتى يا جوان.. ولكننى فى طريق العودة من المكتب، وعندما انعطف إلى الشارع الكبير يداعبنى الوهم أحيانا فأتخيل وأنا أسلك الطريق الذى يؤدى الى بل ووك أننى أنما أسلك واديا هادئا تكسوه الخضرة الجميلة بين صفين من الأشجار وأقول لنفسى أن هذا الوادى موجود منذ الأبد فى أعمق أعماق المدينة. وأنى أشعر بالبهجة وأنا أسلكه بعد صمت الشارع الكبير. ولعلنى أصيح فى شئ من الدهشة والحيرة. أين أنا؟.. ولا ألبث أن أسمع نفسى وأنا أرد فى رفق وفى رقة كبيرة بأننى ميت.

صاحت فى دهشة وأستياء: - رودنى.. هل أنت مريض؟ انك لست فى حالتك الطبيعية حقا.

كانت هذه هى الإشارة الأولى بأنه يعانى من اضطراب ما.. الإشارة المنذرة بالانهيار العصبى الذى تسبب فى إرساله الى مصح كونواى حيث بدا انه سعيد بأن يقضى فيه شهرين يستجم فوق مقعد سعيد لا يتحدث إلى أحد ولا يشغله شئ غير الإنصات الى زقزقة العصافير والى تأمل الكثبان الشاحبة الموحشة التى تفصله عن البحر.

وكان لابد من هذا المشهد الذى وقع فى المقبرة لكى تدرك مدى الإرهاق الذى يعانيه لإفراطه فى العمل. وفيما هما يأخذان طريق العودة بعد أن تأبطت ذراعه لكى تسانده رأت الزهرة الثقيلة تقع من عروة جاكتته على قبر ليزلى فصاحت:

- أوه... زهرتك.

وانحنت لكى تلتقطها ولكنه تمتم قائلا: - دعيها مكانها... دعيها لليزلى شيرستون فاننا ندين لها بهذا... فأنها كانت صديقتنا.

أسرعت جوان فأبدت اغتباطها بهذه الفكرة المؤثرة ثم أردفت تقول أنها ستأتى هى نفسها فى صباح الغد بباقة من زهور الأقحوان الصفراء وتضعها على قبرها.

وتذكرت القلق الذى راودها وهى ترى الابتسامة الغريبة التى رد بها عليها، فقد أحست عندئذ بأن رودنى ظهرت عليه أعراض اثارت جزعها، ولم تكن تستطيع طبعا أن تعرف أنه موشك على الوقوع فريسة انهيار عصبى شديد، ولكن لم يسبق أن رأته أبدا يمثل هذه السحنة.

وتملكها الجزع حقا وراحت تتفنن فى استجوابه طوال الطريق ولكنه لم يخرج عن صمته إلا لكى يتمتم اننى متعب يا جوان.. اننى متعب جدا. وفجأة نطق بهذه العبارة الغامضة: لا يتمتع أى شخص بمثل هذه الشجاعة.

وذات صباح، بعد ثمانية أيام قال: - لن أستطيع النهوض اليوم.

ولزم الفراش من غير أن يتكلم ومن غير أن ينظر إلى أحد. وبقى مكانه لا يتحرك وعلى شفتيه ابتسامة هادئة.

وعندئذ أقبل الأطباء والممرضات وظلوا يعودونه حتى ذلك اليوم الذى وصفوا له العلاج فى صورة فترة طويلة من الاستجمام والراحة التامة فى تريفليان - من غير خطابات أو برقيات. أو زيارات - حتى جوان نفسها لم يسمح لها بزيارته... جوان، زوجته!

ومرت بها فترة طويلة من القلق والاضطراب، فوق المشاكل التى

خلقها لها الأولاد. فبدلا من أن يحوطوها بعطفهم وحنانهم بدا كأنهم يعتقدون انها هى المسئولة عما وقع لأبيهم.

- من العار أن تتركيه يعيش هذه العيشة الاستبدادية.. فى المكتب من غير أية راحة يا أماه كنت تعرفين تماما أن أبانا يرهق نفسه فى العمل منذ سنوات.

- ليس فى هذا أى شك يا أولادى. ولكن كيف كان يمكننى ملاقاة ذلك؟

- كان فى مقدورك أن تنتزعيه من المكتب بالقوة منذ وقت طويل. إلا تعرفين أنه يكره هذا النوع من العمل؟... ألم تفهمى أبانا أبدا؟

- اننى أعفيك من أسئلتك يا تونى. اننى أفهم أباك جيدا طبعا، بل اننى أجدر منكم جميعا بفهمه.

- اننى أشك فى ذلك. وأتساءل أحيانا اذا كنت قد فهمت أحدا ما.

- تونى... هذا يكفى.

وقالت أفريل: - رويدك يا تونى... انك تضيع وقتك.

يالهذا القول... كان هذا من شيم أفريل حقا فإنها فتاة جامدة القلب عديمة الإحساس، متصنعة ومتهكمة على الرغم من سنها الصغير. وطالما فكرت جوان أن أفريل لا تتمتع بذرة واحدة من القلب كانت تتجنب العطف والحنان وتبدو غير قابلة للمبررات العاطفية.

وتأوهت بريارا، البنت الصغرى المدللة المندفعة وقالت:

- يا لأبى العزيز. انها غلطتك تماما يا أمى انك كنت قاسية مع أبى... قاسية... طوال الوقت.

وهنا فقدت جوان صبرها وقالت: - بريارا... هل تدركين معنى ما تقولين؟... أن أباك كان هنا السيد المطاع دائما. كيف كنت تتوقعين أن

تتعلموا وتلبسوا وتأكلوا إذا لم يكن أبوك قد اشتغل من أجلكم. انه ضحى بنفسه فى سبيلكم... وهذا هو دور وواجب الأهالى، وهم يخضعون لهما دون انتظار حمد أو شكر.

وقالت أفريل: - اننى أنتهز الفرصة لكى أشكرك يا أمى على كل التضحيات التى قمت بها فى سبيلنا.

نظرت جوان إلى ابنتها مشدوهة... خامرها الشك فى صدق أفريل. ومع ذلك فلا يمكن أن تكون أبنتها... وأبنتها هى بالذات من الوقاحة بحيث...

وحول تونى مجرى الحديث بأن قال بلهجة الجد:- هل صحيح أن أبى كان يريد أن يشتغل بالزراعة؟

- الزراعة؟... كلا، طبعا... أخيرا.... أعنى... يبدو لى أنه فى الماضى.. ولكنها كانت نزوة من نزوات الشباب... فان الأسرة اشتغلت بالمحاماة أبا عن جد... ثم ورث مكتبا رائجا عن أبيه وكان يتمتع بشهرة كبيرة... ويمكنكم أن تفتخروا بذلك... وأنت يا تونى، تأهب لكى تأخذ فيه مكانك فيما بعد.

- ولكننى لا أريد الاشتغال بالمحاماة يا أماه... اننى أريد أن أقيم فى أفريقيا الشرقية وأن أشتغل بالزراعة.

- ما هذه الحماقة يا تونى... أطرح هذه الفكرة السخيفة من رأسك... ستلتحق بالمكتب فيما بعد لأنك الابن الوحيد.

- لن أكون محاميا أبدا يا أماه. وأبى يعرف ذلك ويقرنى على رأيى.

زعزعها هذا القول وأحست كأن دشا من الماء البارد قد انصب عليها ونظرت الى تونى مذعورة ثم تهالكت فوق أحد المقاعد وراحت تنشج... كان من الخبث أن يتآمر الأولاد عليها هكذا لإذلالها. وقالت:

– اننى أتساءل ماذا حدث لكم لكى تسيئوا معاملتى هكذا... أثناء غياب أبيكم. أنكم قساة القلوب معى جميعا.

وتمتم تونى ببضع كلمات ثم استدار وتسلل خارج الغرفة.

وقالت أفريل بلهجتها العادية: – أن تونى قد عقد العزم حقا يا أماه. وهو يريد أن يلتحق بمدرسة لكى يتعلم الزراعة. أما أنا فمن رأيى أنه أحمق، ولو كنت مكانة لالتحقت بالمكتب طواعية، فان مهنة المحاماة تستهوينى.

قالت جوان باكية: – ما كنت أتوقع أبدا أن يعاملنى أولادى بمثل هذا الجحود.

اكتفت أفريل بأن تنهدت، ولكن بربارا، التى كانت تبكى بحرقة من ركن من الحجرة صاحت تقول:

– أعرف أن أبى سيموت... اننى واثقة من ذلك، وسنبقى وحدنا... أوه... هذا فظيع... فظيع.

تنهدت أفريل مرة أخرى وانتقلت عيناها الحافلتان بأمارات الازدراء من أختها التى تبكى إلى أمها التى تحاول أن تكتم عواطفها ثم قالت:

– بما أننى لا أستطيع شيئا...

ثم انسحبت فى هدوء ووقار كما هى عادتها.

كان مشهدا شاقا عصيبا مخيبا للآمال حقا لم تشأ جوان أن تتذكره أبدا.

كان كل شئ متهوما مع ذلك.. إذا نظرنا إلى الضربة القاسية التى أصابتهم بمرض أبيهم والى الكلمات الغامضة: انهيار عصبى. كانت

هذه العبارة تفسر مسلك الأولاد، فإنهم يميلون دائما الى البحث عن المسئول عن مشاكلهم. وفى هذه المسألة بالذات تونى وبربارا قدما اعتذاراتهما فيما بعد. أما أفريل فلم يبد عليها أطلاقا أن هناك ثمة داع للاعتذار. ولعلها كانت فى قرارة نفسها تعتقد أنها على حق. لم تكن الغلطة غلطة الفتاة المسكينة لأنها كانت قاسية القلب فعلا.

والخلاصة: كان غياب رودنى حقبة حزينة شاقة، بدا الأولاد فيها مستائين، مقطبين ومنطوين على أنفسهم وأقصوها عنهم. وأحست بالوحدة بصورة مروعة ولا شك أنها كانت تعانى من ألمها الذاتى وقلقها لأنها كانت واثقة أن الأولاد الثلاثة، كانوا يحبونها فى رفق. وكان يمكن كذلك أن تقول شيئا فى صالحهم، وهو أنهم كانوا فى أعمار صعبة فان بربارا كانت لا تزال طالبة، وكانت أفريل فتاة حريصة، أما تونى فكان يقضى كل وقته فى مزرعة مجاورة. وانه لأمر مزعج أن يكون قد ملأ رأسه بهذه الفكرة الحمقاء وهى الاشتغال بالزراعة، وقد برهن رودنى على ضعف كبير بتشجيعه على ذلك. وفكرت جوان فقالت انه لمن القسوة أن تقع على أنا دائما كل هذه الأعمال المرهقة. وثمة شئ آخر وهو أن بالمدرسة الداخلية لمس هارلى طالبات رقيقات، ولا أفهم لماذا لا ترتبط بربارا بروابط الصداقة الا مع الفتيات الخبيثات. يجب أن أجعلها تفهم مرة واحدة أننى لا أقبل فى بيتى إلا الفتيات المهذبات وأتوقع أن تثير هذه المشكلة الجديدة سيلا من الدموع وأزمة من المزاح الحاد. أن أفريل لا تقدم إلى أية سلوى أو مواساة فهى تعيش عيشة مستقلة عنا ولا أحبذ تلك اللهجة المحقرة التى تستخدمها فى الحديث وأخشى أن تكتسب سمعة يرثى لها.

وقالت جوان تحدث نفسها أن تربية الأولاد مهمة صعبة حقا.

ومـا من أحـد يدرك هـذه الحـقـيـقـة. يجب أن يكون الإنسـان لبـقـا ومرنا فى تربية الأولاد وأن يعرف متى يستخدم سلطته ونفوذه ومتى يرخى العنان عندمـا تقـتـضى الظروف... مـأمن أحـد أبدا يمكن أن يتصور التجارب التى مررت بها أثناء مرض رودنى.

وسببت لها هـذه الفكرة انتفاضة خفيفة لأنها ذكرتها بخاطر أدلى به الدكتور مـاك كين فى لهجة سـاذجـة بعض الشئ، فـقـد قـال انه لا يجتمع بعض الأشخاص فى مكان مـا إلا ويصيح أحدهم أن عـاجلا وان آجلا فيقول لا يمكن لأحد أن يعرف مقدار ما تحملت فى هذه الفترة وقد ضحك كل المستمعين واعترفوا بأن هذا صحيح حقا.

وقالت جوان وهى تباعد مـا بين أصابع قدميها بسبب الرمل الذى انحشر بينها:

- حسنا... هذا صحيح، ولا أحد يدرى مدى مـا تحملت فى ذلك الوقت... ولا حتى رودنى نفسه.

لأنه منذ عـودة رودنى فى فيض من البشر والمرح عـاد كل شئ إلى وضعه الأول وأصبح الأولاد محبين عطوفين كسـابق العهد بهم، وعـاد الانسجام إلى البيت على الفور. ورأت جوان إن مـا وقع من أمور شاذة كـان سـبـبـهـا القلق تمامـا، فـان القلق أفـقـدهـا اتزانهـا وجـعل الأولاد يتسمون بالعصبية والعداء وصفوة القول كانت تلك الفترة من الجـزع والكدر فـتـرة عـابرة وتسـاءلت لماذا تزعج نفسـهـا بمثل هذه المشـاكل العـابرة فى حين أن فى مقـدورها أن تتذكـر الذكريات الجـميلة تجنبا للأسى والشجن.

كل هذا أتاهـا مـن... من أين أتاهـا كل هـذا؟... آه، نعـم... من هـذه الفكرة التى ألحت عليـهـا أن تتـمـشى فى الصـحـراء وان تسـتـظهـر

أشعارا... ولكن لم يكن فى هذا أى خير طالما أنه ليس هناك من يراها أو يسمعها.

ليس هناك أحد... لا أحد على الإطلاق.

وقالت: - كلا... كلا... لا داعى للذعر. لا يجب ان أترك نفسى فريسة للذعر... فان ذلك ليكون حماقة... وضعف أعصاب.

واستدارات نصف دورة فجأة وقد عقدت العزم على أن تعود إلى المحطة ولكنها رأت أن تبذل قصارى جهدها حتى لا تجرى.

لم يكن هناك ما يخيف... لم يكن هناك ما يدعوها إلى الخوف خاصة وأنها فى مكان مكشوف، ولكنها كانت تعانى من خوف نفسى... كانت تخشى أن تستبد بها الأفكار... الأفكار المضطربة الخرقاء التى تأتى من حيث لا تدرى وتخترق الذهن كالسحالى التى تخرج من مخبئها فجأة.

وبرزت صورة ميرنا راندولف أمامها كالثعبان... وأطبقت عينيها حتى لا تراها، ولكن الصورة ألحت عليها وطغت عليها ورأتها فى وضوح وجلاء بحيث حاولت أن تغمض عينيها.

ولكن كيف يستطيع المرء أن يغمض عينيه فى حين أن الثعابين والسحالى تهاجمه من كل مكان.

كانت هناك أمور كثيرة تلح عليها وتحاول أن تهرب منها دون أن تستطيع بربارا وبغداد وبلانش. لقد بدأ كل شئ ببلانش. وهى مصادفة غريبة. ثم رودنى على رصيف محطة فكتوريا. وعداء الأولاد.

وتملكها الغضب... الغضب من نفسها... نعم. لماذا لا تكتفى بالتفكير فى الذكريات الجميلة... وانها لكثيرة... أوة، نعم... ذكريات جميلة عذبة حقا.

فستان الزواج المصنوع من الساتان الأبيض، وأفريل فى مهدها المفروش بالموسلين والمزين بالشرائط الوردية اللون... كانت أفريل مولودة جميلة... كانت رقيقة دائما وظريفة... ان ابنتك جميلة جدا يا مسز سكودامور... نعم، كانت أفريل طفلة جميلة حقا... أمام الغير على الأقل. أما أفراد الأسرة فقد كانت كثيرة النقاش والجدال، وكانت تنظر اليك كما لو كانت تتساءل اذا كنت تدرك معنى ما تقول. ولم يكن فيها أى شئ من الرقة، وكذلك تونى، فقد كان يشرفها فى المجتمعات على الرغم من أنه كان دائم التهرب ودائم السرحان فى نقاط كثيرة... بربارا وحدها أثارت جزعها بقلقها ودموعها التى لا تفرغ.

كان الأولاد الثلاثة على العموم محبين، عطوفين ومهذبين.

ومما يؤسف له أن الأولاد عندما يكبرون يخلقون كثيرا من المشاكل.

ولكنها لن تفكر فى هذا. يجب أن تركز أفكارها فى مباهج طفولتها وأفراحها... فى أفريل وهى ترقص فى ثوبها الحريرى الوردى الجميل وبربارا فى ثوبها الرائع المصنوع من الجرسيه، وتونى فى سرواله الذى حاكته له نونو.

ولكن، ليس هذا كل ما هناك... أنها تستطيع أن تجد مواضيع أخرى تفكر فيها غير ثياب أولادها. نستطيع أن تتذكر الكلمات الجميلة الرقيقة التى خاطبوها بها أو المشاهد العائلية الحميمة التى حفلت بها حياتهم معا.

عندما تفكر فى التضحيات التى بذلتها للأولاد وفى الطريقة التى تفانت بها فى خدمتهم. ومع ذلك فان أفريل طالما عاملتها فى برود وطالما خاطبتها بتلك الوقاحة التى أصبحت لا تخشى شيئا كما تخشاها.

- ولكن ما الذى تفعليه لنا يا أماه... أنك لا تفعلين لنا شيئا على الإطلاق.

وقالت أفريل: - لا تطعميننا ولا تمشطين شعورنا... (نون) هى التى تقوم بكل شئ... هى التى تذهب بنا إلى فراشنا وتعنى بنا، وأنت لا تحيكين ثيابنا وإنما هى (نونو) التى تفعل، وهى التى تخرج بنا للنزهة.

- نعم يا صغيرتى. اننى استخدم (نونو) لكى تعنى بكم. ومعنى هذا اننى ادفع لها...

- ولكن بابا هو الذى يعطيها راتبها الذى يأتى بالنقود دائما، أليس كذلك؟

- طبعا يا صغيرتى، ولكن هذا سيان.

- ولكنك لا تذهبين الى المكتب كل يوم. إن أبى هو الذى يشتغل وحده. لماذا لا تشتغلين معه؟

- لاننى أدير شئون البيت.

- ولكن ألا تقوم كيث والطاهية بذلك؟

- هذا يكفى يا أفريل.

وأنصافا للحق يجب أن نقول إن أفريل كانت مطيعة تسمع الكلام على الفور بدون احتجاج وبغير تحد، ولكن طاعتها هذه كانت تبدو أحيانا أكثر إزعاجا مما قد يكون عليه تمردها. وقد ضحك رودنى ذات يوم وقال ان الحكم بالنسبة لأفريل سيكون براءة دائما لنقص الأدلة.

- أرى انك تخطئ فى سن أفريل لا يجب أن يميل إلى النقد هكذا.

- انك تعتبرينها أصغر من أن تفرق بين الصواب والخطأ.

– أوه... لا تتكلم كما يتكلم رجل القانون.

رد رودنى وهو يبتسم فى غصة: – من الذى جعل منى رجل قانون؟

– الحق اننى أرى أن هذه الصغيرة تفتقر الى معنى الاحترام.

– بل أرى أنها مهذبة بالنسبة لسنها. أنها لا تثور ولا تهيج أبدا كما تفعل بربارا.

وكان هذا حقا، وقد وافقته جوان على ذلك، فعندما كانت بربارا تغضب كانت تثور وتحتد فتصيح قائلة: انك خبيثة... انك فظيعة واننى أمقتك. وددت لو أن أموت لا لشئ إلا لإزعاجك.

ولكن جوان ردت على رودنى قائلة: – ان بربارا فتاة متقلبة، وهى تطلب الصفح بعد ذلك دائما.

– نعم. أنها امرأة صغيرة ومسكينة لا تعى ما تقول فى حين إن لافريل حاسة خارقة لتمييز الهذر الذى نقدمه لها.

اعترضت جوان: الهذر... لا أفهم ماذا تقصد؟

– أقصد هذا الهراء الذى نحشى به رؤوسهم... وتظاهرنا بأننا نعرف كل شئ... والتزامنا بأن نبدو مثاليين... ومواهبنا التى لا تخطئ فى التصرف... إزاء هذه المخلوقات الصغيرة التى لا حول لها ولا قوة.

– أن من يسمعك تنطق بهذا القول يحسبهم عبيدا لا أولادا مدللين.

– أليسوا عبيدا؟.. أننا نفرض عليهم ما يأكلونه من طعام ونختار لهم ثيابهم، بل نختار لهم الكلمات التى يجب أن ينطقوا بها... أنهم بهذا الثمن يشترون حمايتنا ولكن كلما شبوا وكبروا كلما اقتربوا من الحرية شيئا فشيئا.

قالت جوان فى ازدراء: - الحرية... وهل تعتقد أن لها وجودا؟

أجاب رودنى فى صوت عميق: - كلا. لا أعتقد هذا... ما أصدقك وأنت تقولين هذا يا جوان.

وما أن فرغ من قوله هذا حتى خرج وقد خارت كتفاه.

وقالت نفسها فى انفعال مفاجئ:

- هكذا سيبدو رودنى فى شيخوخته.

رودنى على رصيف محطة فيكتوريا... والنور الفج يكشف غضونه وملامحه المتعبة لفرط الإرهاق رودنى ينصحها بأن تحرص على نفسها، ولا يكاد يوليها ظهره حتى...

ولكن لماذا تعود إلى هذه النقطة دائما؟... هذا جنون.

إن رودنى يتحسر عليها كثيرا... لا ريب أنه حزين لأنه وحده فى البيت... وحده مع الخدم.. وهو لن يفكر أبدا طبعا فى دعوة أصدقائه للعشاء... أو إذا فكر أن يدعو احدا فانه قد يدعو ذلك التافه هرجريف تايلور... ان هذا الرجل مزعج إلى حد الضجر... ثم أنها تفهم أبدا لماذا يؤثر رودنى رفقة ذلك الميجور السمج المدعو ميلز. الذى يكن يحلو له إلا الحديث عن المراعى والأغنام.

ما من شك فى أن رودنى يتحسر عليها الآن.



الأفكار الخبيثة

ما أن عادت إلى محطة الترحيل حتى أسرع الهندى لملاقاتها متسائلا:

- هل قامت السيدة بنزهة طيبة؟

أجابت: نعم... نزهة جميلة.

- سيكون العشاء جاهزا بعد قليل... وهو عشاء شهى جدا يا سيدتى.

اغتبطت جوان لذلك ولكن عبارة الهندى كانت مألوفة لان العشاء لم يشذ عما سبقه فيما عدا أن كومبوت الخوخ استبدل بمربى مشمش. كان من الممكن أن يكون العشاء شهيا لو أنه اختلف عن المألوف.

ولما فرغت جوان من الطعام لم تستطع أن تأوى إلى الفراش فى مثل هذه الساعة المبكرة. ومرة أخره ندمت أشد الندم لأنها لم تأت معها بعمل يدوى تستطيع أن تقضى به الوقت بدلا من القراءة ودفعها اليأس إلى محاولة قراءة مذكرات الليدى تيزارت للمرة الثانية. ولكنها لم تصادف لديها أى اهتمام.

ليتها تجد شاغلا كيفما يكون تشغل به وقتها لو أن معها مجموعة

من ورق اللعب لقضت الوقت فى معرفة البخت. أو لو أن معها طاولة أو دمينو أو شطرنج لحاولت أن تلعب ضد نفسها. بل لو أن معها لعبة من ألعاب اللوتو أو الثعبان أو السلم. ثعبان وسلم.. الثعبان والسحالى.

حقا... ما أغربه من تشبيه ذلك الذى شبهت به السحالى التى تخرج رؤوسها من جحورها بالأفكار التى تظهر فجأة... هذه الأفكار الخبيثة المزعجة التى تفرض نفسها على الرغم من كل شئ والتى لا تطاق.

ولكن إذا كانت لا تطيقها فكيف كانت تستوعبها؟ ان الإنسان مهما يكن أفكاره.. أو لعله ليس كذلك؟ هل من المستطاع فى أى ظرف من الظروف أن يواجه الإنسان أفكاره أو أن ينسقها؟... عندما تندفع من ركن غامض من ذاته أشبه بالسحالى... وعندما تخترق ذهنه كثعبان أخضر رمادى.

تندفع من مكان غامض منها.

غريب هذا الشعور بالخوف الذى أحست به.

لا ريب انه الخوف من الأماكن الفسيحة المفتوحة التى لا أول لها ولا آخر... نعم. إن الأمر كذلك.. الخوف من الأماكن الكبيرة العريضة... فان مثل هذا الدوار لم ينتابها أبدا قبل أن تقع ضحية له اليوم. أنها بقدر ما تذكر لم تتح لها الفرصة على التعود على مثل هذه الأماكن العريضة، فقد قضت حياتها حتى اليوم داخل البيت وفى الحدائق، تشغل نفسها بأعمال كثيرة وحولها أناس كثيرون... اناس كثيرون، وهذا هو المهم... كم تتمنى لو أن هناك أحدا تتحدث اليه.

حتى ولو كانت بلانش.

ما أسخف هذا الذعر الحقيقى الذى أحست به مجرد احتمال أن

تقوم برحلة العودة بصحبة بلانش!

كان موقفها جديرا بأن يختلف طبعا لو أنها كانت برفقة بلانش. كان في مقدورهما أن يتبادلا ذكرياتهما عن مدرسة سانت آن دون أن تفرغ جعبتهما... كم يبدو هذا الوقت بعيدا ولكن ماذا قالت بلانش؟... انك عرفت كيف تعيشين وقد صعدت أما أنا فقد أفسدت حياتي كلا... أنها استدركت بعد ذلك وقالت: انك بقيت في نفس المستوى، تلميذة طيبة.. كانت أحسن دعاية للمدرسة.

ألم تتغير كثيرا منذ ذلك الوقت حقا؟ يسرها أن تفكر في هذا الأمر... نعم، يسرها هذا من ناحية، ولكنه لا يروق لها من ناحية أخرى لأنه ينطوي على شئ من الركود... ماذا قالت لها مس جيلب بالذات عند مغادرتها المدرسة؟ ان خطبة الوداع التي تلقيها مس جيلب بمناسبة مغادرة تلميذاتها المجتهدات لمدرستها مشهورة... كانت أحدى المميزات التي قامت عليها شهرة مدرسة سانت آن.

انتقلت جوان بذاكرتها إلى سني الدراسة، وفي وضوح كبير مدهش ظهرت على الفور أمام مخيلتها صورة المديرة. رأت الأنف المثير والمنظار المزدوج والعينين الصغيرتين القاسيتين ذات النظرة المتسلطة.. عظمة مس جيلب المهيبة وهي تمشي في ممرات المدرسة... عظمة تتجلى من نصفها العلوي على الخصوص... صدر مضغوط متصلب لا يرمز إلا للعظمة دون أن ينم عن أي شئ انثوي. شخصية مدهشة شخصية مس جيلب هذه... كانت تثير خوف الجميع وإعجابهم في نفس الوقت. يهابها الأهل والطالبات في وقت واحد... لم يكن هناك شك في أن مس جيلب كانت تمثل المدرسة سانت آن، ورأت جوان نفسها وهي تدخل المكان المقدس، ألا وهو مكتب المديرة بوروده ولوحاته عن أسرة مويتشي، وجوه الثقافي العلمي وروح النظام التي تتجلى في

كل شئ فيه.

ورأت مس جيلب ترفع رأسها فى جلال، فوق مكتبها وتقول:

- تعالى يا جوان... أجلسى يا ابنتى العزيزة. وجلست جوان فى اذعان فوق المقعد المنجد بالكريتون، وكانت مس جيلب قد لبست نظارتها وانبسطت أساريرها فى ابتسامة حقيقية غير متوقعة وقالت:

- انك ستغادريننا يا جوان. ستخرجين من دنيا المدرسة الضيقة المحدودة إلى دنيا أخرى أكبر وأعنى بها دنيا الحياة، ويهمنى أن أتحدث أليك لحظة فى عشية هذا الفراق وكلى أمل فى أن ترشدك كلماتى خلال السنوات المقبلة.

- نعم يا مس جيلب.

- انك كنت هنا فى المدرسة، هذه الدنيا الضيقة التى لا تكترث بشئ، بالقرب من زميلات لك فى نفس سنك، فى حمى من المشاكل والصعوبات التى لا يمكن لأحد أن يقصيها عن طريقه نهائيا.

- نعم يا مس جيلب.

- أعلم انك كنت سعيدة هنا.

- نعم يا مس جيلب.

- وقد اشتغلت بجد، ويطيب لى أن أعترف بنجاحك... كنت من خير تلميذاتى.

قالت جوان فى ارتباك:- أوه.. شكرا يا مس جيلب.

- ولكن الحياة تفتح أمامك آفاقا جديدة اليوم ومسئوليات جديدة.

وراحت الكلمات تتدفق من بين شفتى مس جيلب وجوان تقول فى كل مناسبة: نعم يا مس جيلب.

- واليك الآن نصيحة خاصة. اطرحى عنك الآراء السطحية يا عزيزتى جوان ولا تقنعى بقبول الحقائق كما تبدو لك من جوانبها الخارجية بحجة أن الآراء المبكرة أسهل من غيرها وأنها تجنبك الأسى، فيجب أن نعيش حياتنا لا أن نخفيها وراء حجب الوهم. ولا تغتبطى أكثر مما يجب.

- نعم يا مس جيلب.

- لاننى أقول لك فيما بيننا أن هذه هى نقطة الضعف فيك... فكرى فى الغير يا عزيزتى... ولا تنطوى على نفسك ولا تترددى عن الاضطلاع بمسئولياتك.

وأردفت تقول فى لهجة ظنانة:- ان الحياة يجب أن تسير إلى أحسن باستمرار يا جوان. يجب أن نرتقى من حالتنا الحالية إلى مستوى أرفع... وسيأتى الألم والأسى، فهما لا يتركان أحدا. وتذكرى يا أبنتى العزيزة انه يسرنى أن اسمع اعترافات تلميذاتى القدامى فى كل وقت... واننى على استعداد لان أزجى إليهم نصائحى عند أول إشارة. ليباركك الله يا ابنتى العزيزة.

ثم طبعت على جبينها قبلة الوداع وانصرفت جوان وقد تملكها شئ من التأثر.

عادت إلى المخدع لتجد أن بلانش قد لبست نظارة مس جرانت الانيقه ودست وسادة تحت ثوبها وراحت تقول بين هتاف التلميذات ومرحهن.

- انك تغادرين دنيا المدرسة الضيقة لكى تدخلى دنيا أكبر وأكثر خطرا... ألا وهى دنيا الحياة... إن الحياة تتفتح أمامك بمشاكلها ومسئولياتها.

وانضـمت جـوان إليهن وشـاركتهن مـرحـهن، وارتفع صـوت بلانش قائلا:-

- وأنت يا بلانش هاجارد... لن أقول لك أكثر من كلمة واحدة هي: النظام... نظمي حيـاتك واكبـحي أهواءك... إن تدفق احـسـاسـاتك ومشاعرك قد يكون فيهمـا هلاكك ودمارك. ولكن النظام... والنظام الصـارم يمكن أن يصل بك إلى اسـمى درجـات الهـدوء والوقـار. انك تملكين مـوهبـة ثمينة يا ابنتي العـزيزة فـتعلمي كيف تفـيدين منهـا بفطنة... ولكن لك عيوبا كثيرة كذلك يا بلانش... وهي عيوب كبيـرة ولكنها من صنع الطبيعة الكريمة، ويمكن توجيهها إلى ما فيه الخير ان الحياة ما هي إلا تحسين مستمر فارتفعي على أنقاض كيانك وليكن هدفك النجاح دائما. احتفظي بذكرى المدرسة وتذكري أن مس جيلب سـتـزودك بنصـائحـهـا في كل وقت... ذلك إذا أرفـقت بخطابك طابع بريد.

وأمسكت بلانش عن الكلام وأدهشـها انهـا لم تسمع أي صـبـاح أو هتاف ورأت إن كل التلميذات قد استحلن إلى تماثيل من الرخام وأن رؤوسهن جميعا قد اتجهت إلى الباب المفتوح وقد وقفت على عتبته مس جيلب في عظمة ونظارتها في يدها.

وساد صمت مريع قطعته مس جيلب أخيرا قائلة: اذا كنت تتهيئين لمهنة المسرح فانني اذكر لك أن هناك مدارس كثيرة متخصصة في فن التمثيل يمكنك أن تتعلمي فيها فن الإلقاء والتمثيل ويبدو أنك موهوبة لمثل هذه المهنة... ولكن في انتظار تنمية هذه الموهبة أرجو أن تعيدي هذه الوسادة مكانها.

وانصرفت على أثر ذلك في هدوء ووقار.

وتمتمت بلانش:- يا الهى.. لقد عرفت الدكتاتورة كيف تلزمنا الصمت.

نعم، فكرت جوان أن مس جيلب كانت شخصية تتمتع بقوة كبيرة. وقد اعتزلت الخدمة بعد التحاق افريل بسانت آن بثلاثة شهور. ولم تكن المديرة الجديدة تتمتع بشخصية جبارة مثلها، ولهذا السبب انخفض مستوى المدرسة منذ ذلك الوقت.

وقد صدقت بلانش فان مس جيلب كانت دكتاتورة ولكنها كشفت لها حقيقة نفسها وعرفت بلانش على حقيقتها حقا... النظام... هذا هو ما تحتاج إليه لكى تدبر حياتها. أكان لها غرائز كريمة؟... نعم، هذا جائز. ولكنها كانت تفتقر الى الحزم والسيطرة على نفسها. نعم. كانت بلانش كريمة من غير شك، وأصدق دليل على ذلك هو ذلك المبلغ الذى اقترضته من جوان، فهى لم تنفقه على نفسها بل اشترت به مكتبا لتوم هوليداس، وهذا يدل عنى انها مخلوقة كريمة حقا ورائعة ولكنها هجرت مع ذلك ولديها الصغيرين اللذين أنجبتهما، وفى هذا الدليل على أن هناك نساء لا يتمتعن بغريزة الأمومة فى حين أن جوان اهتمت بالأولاد قبل كل شئ. كانت هى ورودنى متفقين فى هذه النقطة.

كان رودنى غير مغرض حقا على الأقل عندما يعرفون كيف يعرضون عليه الأمور بحكمة. فقد أثبتت له مثلا أن تلك الغرفة المشمسة التى كان يستعملها لحفظ ثيابه يجب أن توضع تحت تصرف الأولاد كصالة للهو فقبل بكل سهولة أن ينقل ثيابه إلى الغرفة الصغيرة التى تجاور غرفة الخدم فقد كان الأولاد فى حاجة إلى أكبر قسط من الشمس والنور.

كانت هى وورودنى حقا أبوين مدركين لواجباتهما. وقد شرفهما الأولاد، خصوصا فى حداثتهم. كانوا أولادا ظرفاء حقا، لقوا تربية وتهذيبا أفضل مما لقيهما ولدا مسز شيرستون مثلا، فان مسز شيرستون لم تهتم أبدا بمظهرها وكانت تشترك كزميلة فى ألعابهما مهما اختلفت فتزحف على العشب لكى تلعب معهما لعبة الهنود الحمر وتطلق صيحات متوحشة، وقد أطلقت مرة وهم يقلدون لعبة من ألعاب السيرك صيحة كانت أشبه بزئير الأسد.

ولكن الواقع أن مسز شيرستون لم تحاول أبدا أن تظهر بمظهر امرأة كريمة الشمائل من نساء المجتمع.

وقد لقيت المسكينة مصيرا مؤلما حقا.

فكرت جوان فى ذلك اليوم الذى التقت فيه صدفة بالكابتن شيرستون إقليم سومرست.

كانت قد أقامت بضعة أيام عند بعض الأصدقاء فى ذلك الاقليم فيه. وألقت نفسها فجأة وجها لوجه أمام الكابتن شيرستون، وكان قد خرج لتوه من حانة انكوراندبل.

ولم تكن قد رأته منذ أن خرج من السجن، وقد دهشت للتغير الذى طرأ على ذلك الرجل الأنيق المحتال كما عرفته أيام كان مديرا للبنك.

شد ما يتغير مظهر الرجل المعتد بنفسه عندما يمسك الإدلال بتلابيبه. لقد انهارت كتفاه واحدودب ظهره وإرتخت وجنتاه وتهريت عيناه تحت جفنيه الكثيفتين.

ما اغرب الدنيا... أهذا هو الرجل الذى كان يحسب له رجال الأعمال كل حساب.

وقد صعق شيرستون عندما رأى جوان ولكنه لم يلبث أن تمالك

وأسرع إليها بطريقة كانت صورة محزنة من رقته السابقة.

– أوه... مستر سكوداه... ما أصغر الدنيا... اننى سعيد حقا اذ التقيت بك فى سكبثون هينز.

ووقف أمامها وقد رفع كتفيه وحاول أن يتخذ لهجته الرقيقة المتزنة التى كان معروفا بها وأحست جوان على الرغم منها بالرثاء له.

وأنها لفظاعة أن ينحدر الإنسان هكذا وأن يلتقى صدفة دون أن يتوقع بأحد معارفه القدامى متعرضا لان يرفض مصافحته.

ولم تحاول جوان طبعا أن تتصرف معه مثل هذا التصرف، وإنما قابلته بكل رفق بحيث قال لها:

– يجب أن تأتى لزيارة زوجتى. ستتناولين الشاى معنا. نعم يا عزيزتى مسز سكودامور. اننى أصر على ذلك.

وعلى الرغم من أن الأمر قد شق عليها، وعلى الرغم من ترددها فقد رافقته ومشت معه وهو لا يكف عن ثرثرته دون أن يبدو عليه أنه واثق من نفسه كل الثقة.

قال أنه يصر على أن يريها مزرعتها الصغيرة، وهى ليست صغيرة إلا بالاسم فقط لأنها تشغل مساحة كبيرة وأن زراعة الخضروات تتطلب عملا كبيرا وجهدا شاقا، وانهما تخصصا فى زراعة البطاطس وبعض البقول. وفتح وهو لا يزال يثرثر بابا مخلعا وان كان حديث الطلاء ومشيا فى طرقة مملوءة بالأعشاب البرية رأيا فى نهايتها ليزلى شيرستون منحنية فوق مسصطبة.

صاح شيرستون يقول:– أتعرفين بمن أتيت إليك؟

واعتدلت ليزلى فى وقتها ودفعت عن وجهها خصلة من شعرها ثم

أسرعت الى لقائهما وهى تصيح فى دهشة:

صعقت جوان لما بدا على ليزلى من شيخوخة. بل انه خيل لها أنها مريضة. كانت هناك غضون عميقة حفرها التعب والألم تملأ وجهها، ولكنها معنويا بقيت كما هى، بشوشة، مهملة نشيطة الى حد كبير.

وفيما هم يتحدثون عاد الولدان من المدرسة، وقد أعلنا عن حضورهما وهما لا يزالان بالخارج بصياحهما وضحكاتهما ولم يلبثان ان هجما على ليزلى وهما يصرخان. وبعد أن ردت على مشاعرهما قالت فجأة فى صوت آمر:

– الزما الهدوء، فلدينا زائرة.

وانقلب الولدان الى ملاكين يقطران أدبا. وصافحا مسز سكودامور فى اتزان وهدوء. وانتقلت جوان للكلاب. كانت الكلاب تقف صاغرة بمجرد أن يأمرها بذلك ثم تجلس ولكنها تتصرف فورا بمجرد صدور أمر مضاد. بدا لها ولدا ليزلى كأنهما تلقيا تدريبا وتربية من هذا النوع. وبعد أن رافقا أبويهما داخل البيت ساعد ليزلى فى إعداد الشاى وصينية بها بعض البسكويت والمربى والزبد وفناجين الشاى دون أن ينقطعا عن الضحك ومداعبة أمهما.

ولكن أغرب شئ هو التغيير الذى طرأ على سلوك شيرستون نفسه، فقد تلاشى ارتباكه وتهربه وشعوره بالذل... وعاد فأصبح رب البيت ورب المكان. كان منبسط الأسارير مسرورا من نفسه فخورا بأسرته. كان يبدو أن حمى هذه الجدران الأربعة تحصنه ضد العالم الخارجى وضد الرأى الاجنبى. وكان ولداه يطلبان منه من وقت لآخر مساعدته فى عمل من أعمال النجارة ومن ناحيتها ناشدته ليزلى أن لا ينسى انه وعدها أن يصلح لها معولها وسألته إن كان يفضل أن يحرثا

الأرض الليلة بالذات أو إذا كان يرى ان يؤجلا هذا العمل لليوم التالى.

وحدثت جوان نفسها فقالت إن لم يبدو أبدا أكثر اتحادا من هذه اللحظة وخيل لها إن ليزلى تعبد شيرستون ولم يكن هناك شك فى انه كان شابا وسيما فيما سبق.

وكانت قد بلغت هذا الحد من أفكارها عندما خيل لها إن أذنيها تخدعانها، فقد صاح بيتر فى حدة:- أرو لنا ماذا فعل حارس السجن بالبودنج.

وإذ نظر أبوه إليه مصعوقا أردف الصبى فى إلحاح:- أنت تعرف ما اعنيه تماما. تلك القصة التى سمعتها وأنت فى السجن...

تردد شيرستون وبدا عليه الارتباك، وعندئذ قالت ليزلى فى هدوء:

- هيا يا شارل. أن القصة مسلية جدا. ستروق لمسز سكودامور.

وتكلم شارل. وكانت قصة مسلية حقا، ولكن ليس بالمعنى الذى يجب أن يفهمه الولدان. وقد راحا يهتزان طربا وهما يصيحان مسرورين مغتبطين كما يفعل الكبار. ورأت جوان من الأدب أن تضحك ولكنها فعلت وهى مصعوقة مشدوهة وعندما وجدت نفسها فيما بعد وحدها مع ليزلى فى الطابق الأول قالت لها:

- ما كنت أتصور أبدا أن ولديك على علم... ولكن ليزلى أجابتها فى غير حرج وهى تضحك:- كان يجب أن يعرفا ذلك ذات يوم... أليس كذلك؟.. ومن الأجدر أذن أن يعرفاه على الفور... فهذا أيسر.

كان ذلك أيسر بالطبع وقد وافقتها جوان على ذلك. ولكن هل كان ذلك عملا حكيما؟... أن مثالية روح الطفل شئ حساس... كيف تزعزع ثقته وإعجابه بأبيه هكذا... كادت جوان أن تختنق.

أجابتها ليزلى لأنها لا تظن أن ولديها من المثالية والحساسية بهذه الصورة الهشة.. وان أسوأ شئ بالنسبة لهما أن هناك سرا يحتفظ به أهلهما دونهما ورفعت ذراعيها فى غير اكتراث وقالت:

- إن إخفاء الحقيقة والكتمان والتصنع أمور ضارة جدا عندما سألانى لماذا رحل أباهما رأيت اننى أدين لهما بالحقيقة، ولهذا صارحتهما على الفور وقلت لهما انه اختلس أموال البنك وانه سيق إلى السجن لهذا السبب. وبهذا يعرفان أن السرقة تؤدى إلى السجن. وكان بيتر يميل بشكل غريب إلى سرقة المربى وكنا نرسله إلى الفراش عقابا له. وقد أدرك أن الكبار إذا تصرفوا تصرفا مشينا فأنهم يساقون إلى السجن، وهذا أمر يسير جدا.

- ولكن الولد الذى يزدرى أباه بدلا من أن يعجب به....

- أوه... أنهما لا يزدريانه.

ومن جديد بدا أن ليزلى قد أطربتها مخاوف جوان واستطردت:

- أنهما يرثيان له كثيرا ويروق لهما أن يسمعاه يروى ذكرياته عن السجن.

قالت جوان:- اننى واثقة أن هذا العمل ليس سليما بالنسبة لهما.

- آه. هل تعتقدين هذا حقا؟

وفكرت ليزلى ثم قالت:- هذا جائز... ولكن هذا هو ما أنقذ شارل، فعند خروجه من السجن كان يزحف كالكلب المقهور. وكان هذا بغيضا. وفكرت عندئذ أن الطريقة الوحيدة هو أن أذكر لهما ما حدث صراحة، فإننا مهما نفعل لا نستطيع إسقاط ثلاث سنوات من حياته، وقد رأيت أن الاوفق أن يعرفا الحقيقة.

هذا هو طبع ليزلى. بقيت كما هى مرحة صريحة، جاهلة للفوارق الدقيقة للمشاعر وتسلك دائما السبل المباشرة.

وقالت جوان فى تسامح:- افهمينى يا ليزلى. اننى أوافقك على انك كنت رائعة فى مساندتك لمعنويات زوجك بهذه الطريقة، وان تشتغلى فى سبيل ولديك فى حين أنه ماذا أقول... أننا متفقان معك تماما أنا ورودنى.

وقد ابتسمت ليزلى عندئذ ابتسامة صغيرة غريبة، وقد أدركت جوان ذلك الآن فقط. لعل التهنئات أربكتها وأزعجتها. مهما يكن فقد قالت ليزلى بصوت متكلف.

- وكيف صحة رودنى؟

- أن المسكين العزيز مشغول جدا. وأقول له فى بعض الأحيان انه يجب أن يمنح نفسه يوما أجازة من وقت لآخر.

وقالت ليزلى:- ليس هذا بالأمر اليسير. أظن إن مهنته كمهندس تقتضى عملا مستمرا، وليس من الممكن أخذ أجازة.

- هذا صحيح... ثم أن رودنى شديد الدقة.

وعادت ليزلى تقول:- عملا مستمرا.

ومضت إلى النافذة فى بطء، ووقفت مولية ظهرها لجوان مدة طويلة.

ونظرت هذه الأخيرة إلى استدارة جسدها وأخذتها الدهشة. كانت ليزلى ترتدى ثيابا فضفاضة رخوة دائما ولكنها مع ذلك... وصمتت بغتة:

- أوه... ليزلى... لا تقولى لى أنك...

تحولت ليزلى إليها وإذا التقت عيناها بعينى جوان هزت رأسها فى بطء وقالت:

- يلى... اننى أنتظر مولودا فى شهر أغسطس.

قالت جوان فى تأثير شديد:- أى صديقتى المسكينة.

ولكن ليزلى تغيرت فجأة بدون سبب ظاهر واستولى عليها الغضب. وتلاشى مرحها وفتورها وبدت كما لو كانت مخلوقة محكوم عليها بالموت تدافع عن نفسها.

- إن هذا الأمر غير شارل كل التغيير. هل تفهمين؟ لا أريد أن أقول كم كان هذا التغيير جذريا فقد رأى فيه رمزا أو دليلا على أنه ليس خارجا على القانون وعلى أن الحياة تعود كما كانت، بحيث انه منذ أن عرف اننى حامل حاول أن لا يشرب بعد.

كانت ليزلى تتكلم فى حماس بحيث أن جوان لم يفهم لأول وهله التلميح إلى العبارة الأخيرة واكتفت بأن قالت:

- انك تعرفين واجبك خيرا منى طبعا. ولكنى كنت أظن أن من الاوفق فى ظروفك الحالية...

قهقهت ليزلى وقالت:- هل تفكرين فى النفقات الإضافية؟... أوه... أننا سنخرج من هذه الورطة. عندما يأتى المولود سنشتغل أكثر.

- ولكن يبدو لى انك لا تستطيعين المقاومة...

- ماذا؟... اننى فى أحسن حال. أن ما سيقتلنى لن يقتلنى بسهولة، وسوف ترين.

ولكنها ارتجفت رجفة صغيرة كما لو أنها كانت تستشعر ذلك المرض الذى سيودى بها.

وهبطتا أخيرا إلى الدور الارضى وأصر شيرستون على أن يرافقها بعض الطريق لكى يريها الطريق المختصر عبر الحقول. وفيما هى تدير رأسها قبل أن تخرج من الحديقة رأت ليزلى وولديها يلهون ويتدافعون فى مرح غير رتيب. كانت ليزلى تلهو، وتشترك مع ولديها فى لهوهما كالحيوان تقريبا. وعلى الرغم من ان جوان تقززت من هذه المقارنة فأنها أصغت فى اهتمام الى حديث الكابتن شيرستون. بدا لها أنه يريد أن يفصح عن رأيه وقال لها بأشرات كبيرة انه ما من امرأة ساوت ولا تستطيع أن تساوى ليزلى أبدا.

– لا يمكنك أن تتصورى يا مسز سكودامور ماذا كانت بالنسبة لى. لن يمكنك أن تتصورى ذلك أبدا، ولا يمكن لأحد أن يدرك ذلك. اننى غير جدير بها... اعرف هذا.

وانزعجت جوان وهى ترى عينيه تدمعان. لا ريب انه من هؤلاء الرجال الذين يسهل التأثير عليهم والذين يسكرون بسهولة.

– أنها معتدلة المزاج... مرحة دائما ويبدو أنها تجد لكل ما يقع هنا جانبا مهما ومثيرا... ولا تنطق أبدا بكلمة لوم أو عتاب. ولكننى سأعوضها عن كل ذلك ذات يوم وأقسم اننى سأعرف كيف أثبت لها عرفانى بجميلها.

وقد خطر ببال جون عندئذ أن الكابتن شيرستون إذا كان يصر على أن يقوم بعمل يثبت به عرفانه بجميل زوجته فما عليه إلا أن يقلل من اختلافه إلى حانة انكوراندبل ولكنها أمسكت عن ان تقول له ذلك جهارا.

واستأذنته فى الانصراف وأخيرا مكررة له بأنها تفهم تماما إعجابه بليزلى وانه يسرها أنها رأتهما معا ثم ابتعدت عبر الحقول

ولكنها عندما همت باجتياز أحد السدود التفتت ورأت من بعيد الكابتن شيرستون واقفا أمام البار ينتظر إلى أن يفتح أبوابه.

وقالت لرودنى عند عودتها أن كل هذه الأشياء مجتمعة كانت أمرا محزنا جدا.

واهتم رودنى أكبر اهتمام وأجاب:- ولكننى فهمت من كلامك أنهما يبدوان سعيدين جدا.

- آه... نعم... اذا أردت.

وقالت رودنى أن ليزلى شيرستون، بعد إمعان التفكير عرفت كيف تستدرك الحالة بطريقة عجيبة. وقالت جوان:

- يقينا أنها أظهرت كفاءة كبيرة تصور أنها تنتظر مولودا آخر.

نهض رودنى فجأة ومضى فى بطء أمام النافذة ووقف أمامها موليا ظهره لها. ولحظت جوان أن هذا هو نفس ما فعلته ليزلى، ومرت دقائق ثم سألها:

- متى؟

- فى شهر أغسطس. وأرى أن هذا جنون مطبق.

- حقا؟

- لا تنسى يا حبيبتى أنهم يعيشون من عملهم. وسيزيد المولود موقفهم تعقيدا.

قال رودنى فى بطء: إن ليزلى غنية قادرة.

- ولكنها ستنهك قواها فى سبيل المزيد، ثم أنها تبدو مريضة.

- كانت تبدو مريضة عندما غادرت البلد.

- ولكنها تبدو اكبر من سنها الآن. وانه لجميل إن تقول ان شارل تغير تغييرا كليا بفضل المولود المنتظر.

- هل قالت ذلك؟

- نعم. أكدت لى أن هذا الامر أعاد إليه ثقته بنفسه تماما.

قال رودنى فى لهجة حالمة:- هذا جائز، فان شيرستون من هؤلاء الرجال الذين لا يعيشون إلا طبقا لاحترام الناس لهم. عندما تلا القاضى له نص الحكم انهار كالبلون الذى يفرقع، وكان منظره يثير الشفقة والرثاء والتقزز فى نفس الوقت. وأنا واثق أن الطريقة الوحيدة هى أن نعيد إليه بصورة ما احترام النفس، ولكن العملية كانت تبدو وفق طاقة البشر.

- ولو... ما زلت أصر على أن فما آخر عبء

قاطعها رودنى عند ذلك، فقد تحول عن النافذة وقد تغيرت سحنته لفرط الغضب بحيث أنها ريعت وقال:

- أنها زوجته. لم يكن لها الا أن تختار بين أمرين. أن تقطع صلتها به نهائيا وتمضى بالوالدين أو أن تستأنف حياتها الزوجية وأن تغدو زوجة حقيقية، وقد اختارت الحل الأخير وليزلى إذا عقدت العزم على شئ مضت فيه قدما.

نبهته جوان أن هذا ليس سببا لكى يحتد فأيدها على ذلك ولكنه أردف يقول بأنه متعب ومتقزز من هذه الدنيا الورعة التى توازن باستمرار بين الدليل وعكسه قبل أن تتورط والتى لا تجازف أبدا. وقالت جوان أنها ترجو أن لا يتكلم بمثل هذه الطريقة مع عملائه فى المكتب فكشر رودنى مبتسما وهو يطمئنا قائلا بأنه ينصحهم دائما بتسوية خلافاتهم فيما بينهم قبل اللجوء إلى المحاكم.

الجنـون

كـان من الطبـيعى من غيـر شك ان تحلم جـوان فـى الليلة التـاليـة بمس جيلب. رأتهـا تلبس قـبعـة عريضـة وتمشى بجـوارها فـى الصـحـراء وتقول فى حزم:

– كـان يجب أن تـأخـذى حـذرك من السـحـالى يا جـوان. أنك كنت ضعيفة فى التاريخ الطبيعى.

وأجابت جوان فى لهجة آلية:

– نعم يا مس جيلب

وأردفت مس جيلب تقول:– لا تتظاهرى بأنك لا تفهمين ما أقول يا جوان فانك تعرفين ما أعنيه تماما... النظام يا ابنتى.

صـحـت جوان من النوم ومـرت بها بضـع ثوان وهى تعتـقـد أنهـا مـا تزال فى مـدرسـة سـانت آن. والحق ان مـحطة التـرحـيل كـانت أشـبـه بالمدرسة بجدرانها العارية وأسرتها الحديدية وطابعها الصحى.

وتمتمت جوان قائلة:– أوه، كلا. أقضى هنا يوما آخر؟

لماذا رأت فى المنام مس جيلب تقول لها:

– النظام.. الواقع انه كانت هناك مناسبة لذلك، فأنها كانت حمقاء بالأمس إذا تملكها الخوف دون مبرر. كان لابد لها من تنظيم أفكارها وترتيب ذهنها طبقا لنظام معين لدراسة فكرة المكان الفسيح العريض دراسة وافية.

ولحسن الحظ كانت تشعر براحتها التامة الآن داخل المحطة، ولعل من الأرجح الآن أن تلبث بالداخل وأن لا تخرج.

ولكن قلبها وهن أمام هذا الاحتمال... أى قضاء طوال النهار حبيسة هذه العتمة ورائحة الدهن والزيت والفليت... طوال النهار وليس هناك ما تقرأه أو تفعله.

ماذا يفعل المساجين فى زنزاناتهم إذن... ولكن المسئولين يفرضون على هؤلاء ممارسة الرياضة لبضع ساعات ومزاولة أعمال خاصة كالسراجة ولا ذلك لأصابهم الجنون.

لان الحبس الانفرادى يمكن أن يولد الجنون ففى بعض الأحيان.

الحبس الانفرادى... أيام متتالية وأسابيع...

ولكن ماذا دهاها؟... هل تحسب أنها قضت فى مكانها هذا أسابيع.. الواقع أنها لا تفكر فى هذا الأمر... كم يوما مرت بها؟... آه. يومان فقط.

يومان... هذا أمر بعيد التصديق... ما هو بيت الشعر الذى نظمه عن الخيام فى هذا المعنى؟... (إنما أنا هو نفس... مع آلاف السنين الغابرة)... أو شيئا كهذا تقريبا... كيف تفسر أنها لا تستطيع أن تتذكر هذا البيت كما هو أصلا؟

ولكن حذار... أن مجهوداتها الذهنية لاستذكار الأشعار لم تأت بنتيجة مرضية، بل أتت بعكس ذلك... كان من المعروف أن الشعر له

تأثير مزعج، فهو يحدث انفعالا يؤثر على الذهن... ولكن حذار من الهذيان... أين كانت من أفكارها أذن؟.. كانت تقول إن الشئ الوحيد المؤكد هو أن تهتم بالمسائل المعنوية. ومهما يكن فأنها كانت دائمة الاهتمام بالمسائل المعنوية.

أنت باردة كالسمكة.

لماذا قطعت عبارة بلانش هذه حبل أفكارها؟ ما هذا الرأى المبتذل... ذلك الرأى الذى جاء فى غير محله والذى ينم عن بلانش حقا. ولكن لا ريب أنها تبدو هكذا حقا لأناس على شاكلة بلانش.. أناس يتملكهم الغضب بسهولة ويحتدون ويتركون العنان لعواطفهم... لم تكن تستطيع أن تحتد على بلانش حقا بسبب فجورها وخلاعتها، فهذه هى طبيعتها وأيام أن كانت لا تزال فتاة لم يكن من المستطاع أن يخمن المرء ذلك لأنها كانت تخفى طبعها هذا تحت ستار من الرقة والظرف.

باردة كالسمكة... كلا، ولكن... هذا خطأ تام.

كان من المؤسف أن بلانش نفسها لا تتمتع بشئ من برود الطبع.

كان يبدو أنها عاشت عيشة يرثى لها.

نعم. عيشة يرثى لها حقا.

ماذا قالت؟... يمكننا التأمل دائما فى خطايانا.

مسكينة بلانش. ولكنها أقرت بأن مثل هذا النوع من الذكريات لن يشغل جوان أبدا... فهمت تماما... بل فهمت كل الفهم ما يميز بينهما. بدت كأنها تفكر أن جوان لن تلبث أن تكل من إحصاء الفرص التى عرضت لها ولعل من الصحيح أن المرء يميل بسهولة إلى اعتبار فرصة بالذات كما لو كانت مستحقة. وماذا قالت بعد ذلك؟... أنها ذكرت

شيئا عجيبا.

آه، نعم أنها قالت إذا لم يكن أمام المرء إلا أن يفكر فى نفسه طوال أيام متتالية فاننى ما الذى يمكن أن يكتشفه فيما يتعلق بشخصه هو.

هذا رأى يستحق الدراسة... رأى يمكن أن يعطى مادة لتأملات مثيرة للاهتمام الشديد.

لقد قالت بلانش انها هى شخصيا لا تميل إلى الاندفاع فى مثل هذه التجربة.

وبدت وهى تنطق بذلك كان هذا الخاطر قد أفزعها تقريبا.

وفكرت جوان قائلة:- اننى أتساءل إذا كان من الممكن أن أكتشف أشياء فى داخلى ليس من عادتى الاستبطان طبعا، وأنا لست من النساء المنطويات على أنفسهن، وما أدرانى كيف يرانى الآخرون؟. لا أعنى النساء الغريبات عنى وإنما أعنى أهلى وعشيرتى. كيف يروننى؟

حاولت أن تتذكر نماذج من الآراء التى نطق بها البعض عنها.

لقد قالت بربارا عنها مثلا:- أوه يا أماه... انك تعرفين كيف تسوسين الخدم حقا... لديك دائما خدم ممتازون.

كان هذا، نوعا ما، اعترافا بقدرتها وقيمتها ودليلا على أن أولادها يقدرون مواهبها فى تدبير شئون البيت، وكان لهذا الإطراء ما يبرره فقد كانت سيدة بيت قديرة يخلص لها الخدم أو على الأقل يطيعونها طاعة عمياء، ولعلهم كانوا لا يظهرون عطفا كبيرا عليها عندما تشكو من مرض أو من صداع، ولكنها كانت لا تدفعهم إلى ذلك، وحاولت أن تتذكر ما عابته عليها طاهية ممتازة وهى تترك العمل، فقد قالت لها تلك الطاهية أنها لا تستطيع الاستمرار فى خدمتها مادامت لا تسمع كلمة واحدة... صفوة القول، كان كلامها لا معنى له أطلاقا.

- اننى أسمع دائما عبارات اللوم والتوبيخ عندما أسئ التصرف يا سيدتى، ولكننى لا أسمع أبدا كلمة تشجيع أو مديح عندما يسير كل شئ على ما يرام. أؤكد لك يا سيدتى أن هذا لا يشجعنى على القيام بما هو مطلوب منى على أكمل وجه.

وقد أجابتها جوان فى وقار:- انك تعرفين تماما اننى مسرورة منك، وإذا كنت لا انطق بكلمة فذلك لان عملك يرضينى تماما.

- هذا جائز يا سيدتى، ولكنه غير مشجع. ولكل منا عزة نفسه خاصة واننى بذلت جهدى فى الليلة الماضية فى عمل اليخنى على الطريقة الأسبانية لكى أرضيك، ولم يكن هذا بالعمل الهين لاننى لست من الذين يحبون اليخنى.

- لقد كان طبقا لذيذا.

- نعم يا سيدتى، وقد أدركت ذلك عندما عاد الطبق فارغا إلى المكتب، ولكنك لم تشجينى بكلمة واحدة.

قالت جوان فى فروغ صبر:- انك حساسة جدا، ولكننى ألحقتك بخدمتى لإعداد الطعام وأظن اننى أجزل لك العطاء.

- أوه... اننى لا أشكو من هذه الناحية يا سيدتى.

- يجب أن تفهمى إذن أننا راضون عنك. وإذا حدث ولم يرق لى شئ مما تفعلين فاننى أقول لك ذلك بكل بساطة.

- هذا صحيح يا سيدتى.

- ألا تقبلين اللوم؟

- لا أعنى هذا يا سيدتى. ولكننى أظن أنه لا طائل للجدل أكثر من ذلك. اننى سأترك العمل فى آخر هذا الشهر.

فكرت جوان:

- أن هذه الفتيات لا تستقر فى مكان، وحساسات متشددات، ومع ذلك فان رودنى كان يحظى دائما برضائهن لا لشئ إلا لأنه رجل لا يرفضن له أى طلب. والمدهش انه كان يبدو أنه يفهمهن دائما.

وقد أثار دهشة جوان ذات يوم وهو يقول لها:

- لا تعنفى أدنا كثيرا فان صديقها يخرج مع فتاة أخرى، وهى متأثرة جدا لذلك. التمسى لها عذرا إذا أوقعت ما بين يديها أو إذا نسيت أن تجفف طبقا أو إذا بدت شاردة.

- وكيف عرفت ذلك بحق الشيطان يا رودنى؟

- قالته لى هذا الصباح.

- يدهشنى أنها اعترفت لك أنت بذلك.

- ذلك اننى رأيت عينيها حمراوين كما لو كانت قد أسرفت فى البكاء فسألتها عما بها.

فكرت جوان أن رودنى رجل بالغ الطيبة والكرم، وقد قالت له ذلك ذات يوم وأردفت:

- كنت أظن أن كل ما تراه فى المكتب سيجعلك تتقزز من التعقيدات البشرية.

أجابها فى تفكير:- نعم، كان من الممكن أن يحدث هذا ولكن العكس هو الذى حدث. أعتقد أن المحامى الذى يقيم فى مدينة صغيرة ينتهى به الأمر إلى معرفة كل ثنايا النفس البشرية أفضل من أى شخص آخر... مثله فى ذلك مثل الطبيب، ويجعله بالتالى يمتلئ شنقه على البشرية لأن من السهل الأضرار بها، ثم أنها دائما عرضه للخوف

والشك والحسد ولكنها أحيانا، وعندما لا تتوقع ذلك تكون كريمة وطيبة. والعزاء الوحيد فى مهنتنا هذه هى أنها توسع أفق الشفقة.

أوشكت أن تقول: عزاء؟... ماذا تقصد؟ ولكنها من غير أن تدرى السبب أمسكت عن ذلك، فقد رأت أن ذلك أفضل، وأن من الخير أن تتجنب السؤال.

ولكن هذا لم يمنعها من أن تحس بالجزع بعضا من الوقت إزاء مقدرة رودنى فى التأثر وموهبته فى التعاطف والتصرفات التى عنهما.

وقصة العجوز هودسدون وقرضه دليل على ذلك بين غيره من الأدلة الأخرى، فقد عرفت جوان بأمر هذا القرض لاعن طريق رودنى نفسه ولكن من ثرثرة ابنة أخت هودسدون، وعادت إلى بيتها شديدة الحيرة.

هل يمكن أن يكون رودنى قد أقرضه من ماله الخاص؟

وقد ارتبك رودنى وأحمر لونه وهو يقول فى حدة:

- من قال لك هذا؟

وأخبرته كيف عرفت وأردفت:- أما كان يستطيع اقتراض ما يريد عن طريق البنوك؟

- ان الضمان الشخصى لا يكفى من الناحية العملية، ثم أن من العسير حاليا رهن الأرض.

- لماذا أقرضته أنت إذن بحق الشيطان؟

- أوه. أنه سيرد لى هذا القرض فهو مزارع بارع. ولكن قلة رأس المال وسوء المحصول فى الموسمين الماضيين أفلساه.

- ولكن معنى هذا أنه فى موقف سيئ وانه مضطر إلى الاقتراض.
صراحة لا أرى اننى أقدمت على استثمار طيب يا رودنى

وفجأة وبدون أن تدرى لماذا احتد رودنى.

فقد سألها أن كنت تدرى شيئا عن الظروف التى يعيش فيها مزارعو المنطقة، وهل تعرف مايلاقون من متاعب ومحن، والسياسة غير الحكيمة للحكومة؟ ثم راح يذكر لها المعلومات الضافية عن الموقف الزراعى العام فى انجلترا ووصف أخيرا فى سخط كبير مصائب هودسدون العجوز.

ان هذه المتاعب يمكن أن تقع لاى شخص حتى ولو كان من أمكر الماكرين أو أكثر المشتغلين جدا واجتهادا وكان يمكن أن تقع لى أنا نفسى لو أننى كنت فى نفس الموقف فسببها قلة رأس المال أولا وسوء الحظ ثانيا. ولكن مهما يكن من أمر فاسمحى لى أن أقول لك أن هذا لا يعنيك فى شئ يا جوان. اننى لا أتدخل فى الطريقة التى تديرين بها شئون البيت وشئون الأولاد. فلا تتدخلى فى الطريقة التى أدير بها شئون المكتب.

جرحتها هذه العبارة الطويلة جرحا مريرا لأن رودنى تكلم بلهجة غير عادية ولم يكونها أبدا على وشك الخصام كما كانا فى ذلك اليوم.

وكل هذا بسبب ذلك العجوز التافه هودسدون. لقد تعلق رودنى بذلك الكهل الحقير، وكان يذهب بعد ظهر كل يوم أحد إلى مزرعته ويمضى هناك بضع ساعات يعود بعدها مبهورا ولا حديث له بعد ذلك الا عن المحصول وأمراض الماشية وغير ذلك من المواضيع الخالية من كل سحر، وكان يمضى الى أبعد من هذا فيثقل على ضيوفه بمثل هذا النوع من الحديث.

وقد حضرت معه حفلة فى إحدى الحدائق ودهشت إذ رأت رودنى يجلس بجوار مسز شيرستون وقد راح يتكلم فى طلاقه بحيث أنها تساءلت عما عساه يقول لها. ودفعها الفضول إلى أن تلحق بهما لكى تعرف فيم يتكلم بكل هذا الحماس، ولماذا تبدو مسز شيرستون كما لو كانت تلتهم كلماته... حسنا، لم يكن يتكلم إلا عن البقرات الحلوب والضرورة التى يراها للدفاع عن نقاء السلالة فى المنطقة.

ولم تصدق جوان أن مثل هذا الحديث يمكن أن يستهوى مسز شيرستون على الرغم من أنها كانت تنظر فى اهتمام إلى وجه رودنى المتحمس المضطرم وتصغى إلى أمور لأتفقه فيها شيئا.

ودنت جوان منها وقالت فى هدوء:- لا يجب أن تفرض مثل هذا الحديث الممل على مسز شيرستون المسكينة (فقد دار هذا الحديث بعد قليل من اقامة آل شيرستون فى كرايمنستر ولم تكن الصلة قد توطدت بيت الأسرتين بعد).

وتغيرت سحنة رودنى على الفور واعتذر لمحدثته، ولكن هذه الأخيرة أسرعت تقول:

- انت مخطئة يا مسز سكودامور. أن مستر سكودامور كان يروى لى أشياء مثيرة.

وتألقت عيناها وهى تتكلم بحيث قالت جوان تحدث نفسها:- إن هذه المرأة ذات طابع نارى.

وفى هذه اللحظة جاءت ميرنا راندولف وهى تلهث وقالت تخاطب رودنى.

- رودنى، حبيبى... يجب أن تأتى لكى تلعب هذا الشوط معى. اننى انتظرك.

وبسطت ذراعيها بهذه الفتنة القهرية التى تستطيع كل فتاة جميلة أن تمارسها وحملته على النهوض عنوة وهى تبتسم وجذبته إلى ملعب التنس من غير حتى أن تطلب رأيه.

ومشت بجواره تتأبط ذراعه فى غير كلفة رافعة رأسها لكى تنظر إلى حدقتى عينيه.

وفكرت جوان وقد تملكها الغضب:- اننى لست غيورة، ولكن الرجال لا يحبون الفتيات اللاتى تترامين عند أقدامهن هكذا.

وخفق قلبها بشدة وهى تتساءل إذا لم يكن هذا النوع من الفتيات يروق للرجال.

وعندما رفعت عينيها رأت ليزلى شيرستون تنظر إليها فى شئ من الرثاء. وكان هذا هو الوقاحة بعينيها. إذا لم يكن أسوأ.

تحركت جوان فى انفعال فى فراشها الضيق. كيف بدأت تفكر فى ميرنا راندولف من جديد بحق الشيطان؟ آه، نعم. لا ريب أنها فكرت فيها وهى تحاول أن تعرف التأثير الذى تحدثه فى الغير. كانت تعتقد أن ميرنا تمقتها، وكان يجب أن تتوقع ذلك من ناحية ميرنا لأنها من ذلك النوع من الفتيات اللاتى تفسد علاقة كل زوجين إذا ما سنحت لهن الفرصة... ولكن لم يكن هناك فائدة حقا فى أن تحتد وأن تزعج نفسها بهذا الموضوع فى الظروف الحالية.

وغادرت فراشها أخيرا ومضت فتناولت طعام الإفطار ثم استفسرت عن القطار ولكن لم يكن هناك أى نبأ عنه، وعندئذ ألقت نفسها أمام الحقيقة المجردة... وهى قضاء يوم آخر طويل.

ولكنها ستنظم هذا اليوم بكل دقة... ان ضجرها مبعثه حتى الآن أنها تحاول قتل الوقت. وهذه سذاجة كبيرة منها، فأنها بذلك بقيت

تلك المسافرة التى تنتظر قدوم قطار فى فروغ صبر، ومن الطبيعى أن مثل هذا الموقف يولد حالة من التوتر والانهيار.

ولكنها حاولت أن تعتبر هذا الانتظام الاضطرارى نوعا من العلاج للاستجمام والراحة و... النظام... كذلك العلاج الذى يدعوه الكاثوليكيون اعتكافا ويخرجون منه وقد تحصنوا روحيا.

لا ريب أنها أطلقت لنفسها العنان كثيرا فى الأيام الأخيرة، فقد كانت حياتها رغدة جدا بعيدة عن المتاعب والمشاكل المألوفة.

وخيل لها أن شبح مس جيلب يقف بجوارها. وانها تقول لها بصوتها الخافت المعهود: النظام.

ولكنها رأت أن مس جيلب كانت قد وجهت هذه النصيحة إلى بلانش وأنها قالت لها هى جوان، لا تفخرى بنفسك أكثر مما يجب يا جوان.

وكان هذا شيئا خبيثا منها لأن جوان لم يتملكها الفخر أو الزهو أبدا... لم تكن بها أية ذرة من الغرور.

- فكرى فى نفسك يا ابنتى العزيزة... ولا تشبعى رغباتك...

وقد علمت بهذه النصيحة وعاشت وهى تفكر فى الغير. لم تفطر فى نفسها أبدا إذا جاز هذا القول وإذا كانت قد فعلت فبدون أن تضر بأى أحد. لم تكن تعرف الأنانية، وقد ضحت بنفسها دائما فى سبيل الأولاد وفى سبيل رودنى.

ومع ذلك فان أفريل...

لماذا تفكر فى أفريل هكذا فجأة...؟

لماذا ترى بكل هذا الوضوح وجه ابنتها الكبرى... هذا الوجه ذى

الابتسامة المهذبة المستعلية شيئا ما.

ان أفريل لم تنصفها تماما أبدا بدون شك.

كانت تنطق أحيانا ببعض هذه الملاحظات... وهى ملاحظات على الأقل ساخرة وبغيضة فى الواقع.

ليستن ملاحظات مهينة تماما ولكن...

ولكن ماذا بالتحديد؟...

هذه الهيئة الساخرة التى تتخذها بتقويس حاجبيها... وهذه الطريقة الحلوة الظريفة التى تنسحب بها...

أن أفريل بكل تأكيد... كل أولادها يحبونها.

أكان هذا مؤكدا؟... هل يشعر أولادها بالمحبة نحوها... هل يشعرون نحوها ولو بقليل من الحنان.

قفزت جوان من مقعدها ثم تهالكت ثانية خائرة القوى.

من أين تأتيها هذه التصورات؟ ولماذا تلح عليها؟.... أنها تصورات بغيضة فظيعة.. يجب أن تطردها من ذهنها وأن تقصيها عنها بكل ثمن ولكن قول مس جيلب عادا إلى ذهنها:

- دعى الأفكار السطحية يا جوان ولا تتقبلى الأمور كما تبدو لك من أول وهلة بحجة أن ذلك أسهل طريقة وانه يجنبك الألم.

هل تريد أن تبعد هذه الوساوس لأنها تريد أن تتجنب الألم؟...

لأنها وساوس مؤلمة بكل تأكيد.

أفريل...

هل تحبها افريل؟... حسنا... لندرس هذه المسألة جديا أذن... هل

تحب أمها؟

يجب الاعتراف بأن افريل فتاة غريبة الأطوار باردة الطباع.

كلا. لعلها ليست باردة الطباع، ولكن الواقع أنها كانت هى وحدها، ومن الأولاد الثلاثة التى تسببت فى انفعال أبويها كل الانفعال.

فقد فضت جوان أحدى الرسائل من غير أن تشك فى فحواها. كان العنوان مكتوبا بخط غير جميل، وتوقعت أن تكون الرسالة من أحدى الفتيات اللاتى تشملهن بعنايتها وقرأت دون أن تفهم:-

يجب أن تعلمى أن ابنتك الكبرى تساير طبيب المستشفى. أنهما يتبادلان القبلات فى الغابة وهذا عار كبير وقد حان الوقت لإنهاء هذه الفضيحة.

نظرت جوان بعينين متسعتين إلى الرسالة التى فى يدها والتى جعلتها تشعر بالتقزز.

ما هذه الفظاعة وما هذه الفضيحة؟

كانت تعرف قيمة الخطاب الغفل عن التوقيع، ومع ذلك فقد جعلها هذا الخطاب تشعر بالمرض والغثيان.

ابنتك الكبرى... افريل؟... هى دونا عن غيرها.. أنها تساير طبيب المستشفى ما هذا التعبير البذئ... الدكتور كارجيل، هذا الطبيب الشهير الذى اشتهر بطريقته فى علاج السل... رجل اكبر منها بعشرين سنة... رجل أصيبت زوجته بالشلل وأصبحت عاجزة.

ما هذه الحماقة؟... ما هذه الدعابة البغيضة؟

وفى هذه اللحظة بالذات دخلت أفريل نفسها وقالت فى فضول خفيف لأنه لم يكن هناك ما يزعجها:

- هل هناك ما يضايقك يا أماه؟

وبدون أن تلفت أصابعها المرتجفة الخطاب وجدت جوان من نفسها القوة لكى تقول:

- لا أظن انه يجب أن أحـــدثك عن ذلك يا أفـــريل... انه شئ بغيض... بغيض جدا.

- أهذا الخطاب هو الذى يضايقك؟

- نعم.

- هل يتعلق بى؟

- لا أريد أن أطلعك على ما به.

ولكن أفـريل دنت منهـا وانتـزعت الخطـاب من يدهـا بكل هدوء، وقرأته وبقيت لحظة جامدة ثم أعادته إليها وهى تقول فى صوت رزين:

- نعم... ليس هذا جميلا.

- ليس جميلا؟... انه كريه... كريه جدا... يجب أن يجازى القانون أولئك الذين يوجهون مثل هذه الأكاذيب.

وأردفت افريل من غير أن تتحول عن هدوئها:- انه خطاب سخيف ولكن ما به ليس كذبا.

دارت الدنيا حول جوان وأخذها الدوار وتأوهت وهى تكاد تختنق:

- ماذا تعنين؟... ماذا يجب أن أفهم؟

- لا داعى لكل هذا الانفـعـال يا أمـاه. يؤسـفنى انك عـرفت الأمـر بهذه الطريقة ولكن كان لا بد أن تعرفيه يوما ما.

- هل تقصدين أن ما جاء بهذا الخطاب صحيح وان بينك وبين الدكتور كارجيل؟...

أجابت أفريل وهى تهز رأسها فى بساطة:- نعم.

- ولكن هذا أمر معيب... هذا عار... رجل فى مثل سنه... ومتزوج... وفتاة مثلك؟

قالت أفريل فى برود:- أرجوك يا أماه... لا تثيرى مأساة لا داعى لها.. انه خبر عادى لا علاقة له بأى شئ آخر... وقد حدث الأمر شيئا فشيئا. ان زوجة روبيرت عاجزة منذ سنوات طويلة وقد نشأت بيننا مودة كبيرة... أعنى بينى وبينه... وهذا كل شئ.

- هذا كل شئ؟... ان أمرك غريب.

كادت جوان تختنق وهى تنطق بعبارات اللوم والتعنيف. وأفرغت كل ما فى جعبتها ولكن أفريل لم تزد عن أن هزت كتفيها وقالت:

- اننى أسلم بوجهة نظرك تماما يا أماه، ولو كنت مكانك لفعلت نفس ما فعلت أنت الآن وان كنت إلا أنطق بكل هذا اللوم. ولكنك لن تمنعى شيئا... هذا أمر واقع فأنا وروبيرت متحابان، وعلى الرغم من أننى أعتذر لاننى تسببت لك فى كل هذا الكدر إلا اننى أقول لك بكل أخلاص انك لن تغيرى من الأمر شيئا.

- لن أغير شيئا... سأتحدث فى ذلك مع أبيك... الليلة بالذات.

- مسكين أبى... هل تظنين حقا انه لابد من إزعاجه بهذا الأمر؟

- أنى واثقة انه سيجد طريقة لعلاج هذا الموقف.

- أؤكد لك انه لن يستطيع شيئا، ولكن يكون من جراء ذلك إلا إثارة ضيقه.

وكانت هذه البجحاحه بداية فترة عاصفة جدا.

فان افريل، عقدة المأساة احتفظت بهدوئها، ورباطة جأشها وظلت على عنادها وصلابتها.

ولم تكف جوان عن مخاطبة زوجها قائلة:- لن أصدق أبدا انها مغرمة به بأى حال من الأحوال.

ولكن رودنى هز رأسه وقال:- انك لا تفهمين افريل. أنها تنفعل باحساساتها ومشاعرها أكثر من انفعالها بقلبها وعندما تحب فان حبها يكون عميقا بحيث اننى أشك فى أن أراها تعدل عنه.

- أوه يا رودنى... اننى واثقة تماما انك مخطئ. ومهما يكن فاننى أعرف أفريل أكثر منك فأنا أمها... لا تنس ذلك.

- ليس معنى هذا أنك تفهمينها أقل الفهم. ان أفريل خففت دائما الجوانب البارزة من طباعها بدافع الذوق... أو الحرى بدافع الضرورة... ويمكنك أن تصدقينى... اننى لست مخطئا أبدا.

- لا يسعنى إلا أن أفكر أنك تبالغ فان الأمر لا يزيد عن مغازلة لفتاة حديثة التخرج من المدرسة الداخلية... ان هذا يرضى غرورها ويروق لها أن تتصور...

قاطعها رودنى قائلا:- أى عزيزتى جوان... لا تحاولى أن تطمئنى نفسك بأن تتطقى بأشياء أنت نفسك لا تصدقينها... أن حب افريل للدكتور كارجيل حب جدى.

- حسنا... هذا أمر شائن منه... شائن تماما.

- نعم. سيكون هذا هو الرأى العام. ولكن ضعى نفسك مكان هذا الرجل المسكين يا جوان... امرأة عاجزة والحرمان وكرم قلب افريل

الشاب تحت يدم... كل الشوق وكل طراوة روح فتاة فى مقتبل العمر.

– انه أكبر من افريل بعشرين سنة.

– اننى اعرف... اعرف... لو انه يقل عما هو الان بعشر سنوات لما كان الاغراء بمثل هذه القوة.

– لا يمكن إلا أن يكون رجلا قذرا.

تنهد رودنى وقال:– هدئى من روعك يا جوان. انه رجل عادى رقيق القلب... رجل يتقد حماسا كان فوق ذلك شديد العناية بامرأة عاجزة.

– لعلك تريد أن تخلق منه قديسا.

– أبدا. ولكن أغلب القديسين أحبوا أشد الحب هم أيضا يا جوان، فان القديسين والقديسات بشر من لحم ودم... كلا، ان كارجيل رجل عادى يحب ويتألم كغيره من البشر... رجل عادى يحاول الإضرار بنفسه بتحطيم مستقبله، وهذا يتوقف على...

– على ماذا؟...

أجاب رودنى فى بطء:– على أبنتنا على مدى شجاعتها و... ووضوح ذهنها.

قالت جوان فى صلابة:– لنبعدها من هنا. ما رأيك فى أن نحملها على القيام برحلة.. إلى بلاد الشمال... أو إلى جزر اليونان أو أى مكان آخر.

ابتسم رودنى وقال:

– هل تفكرين فى هذا العلاج الذى طبق على صديقتك بالنش... بلانش هاجارد... انه لم يأت بالنتيجة المرجوة مع ذلك.

– هل تخشى أن تتجرأ على الهبوط فى ميناء أجنبى وأن تعود إلى

البيت مباشرة؟

- بل أخشى على الخصوص أن ترفض القيام بأيه رحلة.

- ما هذا الهراء؟... سنعرف كيف نقنعها.

- عـزيزتى جـوان. حـاولى أن تواجـهى الحـقـيـقـة... لا يمـكنك أن ترغمى شخصـا راشدا بالقـوة. لا يمكنك أن تحبسى افريل فى غـرفتها ولا تجـبريهـا على مـغادرة كرايمنسـتر. ثم أننى آبى ذلك، فان مـثل هـذه الحلول ليست إلا مسكنة ومؤقتة.

لا يمكن أن تتأثر إلا بما تحترمه.

- أى؟

- الواقع... الحقيقة.

- لماذا لا نـذهب لمقـابلة كـارجـيل. ويمـكنك أن تهـدأ وان تصـف له الفضيحة.

- ذلك اننى أخشى جدا أن أعجل بالحوادث.

- ماذا تعنى؟

- ان يركب كارجيل رأسه ويهربا معا.

- لا يحطم مستقبله نهائيا إذا هو فعل ذلك؟

- بدون شـك. لا أظن أن الهـرب يمكن أن يلام عليـه مـن الناحـيـة المهنيه لكنه سيؤلب عليه الرأى العام نظرا لحالته الخاصة.

- إذا استمع إلى صوت العقل أذن...

قـال رودنى فى فـروغ صبـر:- انه لا يتـمـتـع بكامل قـواه العـقلية فى هذا الوقت بالذات... ألا تفهمين شيئا فى الحب يا جوان.

وكان هذا سؤالا سخيفا، وأجابت فى مرارة:- ليس هذا النوع من الحب... وانني أهنئ نفسي على ذلك.

وما كانت أشد دهشتها عندئذ فقد ابتسم رودنى وقال لها فى رقة كبيرة: مسكينة أنت يا جوان.

ثم قبلها وانصرف فى هدوء.

وفكرت فى نفسها فقالت انه رجل بالغ الطيبة وانه لاشك يدرك أن هذه القصة تؤلمها كثيرا. وقد تملكها جزع كبير حقا لان افريل لزمت الصمت ولم تبادل أحدا الحديث، وأحيانا كانت لا ترد على أمها عندما تخاطبها وقالت جوان:

- انني أبذل جهدى، ولكن كيف أزجر فتاة لا تصغى حتى إلى.

وكانت افريل تقول فى لهجة مهذبة جدا وهى شاحبة اللون مكدودة:

- ولكن هل من الضرورى أن نتحدث فى هذا الأمر إلى مالا نهاية يا أماه؟ انني أسلم بحججك تماما ولكن، ألا تعترفين بالأمر الواقع ابدا؟... انك مهما قلت أو فعلت لن تغيرى شيئا على الإطلاق.

وظل الجو على هذا التوتر حتى أحد أيام شهر سبتمبر عندما قالت أفريل وقد ازداد امتقاع لونها:

- أظن أن من الواجب أن أخبركم اننا أصبحنا أنا وروبيرت، لا نجد الجرأة على البقاء هنا. سنغادر المدينة معا، وأرجو أن توافق زوجته على الطلاق، ولكن إذا رفضت فلن نبالى.

- وانطلقت جوان فى احتجاج شديد ولكن رودنى أمرها بالسكوت قائلا:

- دعينى أنصرف يا جوان... أريد أن أتبادل معك كلمتين يا افريل... تعالى إلى مكتبى.

ابتسمت افريل ابتسامة شاحبة وقالت:- عند القاضى الأعلى، أليس كذلك يا أبت؟

صاحت جوان:- اننى أم افريل ولابد...

- أرجوك يا جوان... أريد أن أتحدث مع ابنتك على انفراد، فتكرمى ودعينا وحدنا.

دهشت جوان أشد الدهشة إزاء لهجة زوجها الهادئة وخطت خطوة لكى تخرج ولكن صوت افريل الواضح جعلها تقف فقد خاطبتها قائلة:

- لا تخرجى يا أماه... أريد ان تبقى معنا. أريدك أن تسمعى ما سوف يقوله أبى.

حسنا. كان هذا أكبر دليل على أن لجوان اعتبارها كأم.

وقفت افريل وأبوها يتراشقان النظر فى عداء صامت وكل منهما يزن الآخر كغريمين على وشك اللقاء، ثم ابتسم رودنى نصف ابتسامة وقال:

- أرى انك خائفة جدا.

قالت افريل فى لهجة هادئة تشوبها الدهشة قليلا: لا أفهم ماذا تعنى يا أبى.

صاح رودنى فجأة:- ليتك كنت رجلا يا افريل... انك تتمتعين ببراعة عمك هنرى ودهائه. انه كان يعرف جيدا كيف يخفى نقطة الضعف التى تتسم بها حالته لكى يكشف نقطة ضعف غريمه.

أصرعت أفريل ترد قائلة:- ليست بحالتى أية نقطة ضعف.

أجاب رودنى فى حزم: سأثبت لك أنك مخطئة.

وصاحت جوان عندئذ: لا يمكن أن تقدمى على مثل هذا التصرف الجنونى الفاضح يا أفريل. لا يمكن أن نوافق، لا أنا ولا أبوك، على هذا.

ابتسمت افريل فى هدوء: وحولت عينيها إلى أبيها كما لو كانت تعرض عليه احتجاج جوان. وقال رودنى:

- أرجوك يا جوان... دعينى أتولى أنا هذا الأمر.

وقالت افريل:- من رأيى أن من حق أمى أن تدلى بما تريد.

قالت جوان:- أشكرك يا افريل. سأتحدث معك اذن بكل صراحة. انك ابنتى وأريد أن أبصرك وأن أقول لك أن رأيك هذا لا يمكن الأخذ به. انك صغيرة السن وخيالية ترين الحياة تحت يوم كاذب. وما ستقدمين عليه الآن مندفعة إليه بعواطفك ستندمين عليه ذات يوم. ثم فكرى فى الأسى الذى ستتسببين لنا فيه. هل فكرت فى ذلك؟ أننى واثقة انك لن ترضى ان تكدرينا وقد أحطناك دائما بكل العطف والحنان.

أصغت أفريل إلى أمها صاغرة ومن غير أن ترد ومن غير أن تحول عينيها عن أبيها.

وعندما فرغت جوان كانت أفريل لا تزال تنظر الى أبيها. وارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة وقالت:

- حسنا يا أبت... وما قولك أنت؟

أجاب:- لا شئ. ولكننى أريد أن أسألك سؤالا.

نظرت افريل إليه متسائلة فقال:- هل تفهمين تماما معنى الزواج؟

اتسعت عينا افريل ولزمت الصمت لحظة قبل أن تقول أظنك ستقولى لى أنه رباط مقدس.

أجاب رودنى:- كلا. ولكن هكذا أراه. أو بتعبير آخر أريد أن أقول أن الزواج عبارة عن اتفاق.

قالت افريل فى شئ من الدهشة:- أوه.

وعاد رودنى يقول:

- ان الزواج عبارة عن اتفاق بين شخصين راشدين مالكين لقواهما العقلية ومدركين تمام الإدراك لكل ما يتعرضان له. انه الاتفاق الذى يجعل من الرباط المقدس أمرا رسميا ويتعهد الطرفان علنا باحترام شروطه. أى يتعهد كل منهما أن يساند الآخر فى جميع الظروف، فى السراء وفى الضراء. وتسجل هذه الشروط فى الكنيسة ويباركها أحد القساوسة، وبذلك لا يقل شأنا عن أى عقد يبرم بين شخصين بكل صدق وإخلاص. وبعض هذه الشروط المقبولة لا تدخل فى نطاق المحاكم ولكنها مع ذلك تزيد الروابط بين الشخصين اللذين قبلاها. وأظن انك لا تشكين أطلاقا فى صحة قولى هذا.

ترددت افريل لحظة ثم قالت:

- كل هذا كان يمكن أن يكون صحيحا فيما سبق. ولكن الناس ينظرون اليوم الى الزواج نظرة أخرى. فهناك أشخاص كثيرون لا يتزوجون عن طريق الكنيسة ولا ينطقون بالطقوس الدينية.

- ربما. ولكن منذ ثمانية عشر عاما تعهد روبيرت كارجيل بنفسه وهو ينطق بالطقوس الدينية أن يظل مخلصا ووفيا لزوجته وأتحداك أن تقولى لى أنه لم ينطق بها وقتئذ بكل إخلاص وانه لم يكن فى نيته عندئذ الوفاء بكلمته.

واستطرد رودنى: هل تعنين أن روبيرت كارجيل قد وقع وقتئذ على اتفاق بينه وبين تلك التى هى زوجته لا يدخل فى اختصاص القضاء؟.. انه واجه فى ذلك اليوم كل احتمالات الدمار والمرض وغير ذلك وأعلن صراحة بأنها لن تؤثر أبدا على استمرار علاقتهما الزوجية.

امتقع لون افريل وتمتمت:

– لا أفهم ما الذى تقصده بقولك هذا يا أبى.

– أريد أن أسمعك تقولين أنه بغض النظر عن العاطفة والذاتية فان الزواج اتفاق كذلك الذى يرتبط به رجل الأعمال. هل توافقين على هذا أم لا؟

– أوافقك.

– ويستعد روبيرت كارجيل لفسخ هذا الاتفاق، وأنت متواطئة معه على ذلك؟

– نعم.

– وذلك دون مراعاة لحقوق وامتيازات الطرف الثانى الشرعية.

– أنها لن تضار. لو أنها تحب روبيرت لاختلف الأمر ولكنها لا تهتم إلا بنفسها ومرضها.

قاطعها رودنى على الفور:– لا أطالبك بأية تأويلات خاصة يا افريل. أريد أقرارا منك بالأمر الواقع فحسب.

– ليست هذه تأويلات خاصة.

– بل هى كذلك. لا يمكن أن تتأكدى من مشاعر وأفكار مسز كارجيل. انك تزيفينها لكى تتوافق معك. كل ما أطلبه منك هو أن تعترفى بأن لها حقوقا.

رفعت افريل رأسها وقالت:- حسنا ... أن لها حقوقا.

- ترين إذن بكل وضوح وجلاء ما أنت مقدمة عليه؟

- هذا كل ما لديك يا أبى؟

- كلا. ما زالت هناك نقطة أريد أن أوضحها لك. انك تعرفين طبعا أن كارجيل يقوم بدور هام فى مجال الصحة وأن طريقة علاجه للسل قد لقيت نجاحا كبيرا بحيث أصبح معروفا فى الأوساط الطبية. ومن ناحية أخرى تعرفين لسوء الحظ أن حياة الرجل الخاصة يمكن أن تؤثر على مستقبله وتضر بمصالحه. وبمعنى آخر تعرفين أن مهنة كارجيل والخدمات التى يؤديها للإنسانية ستتعرض للخطر وتصبح أثرا بعد عين بما تنويان الإقدام عليه أنتما معا.

قالت أفريل:- أتأمل أن تقنعنى ان من واجبى أن أعدل عن روبيرت لكى يتمكن من الاستمرار فى خدمة البشرية؟

كان فى صوت أفريل ظل من السخرية. وقال رودنى:- كلا اننى أفكر فى كارجيل المسكين.

وأردف يقول فى تأثر:- يمكنك أن تركنى إلى يا افريل. أن الرجل الذى لا يمارس نشاطه فى المهنة التى يحبها والتى تتفق مع ميوله لرجل تعيس مسكين وأنا نفسى أؤكد لك ذلك وأقول لك انك إذا حولت روبيرت كارجيل عن مهنته ومنعته عن ممارسة عمله فسيأتى اليوم الذى تشعرين فيه بخيبة الأمل والذى ترين فيه الرجل الذى تحبينه رجلا بائسا محروما شاخ قبل الأوان، متعبا بائسا لا رغبة له فى الحياة واذا كنت تتصورين أن حبك أو حب امرأة أخرى يمكن أن يواسيه فاننى أقول لك أذن بصراحة انك غبية حمقاء تعيشين فى عالم الخيال.

وسكت وقد اضطجع فى مقعده الى الخلف ومر باحدى يديه على

رأسه. وغمغمت افريل:-

- انك تقول لى هذا ولكن أنى لى أن أعرف... وأمسكت فجأة ثم عادت تقول:- كيف أعرف...

- إذا كانت هذه هى الحقيقة؟... كل ما أستطيع أن أقوله لك هو اننى مقتنع بما أقول وان هذا الاقتناع نتيجة تجربة خاصة. اننى أكلمك يا افريل بصفتى رجل وأب فى نفس الوقت.

قالت أفريل:- نعم. اننى أرى.

واختتم رودنى حديثه قائلا:- لك وحدك يا افريل أن تدرسى ما قلت لك وأن تقبليه أو أن تصرفى النظر عنه، وأظن أن لديك ما يكفى من الشجاعة والفطنة...

كانت أفريل قد اقتربت من الباب فى بطء ووضعت يدها على الأكرة فوقفت وأشاحت برأسها ودهشت جوان للهجة المريرة الحاقدة التى تكلمت بها أفريل قائلة:

- لا تنتظر أن أشعر نحوك بعد اليوم بأى امتنان يا أبى... اننى... اننى أمقتك.

وخرجت صافقة الباب خلفها. وأتت جوان بحركة لكى تسرع خلفها ولكن رودنى استوقفها بإشارة من يده قائلا:

- دعيها وحدها... دعيها تفكر وتتروى... إلا تفهمين؟... اننا ربحنا المعركة.



أفــريــل

كان هذا المشهد مع إمعان التفكير
ختام القصة.

فمنذ ذلك الوقت لزمت أفريل الصمت لا ترد إلا بكلمة أو كلمتين عندما يوجه إليها أحد الحديث، ولا تفتح فمها إلا عندما لا يسعها إن تفعل غير ذلك.

وبعد شهر واحد أبدت رغبتها فى الانتقال الى لندن لدراسة أعمال السكرتارية.

ووافق رودنى على رغبتها على الفور. وفارقتهما افريل دون أن تبدى أى حزن ساعة الفراق.

وعندما عادت لقضاء الأجازة، بعد ثلاثة شهور، كانت قد استعادت طبيعتها المألوفة وبدا عليها أنها استفادت من الإقامة فى لندن.

وقد أحست جوان بالارتياح إزاء ذلك وعبرت عن سرورها لرودنى قائلة: يبدو أن أفريل نسيت هذه القصة تماما. كنت أعلم أن الأمر غير جدى وان هذا الحب لم يكن أكثر من نزوة شباب.

نظر رودنى إليها وهو يبتسم:- مسكينة أنت يا جوان!

قالت وقد حيرتها كلماته:- ينبغى أن تعلم أننى كنت شديدة الجزع عندما كانت هذه الفكرة تسيطر عليها.

أجاب رودنى: نعم. ولكن لم تكونى أنت الضحية يا جوان.

- كيف يمكن أن تقول هذا؟ أن كل ما يصيب الأولاد يصيبنى أنا أكثر منهم.

قال رودنى:- حقا... اننى فى عجب من ذلك.

تذكرت جوان أن أفريل وأباها كانا يبدوان دائما باردين فى الواقع، وانهما على الرغم من أنهما كانا يتبادلان الثقة فى العادة لم يتبادلا بعد ذلك أكثر من كلمات المجاملات فى المناسبات وعلى العكس من ذلك كانت افريل محبة لامها ودودة على طريقتها الباردة والمتحفظة.

قالت جوان:

- أظن أنها أصبحت تقدرنى أكثر منذ أن أقامت بعيدا عنا.

وكانت هى نفسها تغتبط كثيرا بقدوم أفريل وأقامتها ببيت العائلة من وقت لآخر، فان حسن إدراك الفتاة كان يبدو أنه يهون من حياة الأسرة.

لاسيما وان بربارا غدت صعبة المراس وهى تشب وتكبر.

وقد بدأ الأسى يستولى على جوان بصورة جدية بسبب صداقات ابنتها الصغرى، فلم تكن هذه الأخيرة تحسن التصرف أو التقدير. كانت هناك فتيات ظريفات كثيرات بكرايمنستر ولكن بربارا كانت ترفض مصادقتهن والارتباط بهن.

- أنهن تافهات جدا يا أماه.

- أنت مخطئة يا بربارا. اننى واثقة أن مارى واليزون فتاتان ظريفتان جدا ومرحتان جدا.

- أن كلا منهما تضع شبكة على رأسها.

نظرت جوان اليها مشدوهة وقالت:- هل جننت؟ وما دخل هذا بهما؟

– ان الشبكة رمز يدل عليها.

– مـا هذا الجنون الذى تنطقين به يا عـزيزتى؟.. وبامـيـلا؟... إن أمها كانت من أعز صديقاتى، فلماذا لا تزورينها كثيرا؟

– أوه يا أماه. أنها تثير ضجرى كثيرا. أؤكد لك أنها لا تروق لى أبدا.

– ولكننى أعتقد أنهن فتيات طيبات جدا. •

– نعم. ومضجرات جدا، ما شأنى أنا إذا كن يرقن لك.

– أنت غير مهذبة يا بربارا.

– ليس لك أن تشغلى نفسك بشـأن صديقـاتى، فهذا أمـر يرجع الى ذوقى الخاص. اننى أحب بيتى ايرل وبريمروز دين، وإذا كانتا لا تروقان لك فلماذا تدورين حولنا دائما عندما تأتيان لتناول الشاى.

– الحق يا عـزيزتى انى أخشى عليك من مـخالطتهـما فـان أبا بيتى سائق سيارات نقل ومبتذل جدا فى حديثه.

– ولكنه يربح كثيرا من المال.

– ليس المال كل شئ يا بربارا.

– أخيرا يا أماه. هل لى الحق فى ان اختار صديقاتى... نعم أم لا؟

– طبعا يا بربارا، ولكن يجب أن أرشدك فانك مازلت صغيرة جدا.

– بل أولى بك أن تقـولى اننى لست حـرة. أننى سئمت حيـاتى هذه التى لا أستطيع أن أفعل فيها ما يروقنى... لكأننى فى سجن.

ودخل رودنى فى هذه اللحظة وقال:– لكأنك فى سجن؟... أين؟

صاحت بربارا:– هنا!.

– يا للجارية الصغيرة المسكينة!

- نعم. اننى كذلك حقا.

- هذا أفضل، فان العبودية أمر رائع للفتيات الصغيرات.

ارتمت بربارا عندئذ على عنق أبيها وقالت فى صوت متقطع:- أبت العزيز... ما أجملك فى مشاكستك... لا يمكن أن نغضب منك.

وعبرت جوان عن استيائها قائلة:- أظن أن...

ولكن رودنى لم يكف عن الضحك بصوت عال، وعندما تركتها بربارا قال:

- لا تأخذى نزواتها بمثل هذه الخطوة يا جوان. ان الآنسات الصغيرات يحتجن الى الاندفاع فى بعض الأحيان.

- ولكن صديقاتها لسن من النوع الطيب.

- أنها تمر بفترة تميل فيها الفتيات الى اثارة المشاكل والفضائح. وسوف تمر هذه الفترة فلا تزعجى نفسك يا جوان.

كان من السهل أن يقول لانزعجى نفسك يا جوان... ماذا كانوا يغدون كلهم لو أنها لم تزعج نفسها من أجلهم؟ ان رودنى مفرط فى التسامح ولا يستطيع أن يدرك مدى انشغال الأم...

ومع ذلك فانها كانت تشعر بالقلق حين ترى بربارا تسيئ اختيار صديقاتها، ولم يكن هذا بشئ بالمقارنة الى قلقها بخصوص الفتيان الذين يروقون لابنتها الصغرى.

مثال ذلك... جورج هارمون... والشاب ويلمور الذى كانوا يقولون عنه الكثير... فضلا عن انه يعمل بمكتب المحاماة الذى ينافس مكتب أبيها والذى يقبل كل العملاء الذين تحيط بهم الريب والظنون... ولكنه كان شابا وسيما جذابا تتعلق به الفتيات اختفت بربارا معه من القاعة

الكبيرة أثناء تلك الحفلة الخيرية التى أقيمت فى عيد الميلاد... وعزفت فرقة الاوركسترا خمس مقطوعات قبل أن يظهر ثانية، وقد نظرت بربارا وهى تشعر بشعور الذنب، ولكن فى قحة، الى المكان الذى تجلس جوان فيه.

ويبدو أنهما قضيا كل هذه المدة فوق سطح البيت، وهو عمل جرئ لا تقدم عليه الا الفتيات المتهورات... وقد قالت لها جوان ذلك فيما بعد فصاحت بربارا فى عنف:

– لا تكونى رجعية هكذا يا أماه. ان هذه المبادئ قد أصبحت قديمة.

– أنا لست رجعية أبدا. واسمحى لى أن أقول لك يا بربارا. ان كثيرا من مبادئ الأيام الماضية تعود الى الظهور من جديد. ان الفتيات والفتيان لا يظهرون مع بعضهم البعض علنا كما كانوا يفعلون منذ عشر سنوات.

– أن من يسمعك يا أماه يظن أننى قضيت عطلة نهاية الأسبوع مع توم ويلمور.

– لا تحدثينى بمثل هذه اللهجة يا بربارا، فاننى لا أقبل ذلك. ثم ان هناك من رآك مع جورج هارمون فى بار دوج أند دك أى الكلب والبطة.

– أوه اننا لم نلبث غير بضع دقائق.

– حسنا... أنت مازلت صغيرة لكى تختلقى الى مثل هذه الأماكن. اننى لا أحبذ اطلاقا تلك العادة التى تتخذها الفتيات هذه الأيام لاحتساء الخمر.

– لم أشرب الا الجعة... أحسسنا بالرغبة فى أن نلعب البلياردو.

– صحيح؟... حسنا. اننى لا أحب ذلك يا بربارا. ثم أمنعك من ذلك فان جورج هارمون لا يروق لى، ولاتوم ويلمور كذلك. ولهذا فاننى

لا أريد أن أراهما بالبيت بعد ذلك. هل تفهمين.

- حسنا يا أماه... ان هذا من حقك.

- ثم اننى لا أفهم ما الذى يستميلك فيها.

هزت بربارا كتفيها وقالت:- أوه... لا أدرى... ولكنهما يروقان لى.

- ليكن، ولكننى لا أريد أن يضعا قدميهما فى البيت. هل سمعت؟

وقد استاءت جوان أشد الاستياء عندما جاء رودنى بعد ذلك بالشاب هارمون لتناول العشاء ذات يوم من أيام الأحد، واعتبرت هذا العمل ضعفا من ناحية رودنى، وقد عاملته هى نفسها بكل برود، الأمر الذى جعل الشاب يرتبك على الرغم من الرقة التى عامله بها رودنى وعن جهده لكى يعيد للفتى هدوءه واطمئنانه. وراح جورج هارمون يتحدث تارة بصوت مرتفع خفيض، وتارة يتشدق وأخرى يتواضع.

وفى آخر السهرة، وبعد أن انصرف هارمون عاتبت رودنى عتابا مرا وقالت له:

- أنك تعلم مع ذلك اننى لم أكن أريد استقباله فى بيتى، واننى قلت ذلك لبربارا.

- نعم يا جوان، ولكن هذا أكبر الخطأ. وعندما ترى أصدقائها فى أماكن غريبة تفقد حسن التمييز، ولهذا فان من الخير أن تراهم فى وسطهن. أنها تعتبر هارمون شابا خطيرا ووسيما فى حين أنه ليس فى الواقع أكثر من شاب حقير مغرور له ميول للسكر والعربدة وغير جدير بكسب قوته.

- كان فى مقدورى أن أقول لها ذلك.

أجابها رودنى وهو يبتسم:- ان ما أقوله أنا أو أنت يا جوان لن يؤثر

أبدا فى الجيل الجديد.

وحقيقة أخرى لم تلق جوان أن أدركتها فى احدى زيارات افريل.

ففى هذه المرة دعى توم ويلمور إلى العشاء. ولم يكن عند المستوى اللائق به، وفيما بعد سمعت جوان بعض الحديث الذى دار بين الأختين، فقد سألت بربارا أختها قائلة:

- ألا يروق لك يا أفريل؟

هزت أفريل كتفيها فى ازدراء وأجابت فى صراحة:

- اننى أراه مضحكا. أنك لا تتمتعين بذوق سليم فى اختيار أصدقائك حقا يا بربارا.

ومنذ ذلك اليوم اختفى توم ويلمور، وتمتمت بربارا المتقلبة ذات مرة: توم ويلمور؟... أوه... سخيف... ومضحك؟

وعلى أثر ذلك راحت جوان تقيم حفلات الاستقبال فى بيتها وتدعو البعض للعب التنس ولكن بربارا كانت ترفض الظهور بتاتا وتقول.

- لا تزعجى نفسك هكذا يا أماه... انك تبذلين جهدا كبيرا فى البحث عن أصدقاء لى ولكننى أكره الدنيا... خصوصا هؤلاء الناس المزعجين الذين تصرين على دعوتهم لدينا.

واستاءت جوان وقالت لها محتدة أنها تصرف النظر عن محاولة الترفيه عنها وأردفت:

- اننى أتساءل حقا ماذا تريدين؟

- أريد أن تدعينى فى سلام.

وقالت جوان تخاطب رودنى أنها فتاة مزعجة حقا. ووافقها على قولها مطبقا واستطردت:

– لو تخبرنى فقط أى نوع من الترفيه يروق لها.

– هى نفسها لا تدرى ذلك... أنها صغيرة السن يا جوان.

– وهذا هو السبب فى أنه ينبغى علينا نحن أن نقرر ما يفيدها.

– كلا يا عزيزتى. ستهتدى هى نفسها الى ذلك دعيها تدعو من تريد وعندما تريد. ولكن لا تدرى ذلك بالنسبة لها... فهذا هو ما يثير حنق الشباب ويجعلهم يركبون رؤوسهم.

قالت جوان فى شئ من الحنق تخاطب نفسها:– يا للرجال! من دأبهم دائما أن يغضوا الطرف وأن يبقوا فى الكواليس... يا لرودنى المسكين العزيز... أنه بقى طوال عمره فى الكواليس، وقد أدركت ذلك الآن عندما فكرت فى الأمر، وقد اضطلعت هى دائما باتخاذ القرارات العملية، ومع ذلك فقد كان المعروف عنه انه رجل يتقد حمية ونشاطا.

وتذكرت جوان ذلك اليوم الذى قرأ فيه رودنى فى الجريدة نبأ خطوبة جورج هارمون وبريمروز دين. وقد أردف يقول ضاحكا مشاكسا:

– أحد عشاقك القدامى يا بابس.

ضحكت بربارا وبدت كأن نبأ هذا الزواج أثار دهشتها وقالت:

– أعترف بأننى كنت مغرمة به، ولكنه أحمق، أليس كذلك... هذا هو رأيى على الأقل.

– لم أجد فيه أى شئ من السحر ولا أدرى ما الذى فتنك فيه.

قالت بربارا وقد تخلصت نهائيا من حماقة السنة الماضية:

– أنا نفسى لا أدرى ذلك، ولكننى اعتقدت أننى مغرمة به. وخطر لى أن أمى تريد أن تمنعنى من رؤيته، وهذا السبب نفسه كان يجعلنى أشتهى الهرب معه. واذا كانت أمى قد منعتنا فاننى كنت مصممة على

أن أضع رأسى داخل فرن البوتاجاز، وما كنت لأخشى الانتحار.

- آه... آه... الحب الممنوع... روميو وجولييت.

- ما كنت لأتردد عن الانتحار يا أبت، فبعد الروية والتفكير، وعندما تبدو الحياة غير محتملة ليس هناك غير الانتحار.

ولم تستطع جوان أن تملك نفسها أكثر من ذلك فاندفعت تقول فى حدة: لا تنطقى بمثل هذه الأقوال الفظيعة يا بربارا... انك لا تفهمين ما تقولين.

- يؤسفنى أنك سمعت ما أقول يا أماه. أنك ما كنت لتقدمين على مثل هذا الأمر طبعا فانك جديرة بأن تحتفظى بهدوئك دائما... وبرزانتك فى كل المناسبات.

- هذا صحيح... ويسرنى أن أعترف بذلك.

بذلت جوان جهدها لكى تملك نفسها. وعندما غادرت بربارا الغرفة قالت تخاطب رودنى:

- لا يجب أن تشجع هذه الصغيرة عندما تبدى مثل هذا الغباء.

- أوه، بل الأوفق أن تروى ما يدور فى رأسها.

- اننى واثقة تماما من أنها ما كانت لتقدم على مثل هذا الأمر الفظيع.

لزم رودنى الصمت، ونظرت جوان اليه وقد أدهشها صمته بعض الشئ وقالت:

- لعلك لا تظن...

- كلا، كلا بالتأكيد... ستتعقل وتجد توازنها عندما تكبر. ولكنها فى انتظار ذلك غير مستقرة وعاطفية جدا... لا يجب أن تنسى ذلك.

- أنها سخيفة فى اندفاعاتها.

– هذا صحيح. ولكنها لا تدرى ذلك بعد. أنها تأخذ كل غرامياتها مأخذ الجد ولا ترى أبعد من نزواتها العابرة. أنها لا تتمتع بعد بحاسة النقد ولا بادراك الأشخاص الناضجين، ولكنها من الناحية الجنسية مبكرة النضوج.

– أوه يا رودنى، لا تتكلم عن ابنتك كما لو كانت من هؤلاء الفتيات البغيضات اللاتى يتخبطن بين جدران المحاكم.

– هؤلاء الفتيات البغيضات اللاتى يتخبطن بين جدران المحاكم ما هن الا من البشر.

– نعم. ولكن فتاة مهذبة ظريفة كبربارا لا يمكن أن...

– لا يمكن ماذا يا جوان.

– هل من الضرورى أن نتجادل فى هذا الموضوع؟ تنهد رودنى وقال:– كلا... كلا بالطبع. ولكننى أتمنى...

– نعم، اتمنى حقا أن تلتقى بربارا برجل باسل شريف تقع فى هواه.

واتخذت الأحداث بعد ذلك مجرى بدا أنه تحقيق لهذه الأمنية، فقد عاد الشاب ويليام راى من العراق للإقامة بعض الوقت عند خالته الليدى هريوت. وكان قد أقبل منذ أيام وكانت جوان تكتب بعض الرسائل فى الصالون عندما رأته يدخل، وكانت بربارا قد خرجت. ورفعت جوان عينيها من فوق المكتب ودهشت عندما رأت هذا الشاب الطويل القامة المتين البنيان ذا العزيمة القوية والبشرة البضة والعينين الزرقاوين.

واحمر وجهه وهو يقدم نفسه ويغمغم يقول أنه أقبل لكى يعيد المضرب الذى نسيته مس سكودامور فى أرض التنس بالأمس.

وأفاقت جوان من دهشتها ورحبت به.

كانت بربارا كثيرة الشرود وكانت تنسى حاجاتها فى كل مكان. وقالت جوان أنها خرجت منذ لحظة ولكنها لن تلبث أن تعود ثم دعته إلى الانتظار والى قدح من الشاى.

وإذا لم يرفض الشاى دقت الجرس وهى تسأله عن الليدى هريوت.

وشغلتهما صحة الليدى هريوت ما يقرب من خمس دقائق ثم فتر الحديث. ولم يكن مستر راى لبقا جدا وازداد اضطرام وجهه وتسمر فى مقعده وتملكه الارتباك. وجيئ بالشاى فى هذه اللحظة فأنقذ الموقف.

وأدارت جوان دفة الحديث فى شئ من الجهد، ولا تسل عن مدى ارتياحها عندما دخل رودنى، وكان قد غادر المكتب مبكرا عن عادته قليلا وعرف كيف ينعش الحديث فتكلم عن العراق وبعد بضعة أسئلة حكيمة تلاشى ارتباك الشاب وعاد إليه هدوءه وأحس بالثقة وراح يتكلم فى انطلاق. وأخذه رودنى الى مكتبه أخيرا. وكانت الساعة قد أوشكت على السابعة عندما خرج بيل راى على مضض واستأذن فى الانصراف.

وقال رودنى:- أنه شاب ظريف.

- نعم. ظريف جدا وأن كان خجولا بعض الشئ.

- نعم. ولكنه يعرف ما يريد.

وبدأ رودنى شديد الاغتباط وأردف:

- ولا أظن أنه بارد هكذا فى العادة.

- لقد بقى أكثر من ساعتين.

- لا ريب أنه أرهقك كثيرا يارودنى.

- بل على العكس فتننى وسحرنى حديثه. ان هذا الشاب ذكى موهوب يرى العالم على حقيقته ثم انه يتمتع بنصيب كبير من

الفلسفة... وحسن التقدير. نعم. انه راق لى كثيرا.

- لا ريب أنك رقت له أنت أيضا مادام قد بقى كل هذه المدة.

قال رودنى فى مرح:- أوه... إذا كان قد بقى كل هذه المدة فان ذلك لم يكن من أجلى. انه كان ينتظر عودة بربارا... ماذا يا جوان...؟ ألا تعرفين أعراض الحب... حتى ولو كانت صارخة تفقأ العيون... ان الشاب المسكين كان شديد الارتباك... الى حد أنه بدا كما لو كان أحمق... ولهذا السبب اضطرم لونه... لا ريب أنه بذل مجهودا كبيرا لكى يأتى الى البيت... وإذ لم يجد حبيبته... نعم... إن الحب قد ملكه وهذا واضح وضوح الشمس.

وعندما عادت بربارا مندفعة كعادتها وجلست أمام المائدة قالت لها جوان:

- زارنا اليوم أحد عشاقك يا بربارا... ابن أخت الليدى هريوت... وقد عاد بمضريك.

- راى... بيل راى... كيف عثر عليه؟... اننا بحثنا عنه فى كل مكان الليلة الماضية.

قالت جوان:- أنه انتظرك مدة طويلة.

- أوه... اننى آسفة... كنت فى السينما مع آل كرامب. وقد رأينا فيلما سخيفا... نعم. يؤسفنى اننى لم أقابله. هل أزعجكما؟

قال رودنى:- كلا. اننى استمتعت بحديثه. تحدثت معه فى السياسة وفى الشرق الأدنى، وأظن أن مثل هذا الحديث ما كان ألا ليثير ضيقك.

- بالعكس. اننى أحب أن أعرف ما يدور فى هذه البلاد البعيدة

وأحب كثيرا أن أرى أماكن جديدة... فاننى أكاد أضيق ذرعا بكرايمنستر. ثم أن بيل يثير الاهتمام أكثر من غيره.

قال رودنى:

- التحقى بوظيفة إذا كنت تتضايقين فى كرايمنستر حقا.

صاحت بريارا وهى تمط شفتيها اشمئزازا:

- أوه... اننى كسولة جدا ولا أشعر بأية رغبة فى العمل.

قال رودنى:- اننا جميعا كذلك.

اندفعت بريارا عندئذ وضمته بين ذراعيها وقالت فى دلال:

- انك تشتغل كثيرا... كثيرا جدا... وهذا عار كبير.

ثم أطلقته قائلة:- سأتكلم مع بيل فى التليفون... أنه تحدث عن مشروع غامض بخصوص نزهة فى مارسدن.

تابعها رودنى بعينيه حتى بلغت التليفون فى آخر الردهة. وكانت نظرته غريبة تشوبها الدهشة والحيرة.

كان رودنى قد قدر بيل راى وعرف قيمته حقا... نعم، بما لا بة ل الجدل فلماذا انزعج هكذا إذن عندما جاءتها بريارا بنبأ خطبتها ى تلك الليلة. وعندما أردفت بأنهما عقدا العزم على الزواج حالا لكى تتمكن من مرافقته عند رحيله الى بغداد.

كان بيل من أسرة محترمة، يملك ثروة خاصة ويعقد آمالا كبيرة على المستقبل فلماذا أبدى رودنى إذن تحفظا وطلب إطالة فترة الخطوبة؟... لماذا قطب وجهه وبدا مترددا حائرا.

وقبل الزواج بالذات، لم ذلك الانفجار الفجائى متعللا بصغر سن بريارا؟

ومع ذلك فقد تحدت بربارا الاعتراض الأبوى وتزوجت.

وبعد رحيل الزوجين الى بغداد بستة شهور أعلنت أفريل بدورها عن زواجها بسمسار يدعى ادوارد هاريسون ويلموث، وهو رجل فى نحو الخامسة والثلاثين من العمر، رزين ولبق ويملك ثروة لا بأس بها.

وهكذا بدا أن كل شئ قد دبر بأعجوبة، والحق أن رودنى لم يكن مغتبطا بزواج افريل، واذ أصرت جوان على أن يبدى رأيه اكتفى بأن قال:

- ما كنا لنأمل بأحسن من هذا الحل. ان ادوارد رجل ممتاز.

وعلى أثر زواج أفريل بقى رودنى وجوان وحيدين.

فالواقع أن تونى بعد أن فشل فى اجتياز الامتحان النهائى بالمدرسة الزراعية، الأمر الذى تسبب فى انزعاجهما أكبر الانزعاج بمستقبله، رحل الى روديسيا بأفريقيا الجنوبية، وكان يبعث لأبويه برسائل كلها حماس على الرغم من ايجازها، وأرسل اليهما ذات يوم يعلنهما عن زواجه بفتاة من دوريان. وقد أزعج هذا النبأ جوان فان ابنها تزوج من فتاة مجهولة فضلا عن أنها لا تملك أية ثروة وما هى المعلومات التى يمكننا أن نجمعها عنها؟... لا شئ على الإطلاق.

طمأنها رودنى بقوله أن تونى هو الذى يعنيه هذا الأمر وأنما يجب أن تثق به، وأن الصور التى أرسلها لهما تدل على أنها جميلة وجديرة بأن تسانده فى عمله.

وقالت جوان:- ولكننى أعتقد أنهما سيقيمان هناك إلى الأبد وأنهما لن يعودا الى هنا أبدا. كان يجب إرغام تونى على الاشتغال فى المكتب... طالما قلت ذلك.

ابتسم رودنى مؤكدا انهما لا يستطيعان الحصول على أى شئ من شخص يضطر الى العمل مرغما.

– ليكن. ولكن كان فى مقدورك أن تملى ارادتك حقا يا رودنى. وكان يمكن أن تقنعه بحججك ومبرراتك.

قال رودنى:– نعم. هذا صحيح. ولكننى أعتقد أن فى هذا العمل أكبر الخطر.

اعترفت جوان بأنها لا تفهم... ماذا يقصد بقوله هذا؟...

وأجاب رودنى:

– أعنى أن فيه أكبر الخطر فى أن لا يكون تومى سعيدا.

أجابت جوان بأن نفسها تسول لها أن تثور أحيانا لأن الإنسان يضع السعادة دائما فى المكان الأول. هل لابد له من إزعاج نفسه لهذا السبب؟... ان السعادة ليست الغاية الوحيدة فى الحياة، فهناك غايات أخرى أكثر أهمية.

سألها رودنى:– وما هى؟

قالت جوان بعد تردد يسير:– حسنا... هناك الواجب مثلا.

أكد لها رودنى أن الاشتغال بالمحاماة لا يمكن أن يكون واجبا يلتزم به أى أحد، فغضبت جوان شيئا ما وردت عليه بأن يعرف تماما ما تعنيه، وهو ان من واجب تونى أن يخلف أباه فى المكتب وان يجنبه هذا الشعور بخيبة الأمل.

قال رودنى:– ان تونى لم يخيب أملى.

صاحت جوان:– حقا.

لم يكن رودنى ليشعر بأى سرور طبعا وهو يعرف أن أبنه يقيم فى آخر الدنيا وانه لن يراه أبدا. وقال وهو يتنهد:

– كلا. يجب أن أعترف بأننى أفتقد تونى كثيرا، فقد كان مرحا

جدا... تلقائيا إلى حد كبير... كان يملأ البيت نورا ودفئا... نعم اننى اتحسر عليه- هذا ما ظننته... يجب أن تكون صلبه معه.

- ولكن مهما يكن يا جوان فانها حياته هو وليست حياتنا... أن حياتنا نحن قد اكتملت وانتهت...

سواء نجحنا فيها أو فشلنا... أعنى من وجهة النظر العملية.

- نعم... نعم... جزئيا على الأقل.

وفكرت جوان دقيقة ثم أردفت:- على العموم كان من الممكن أن تكون حياة لذيذة... بل أنها لذيذة على كل حال.

- يسعدنى أن أسمعك تقولين هذا.

وابتسم لها هذه الابتسامة الحلوة الطيبة التى يحلو له أن يشاكسها بها من وقت لآخر. وكان أحيانا يبدو كما لو أنه يبتسم لفكرة طرأت له ويحتفظ بها لنفسه.

وعادت جوان تقول:- يجب أن نعترف أننا نتفاهم تماما، أنا وأنت.

- نعم. أننا لم نتشاحن كثيرا.

- ولا يسعنا الا أن نهنأ بأولادنا. ما كان أشد حزننا لو أن الشر قد استمالهم أو انهم لم يكونوا سعداء مثلا.

قال رودنى:- انك تضحكيننى يا جوان.

- ولكن لو أن ذلك قد حدث لكان أمرا فظيعا يا رودنى.

- أظن أن ما من شئ يمكن أن نعانى منه كثيرا يا جوان.

- آه.

وفكرت فى الأمر مليا ثم أردفت:- طبعا، اننى معتدلة المزاج وأشعر

بالاستقرار وأعتبر أن واجب كل منا أن لا يدع الأحداث تسيطر عليه.

– ما أعجب هذا المبدأ وما أشد فاعليته.

قالت جوان وهى تبتسم:

– ألا تشعر بالعزاء وأنت ترى نجاح مهمتك؟

تنهد رودنى وأجاب:– نعم... نعم... هذا أمر سار لا ريب.

ضحكت جوان وألقت يدها على ذراع زوجها وتظاهرت بأنها تهزه وقالت:

– لا تكن متواضعا هكذا يا رودنى. ما من محام بالمنطقة له مثل عملائك. أنك تربح أكثر مما كان العم هنرى يربح.

– نعم. ان أعمال المكتب رائجة.

– ثم أن شريكك ينمى رأس المال. هل أنت نادم على أن لك شريكا ثالثا.

هز ردونى رأسه وقال:– كلا، فأننا بحاجة الى الشباب، لأننى والدرمان قد كبرنا.

كانت قد لحظت بالطبع أن المشيب قد بدأ يظهر فى شعر رودنى.

نهضت جوان وألقت نظرة الى ساعتها. كان الوقت يمضى سريعا نسبيا ومن غير عودة هذه الأفكار المشوشة المزعجة التى فرضت نفسها عليها فى هذا الوقت غير المناسب. وهذا يدل طبعا على أن النظام هو أول كل شئ. كان يجب توجيه ذكرياتها طبقا لنظام معين واستقبال الذكريات الجميلة المشجعة منها فحسب. وهذا هو ما فعلته صباح اليوم، وعلى العموم انقضت الصبيحة على خير ما يرام، فبعد ساعة ونصف سيكون وقت الغداء قد أزف، ولعله يجب أن تخرج الآن لكى تقوم بنزهة قصيرة وأن تحرص على أن لا تبتعد عن محطة الترحيل،

فقد يثير المشى شهيتها قبل أن تجلس أمام احدى هذه الوجبات الدسمة الثقيلة. ومضت الى غرفتها ولبست قبعتها الرخوة وخرجت.

كان الغلام راكعا فوق الرمال موليا وجهه نحو الكعبة.

وأسرع الهندى إليها وقال هامسا :- أنه يصلى صلاة الظهر.

هزت جوان رأسها، فقد كان الأمر ظاهرا ولم تكن هناك حاجه الى التفسير، وانطلقت فى خطوات بطيئة نحو الأسلاك الشائكة التى تشير الى محطة السكة الحديد. وعندما بلغتها رأت رجلا يلبس بذلة رسمية ومعه بندقية يعتمد بظهره على صندوق كبير أدركت أنه الحارس الذى يقوم على حراسة السكة الحديد أو الحدود. وكان يبدو عليه أنه نائم ورأت جوان أن من الحرص أن لا تقترب منه أكثر من ذلك حتى لا يصحو فجأة ويطلق النار عليها، فان هذا النوع من الحوادث لم يكن مستحيل الوقوع فى تل أبو حميد.

وعادت أدراجها وفى نيتها أن تدور بمحطة الترحيل نفسها.

كانت تحاول قتل الوقت بكل طريقة وتجنب هذا الإحساس الغريب بالضياع فى مثل هذه البيد الواسعة التى لا أول لها ولا آخر.

رأت فى شئ من الارتياح أن الصبيحة قد مرت سراعا ودون أن تستذكر غير الذكريات الجميلة: زواج أفريل بادوارد العزيز، وهو رجل ثقة وثرى جدا، وبيت أفريل فى لندن، وهو بيت جميل مريح وزواج بريارا... وتونى، على الرغم من أن زواج هذا الأخير لم يسبب لها سعادة كبيرة. بل الواقع أنها هى وزوجها يجهلان عنه كل شئ ثم أن تونى لم يعطهما كل الترضيات التى كانا يستحقانها منه كابن. كان يجب أن يبقى فى كرايمنستر وأن يلتحق بمكتب أبيه وأن يتزوج من إنجليزية وأن يتبع الطريق الذى رسمه له أبوه.

مسكين رودنى. ان شعره الأسود وقد خلطه المشيب. وليس له ابن لكى يخلفه فى المكتب.

كان يجب الاعتراف بأن رودنى كان ضعيف الإرادة جدا مع تونى. كان يجب أن يظهر الصلابة ولكن الحزم أعوزه. وقالت جوان تحدث نفسها أين كان يكون رودنى الآن لو أننى لم أكن حازمة معه لكى أدفعه للالتحاق بالمكتب وددت لو أن أعرف ذلك. هذا الاقتران الذاتى جعل قلبها يركض فرحا... لعله كان غارقة فى الديون الآن. ولعله كان يرهن أملاكه وأراضيه كما فعل المزارع هودسدون وحاولت أن تعرف اذا كان رودنى قد عرف بطريقة ما أهمية الخدمة التى أسدتها اليه.

وفيما هى تحاول ذلك نظرات إلى الخط المتحرك فى الأفق... يا لهذا التأثير البخارى الغريب... وقالت: أنه سراب بلا شك.

نعم. هو ذلك... أنه سراب... لكأن هناك بركا من الماء تبرق فى الرمال. لم يكن هذا مطابقا تماما للفكرة السائدة عن السراب... كانت تعتقد أنهم يرون عندئذ أشجارا ومدنا وأشياء أكثر تماسكا.

ولكن هذا الوهم بوجود الماء كان وهما غريبا حقا. حملها على أن تتساءل ما هى الحقيقة.

سراب... نعم... سراب... وبدت لها الكلمة مشحونة بالأسرار.

ولكن فيم كانت تفكر؟... آه، نعم. كانت تفكر فى تونى، وفى أنانيته وعدم اكتراثه كان من المستحيل دائما التأثير على تونى. كان من المتعذر أدراك كنهه وفهمه... كان مطيعا فى الظاهر ولكن بطريقة هادئة مهذبة وكان دائم الابتسام لا يفعل الا ما يروق له. لم يكن رقيقا فى معاملته لها دائما كما يجب على الابن ان يكون مع أمه.

ولكن أما كان يؤثر أباه عليها فى الواقع.

تذكرت تونى وهو لا يزال غلاما فى السابعة من عمره وهو يدخل غرفة أبيه فى جوف الليل ويقول فى صوت هادئ عادى:

- أبى. يبدو اننى أكلت طعاما فاسدا فأننى أشعر بألم شديد فى معدتى. وأظن أنى سأموت ولهذا أتيت لكى أموت بجوارك.

ولم يكن المه نتيجة طعام طيب أو فاسد وإنما كان سببه زائدة دودية حادة وقد أجريت له عملية على الفور ولكن دهشة جوان كانت من أن الغلام لجأ الى أبيه بدلا من أن يلجأ إليها هى مع أن من الطبيعى أن يسرع أى طفل مريض ويستنجد بأمه.

نعم. لقد خلق تونى لهما الكثير من المشاكل والمتاعب. كان كسولا لا يحب الرياضة، وكان وسيما، من هؤلاء الفتيان الذين تفخر الأم بالخروج معهم ومع ذلك فلم يكن يبدى أية رغبة فى الخروج معها، وكانت له عادة تثير الغضب حقا.

وهى أنه كان يختفى دائما عندما تبحث عنه.

وألقت نظرة أخرى الى ساعتها. لا داعى لأن تجهد نفسها فى المشى فان الحرص يدعوها الى أن تعود إلى محطة الترحيل. كانت الصبيحه رائعة بدون أية صعوبة وبدون أفكار بغيضة أو أى إحساس بالضياع.

وعاتبها صوت داخلى يقول:- ما هذا؟... لكأننى أسمع ممرضة تتكلم. من تظنين نفسك يا جوان سكودامور؟ أتحسبين نفسك مريضة؟... أو مخبولة؟... لماذا أنت فخورة هكذا بسعادتك ومرهقة فى نفس الوقت؟ هل قضاء صبيحة هادئة وجميلة أمر يستحق الفخر؟

وحثت الخطى لكى تعود إلى محطة الترحيل واغتبطت عندما قدم اليها مع الطعام خوخا، فقد كان هذا الأمر فى حد ذاته تغيير وأى تغيير.

وبعد أن فرغت من تناول الغداء استلقت فوق فراشها.

لو أنها تستطيع النوم حتى موعد تناول الشاى فان ذلك يكون خيرا لها.

ولكنها لم تشعر بأية رغبة فى النوم... كان ذهنها فى عمل متواصل متقد، ومع ذلك فقد أرغمت نفسها على الاحتفاظ بعينيها مطبقتين. ولكنها لسوء الحظ أحست بالصحو وظلت أعصابها منتبهة كما لو كانت فى انتظار كارثة... متوترة الأعصاب على استعداد للدفاع عن نفسها ضد خطر خفى.

وراحت تفكر قائلة:- يجب أن أهدأ... يجب ذلك.

ولكنها لم تستطع أن تصل الى ذلك. كان جسدها كله متوترا وازدادت نبضات قلبها عن ذى قبل وتيقظ ذهنها وراح فريسة للقلق.

ذكرتها كل هذه الأعراض بحالة عرفتها قبل ذلك. وحاولت أن تعرفها وأن تعرف فى أية ظروف حدثت... ولم تلبث أن اهتدت الى ذلك. كان ذلك فى عيادة طبيب أسنان.

كان نفس الخوف من شئ بغيض حقا... الرغبة فى أن تطمئن وأن تتجنب التفكير فيه والاعتقاد بأن كل دقيقة تقرب المحنة.

ولكن أية محنة؟... وماذا تخشى؟

ماذا سيقع لها؟

فكرت. أن السحالى عادت الى جحورها، ولكن ذلك لأن زوبعة توشك على الهبوب... انه الهدوء قبل العاصفة... ويجب أن تنتظر... أن تنتظر...

يا الهى... أصبحت مضطربة الذهن تماما.

ونهضت من فراشها مرة واحدة. لا داعى للبقاء فى الفراش مادامت لا تستطيع النوم.

كـرهت هذه الغـرفـة ذات الجـدران العـارية والنوافـذ الصـغـيـرة المسيجة... كانت تختنق فيها... أحست بأنها أصبحت صغيرة جدا... فى حجم الحشرة، هى التى تهفو الى حياة الصالونات المشبعة بالهواء والمفروشة بأفخم أنواع المفروشات والنيران تتأجج فى الموقد. كل ما كانت تحبه هو أن تعيش بين الناس وأن تذهب لزيارة صديقاتها أو أن تستقبلهن فى بيتها.

أوه... فليـأت هذا القطار حـالا... يجب أن يعـجل بالمجـيئ... أو فلتأت سيارة أو أية عربة من أى نوع.

وقالت فى صوت مرتفع:- لا أستطيع البقاء هنا... أكثر من ذلك.

وأردفت:- اننى أتكلم وحدى... هذه علامة سيئة.

واحـتـست قليـلا من الشـاى ثم قـررت أن تخـرج اذ رأت أنه ليس بمقدورها أن تبقى جالسة فى فراشها فريسة لأفكارها.

ان النزهة ستمنعها من التفكير.

التفكير... أنه لشؤم وأى شؤم.

والدليل على ذلك المخلوقـات التى تعـيش هنا: الهندى والغـلام العربى والطاهى الخفى.

أحيانا أجلس وأفكر وأحيانا اكتفى بأن أجلس ولا أفكر فى شئ.

أين سمعت هذه العبارة بالتحديد؟... ما أعجبها طريقة للمعيشة.

مادامت تريد أن تتجنب التفكير فإنها ستكتفى بأن تمشى دون أن تبتعد كثيرا عن محطة الترحيل فى حالة ما اذا... نعم... فى حالة...

سـترسم دائرة كبيرة وتظل تدور حولها بلا نهاية كالحيوان... كان هذا أمـرا مـهـينا... نعم، مـهـينا جـدا... ولكنه ضـرورى... يجب أن

تحرص... أن تحرص كل الحرص على نفسها والا...

والا. ما الذى يحدث؟ كانت لا تدرى. كل الافتراضات كانت متاحة.

ستتجنب التفكير فى رودنى اذن... لا يجب أن تفكر فى ابنتها افريل ولا فى تونى ولا فى بربارا كذلك. كان لابد لها أن تقصى ذكرى بلانش هاجارا وكذلك زهور الرورندرون الحمراء... يجب على الخصوص أن لا تفكر فى الزهور الحمراء وأن تحرص على عدم استظهار أية أشعار.

وكذلك، لا يجب أن تفكر فى جوان سكودامور... ولكن جوان سكودامور هى أنا نفسى... كلا. لست أنا... ولن بلى...

اذا اضطررت ان لا تفكرى الا فى نفسك فما هى الاكتشافات التى ستجدينها.

قالت جوان فى صوت مسموع:- لا أريد أن أعرف.

وأزعجها صوتها... ما هذا الذى لا تريد أن تعرفه.

وفكرت:- اننى أتعارك... أننى أشن حربا... خاسرة مسبقا.

ولكن مع من تتعارك... ولماذا؟

قالت:- ليس لهذا أية أهمية... لا أريد أن أعرف البقاء فى الشك أكثر حكمة.

غريب على كل حال هذا الشعور بأن شخصا يمشى بجوارها... شخصا كانت مرتبطة به ارتباطا وثيقا ولم يكن عليها الا أن تدير رأسها لكى تعرف ذلك.. وأدارت رأسها عندئذ ولكنها رأت أنه ما من أحد يتبعها على الإطلاق.

ومع ذلك فقد لازمها ذلك الإحساس بأن هناك شخصا يتبعها...

وتملكها الخوف.

رودنى وافريل وتونى وبربارا... لن يخف أى واحد منهم لنجدتها ولن يمكن لأى أحد منهم أن يساعدها ولا حتى أن يحاول تخليصها. لا أحد منهم يكترث بها أو يعرف الخطر الذى تتعرض له.

ستعود الى محطة الترحيل لكى تتخلص من هذا الشخص الخفى الذى يتجسس عليها.

وكان الهندى واقفا بالباب ورأى جوان تقترب مترددة تمشى فى تعرجات وتفرس فيها بطريقة أفزعتها فقالت:

- ما الخبر؟... ما الذى دهاك؟

- يبدو لى أن سيدتى على ما يرام... لعلك محمومة؟

هذا هو السبب إذن... أنها محمومة. أنها لحمقاء إذ لم تفكر فى ذلك من قبل.

واندفعت حتى غرفتها. كان لابد لها أن تقيس حرارتها وأن تأخذ قرصا من الكينين فان لديها بعضا منها فى حقيبتها.

وأخرجت الترمومتر ووضعته فى فمها.

أن الحمى هى السبب طبعا... هى التى ولدت كل آلامها. اضطرابها وذعرها غير المحدود ومخاوفها وازدياد نبضات قلبها، كل هذه المتاعب الطبيعية سببها الحمى.

وأخرجت الترمومتر وفحصته بعناية ٣٦,٨ درجة ومع ذلك فقد كانت منهوكة من التعب.

ومع ذلك فقد انتهت من سهرتها وهى فى شدة القلق على نفسها، فهى لم تصب بضربة شمس، ولم تكن محمومة وهذا يدل على أنها

كانت فريسة أعصابها.

كانت تتكلم عن الآخرين فتقول أنهم يعانون من أزمة عصبية، ولكنها لم تفهم معنى ذلك عندئذ. أما الآن فهى تعرف أن وراء كلمتى (أزمة عصبية) شيئا جهنميا.

كانت بحاجة الى طبيب... أخصائى وبيت صغير وممرضة رقيقة قديرة لا تتركها لحظة واحدة.

لا يجب أن تبقى مسز سكودامور وحدها دقيقة واحدة.

ولكنها على النقيض من ذلك تجد نفسها سجينة فى غرفة عارية الجدران وسط الصحراء برفقة هندى نصف غبى وغلام عربى معتوه وطاه يقدم لها طعاما مكونا من الأرز وعلب السلمون والفاصوليا المحفوظة والبيض الجامد.

فكرت قائلة:- أسوأ ما يمكن أن يكون... الطعام غير الموصوف فى حالتى هذه بالذات.

وبعد العشاء عادت الى غرفتها وتأملت قنينة الأسبرين. كان باقيا بها ستة أقراص فازدردتها كلها فى عصبية. لن يكون لديها قرص واحد صباح الغد ولكن كان لابد لها من ان تتخذ علاجا. وقالت:

لن أقوم بأية رحلة بعد ذلك من غير أن آخذ معى منوما فعالا.

ونضت عنها ثيابها وتمددت فى خوف.

ومن حسن الحظ راحت فى سبات عميق على الفور تقريبا.

ورأت نفسها فى المنام فى شجن كبير وفى متاهات الممرات... كانت تحاول أن تهرب منه ولكنها لم تفلح، ومع ذلك فقد كانت على يقين... بل على يقين كبير من أنها تعرف المخرج.

وسمعت نفسها تقول:- ما عليك الا أن تحفرى ما عليك إلا أن تجمعى ذكرياتك.

وكان صحوها طبيعيا، وأحست بالهدوء وان كانت متعبة بعض الشئ واستأنفت القول فى كلمات آلية:

- اجمعى ذكرياتك.

ونهضت وتزينت وتناولت طعام الإفطار وهى فى أحسن حال. كانت تشعر بشئ من الخوف ولكن فى غير إفراط. وفكرت قائلة:

- أظن أن كل شئ لن يلبث أن يبدأ من جديد ...أوه... فليكن... ليست لى حيلة.

وجلست فى مقعد وبقيت جامدة لا تبدى حراكا... ستخرج فيما بعد، ولكن ليس الآن. لن تجد موضوعا لكى تفكر فيه، الأكثر من ذلك أنها لن ترغم نفسها حتى لا تفكر فان كلا من الجهدين سيكون متعبا بما فيه الكفاية. ستترك أفكارها وذكرياتها تأتى وتروح كما تشاء.

ورأت مكتب الدرمان وسكودامور وويتنى للأعمال القانونية... والملفات ذات البطاقة البيضاء خلفاء سير جاسبار فولكس... أشبه بمعدات المسرح.

ورأت بيتر شيرستون يرفع وجها محموما ومنفعلا فوق المكتب. شد ما يشبه أمه... كلا، ليس تماما، فان له عين شارلس شيرستون ونفس طريقته وهو ينظر إليك من أسفل وبسرعة كبيرة.

فكرت قائلة:- ما كنت لأوليه ثقة عمياء لو أننى كنت مكان رودنى.

وأنه لامر يدعو الى الطرب حقا أن خامرها مثل هذا الظن.

بعد موت ليزلى انحدر شيرستون الى الهاوية تماما. لم يكف عن

الشراب بحيث قاده السكر إلى حتفه فى وقت قصير. ولجأ الأولاد الى عمها وخالتها ولكن البنت الصغيرة ولما تبلغ الشهر السادس من عمرها.

التحق الابن الأكبر، جون بوزارة العمل برومانيا. أما أخوه الأصغر، بيتر فقد أقبل لزيارة رودنى وطلب أن يلتحق بالمكتب قائلا:

– قالت لى أمى أنك ستقبل مساعدتى بكل تأكيد يا سيدى.

وكان فتى رقيقا تعلو الابتسامة شفتيه ويتسم بالصراحة ويحاول أن يروق. ورأت جوان أنه أكثر وسامة وجاذبية من أخيه.

وقد سر رودنى بأن يلحقه لديه بالمكتب، واعتبره مع الوقت ابنا له وراح يدعوه فى بيته فى أغلب الأوقات وراق بيتر لجوان كثيرا فقد كان رقيقا دمثا دون أن تكون له مجاملة أبيه المفرطة.

ولكن الأمر الذى يؤسف له هو أنه ذات مساء عاد رودنى إلى بيته وهو مشغول البال إلى حد كبير وردا على أسئلة جوان عيل صبره وهو يقول لها أنه ليس هناك أى شئ. ولكن بعد ذلك بأسبوع تقريبا قال أن بيتر سيغادر المكتب لكى يلتحق بمصنع للطائرات.

– أوه يا رودنى. أنك كنت كريما جدا معه. وكنا نحبه كثيرا أنا وانت.

– نعم. اننى تعلقت به.

– ماذا حدث؟... هل كان خاملا؟

– أوه، كلا. أنه موهوب جدا فى الأرقام، وكان مجتهدا جدا.

– مثل أبيه.

– نعم. ولكن شباب اليوم تجذبهم الاكتشافات الحديثة والطيران والآلات.

ولكن جوان لم تكن تصغى إليه فان المقارنة التى نطقت بها جعلتها تفكر، ثم أن بيتر شيرستون غادر المكتب فجأة.

- رودنى... هل وقع شئ خطير؟
- خطير؟... ماذا تقصدين؟
- حسنا... إذا كان مثل أبيه... ان له فم أمه ولكن له أيضا تلك الطريقة التى كان أبوه ينظر بها بطريقة غير مباشرة. قل لى يا رودنى... قل لى الحقيقة... هل أساء التصرف.
أجاب رودنى وهو يزن كلماته:- أننا تحققنا من غلطة صغيرة.
- فى الحسابات؟... هل اختلس شيئا؟
- أفضل أن لا أتكلم فى هذا الموضوع يا جوان. لقد كانت غلطة تافهة.
- غير شريف كأبيه... إن الوراثة أمرها غريب حقا.
- أمرها غريب جدا... وهى تقع أحيانا خطأ.
- هل تأسف على أنه لم يرث عادات أمه؟... ومع ذلك فان ليزلى لم تكن تتمتع بأية صفة رائعة على ما يبدو.
أجاب رودنى فى حدة:- من أين أنها كانت رائعة جدا. عكفت على عملها ونجحت فيه تماما.
- يا للمرأة المسكينة.
قال رودنى متبرما:- يروق لى أن تكفى عن الرثاء لها.
- أنك قليل الرحمة يا رودنى... أن حياتها كانت حزينة حقا.
- ليس هذا رأيى أبدا.
- وموقفها؟
- إذا أردت ارضائى يا جوان فلنكف عن الحديث عنها.
ودار على عقبيه.

كانت جوان تعرف أن السرطان يخيف كل الناس. بل أنهم يتحاشون النطق بهذه الكلمة ويستخدمون الاشارات والتلميحات بقدر الامكان فيتحدثون عن مرض خفى عضال وعن عملية شديدة الخطر. ورودنى نفسه لم يشأ أن ينطق باسمه لانه ليس هناك من يدرى حقا. فان حالة واحدة من كل عشر حالات قاتله. ويبدو أن هذا المرض يصيب أحسن الأصحاء الذين لم يسبق لهم أن شكوا أبدا من أية متاعب صحية.

تذكرت جوان ذلك اليوم الذى عرفت فيه النبأ عن طريق مسز لامبرت فى ميدان السوق.

– أى صديقتى العزيزة. هل تعرفين ماذا حدث لمسز شيرستون المسكينة؟

– لا... ماذا حدث لها؟

أجابت مسز لامبرت فى انفعال:– أنها ماتت.

ثم أردفت تقول وهى تخافت من صوتها:– أنها ماتت.

ثم أردفت تقول وهى تخافت من صوتها:– أودى بها مرض داخلى. لم يكن فى الامكان إجراء عملية جراحية لها... وقد قيل أنها تألمت كثيرا ولكنها كانت نشيطة، وقد ظلت تشغل حتى ذلك اليوم الذى لم تستطع أن تقاوم فيه إلا بفضل المورفين. وقد التقت بها ابنة أخى منذ ستة أسابيع... لم يكن هناك أمل فى شفائها. ولم تعد غير جلد على العظم، ولكنها بقيت كما هى دائما تضحك وتمرح وأظن أن المصاب بهذا المرض لا يعتقد أبدا أن إصابته قاتله... وفيما بيننا كانت حياتها كلها أحزان... يا للمرأة المسكينة. بالنسبة لها يمكن أن تقول أن الموت قد أراحها.

وقد عجلت جوان بالعودة لتخبر رودنى بالنبأ ولكنه أجابها فى هدوء:

– نعم. اننى أعلم.

وقال لها أنه علم بالنبأ على الفور بصفقته منفذا لوصيتها.

لم تكن ليزلى شيرستون تملك الكثير. والقليل الذى أوصت به سهل توزيعه على ولديها. ولكن نصا فى الوصية أثار الأقاويل فى كرايمنستر: وهو رغبتها فى فى أن تدفن فيها لاننى كنت سعيدة جدا فيها.

وهكذا نقل جثمان ليزلى شيرستون إلى كرايمنستر ودفن فى مقبرة كنيسة سانت مارى.

وقد نعت البعض هذا الطلب بالغرابة لان شيرستون اتهم فى كرايمنستر باختلاس أموال البنك. ولكن البعض الآخر فهم إن المسكينة قضت وقتا سعيدا فى كرايمنستر قبل الفضيحة وأن من الطبيعى أن تعتبر هذه المدينة كنوع من الفردوس المفقود.

مسكينة ليزلى. إن المصائب على العائلة لان بيتر الشاب بعد أن نال شهادة الطيران سقطت به طائرته ولقى حتفه.

وقد صعق الخبر رودنى. والغريب أن ضميره أحذ يبكته وراح نفسه يقول أنه السبب فى موت بيتر.

– ولكنى لا أفهم يا ردونى... لم كل هذا الحزن؟... أنك لست مسئولا عن موته.

– إن ليزلى عهدت بابنها إلى وطلبت منى أن أجد له عملا وان أسانده.

– حسنا... أنك فعلت ذلك وألحقته بالمكتب. وقد أساء التصرف ولم تشأ أن تقاضيه... ثم أنك سددت المبلغ الذى اختلسه، أليس كذلك؟

– نعم... نعم. ولكننى لا أقصد كل هذا. اننى ألوم نفسى لان ليزلى أرسلته الى لانها كانت تعرف أنه ضعيف الارادة له نفس ميول أبيه.

لقد سار جون فى الطريق القويم ولكن بيتر وحده هو الذى أثار جزعها فأرسلته الى وهى تعرف عيبه لكى أراقبه.

- كان لهذا الشاب متناقضات غريبة، فهو لم يرث ميول أبيه المعيبة فحسب ولكنه ورث عن أمه شجاعتها فان أرمندال كتب الى أخيرا يقول أنه لم ير أحسن منه طيارا وقال ان هذا الشاب كان جسورا جدا وحريصا جدا فى نفس الوقت. وقد تطوع كما تعرفين لتجربة نوع جديد من الطائرات. وكانت المحاولة شديدة الخطر، وهكذا لقى حتفه.

- ماذا تريد؟... لقد مات ميتة مشرفة ومجيدة جدا.

ضحك رودنى ضحكة صغيرة وقال:- نعم. بلا شك يا جوان. ولكن هل تقولين نفس هذا القول بهذه الكياسة لو أن الأمر كان يتعلق بابنها؟... اذا كان ابنك تونى هو الذى لقى حتفه بهذه الطريقة المجيدة فهل ترضين.

اتسعت عينا جوان دهشة وقالت:- ولكن بيتر ليس ابننا، ولا يمكن أن تكون هناك أية مقارنة.

- اننى أفكر فى ليزلى وفى حزنها لو أنها كانت لا تزال على قيد الحياة.

وفى داخل محطة الترحيل ووسط العتمة التى تسودها سرت فى بدن جوان رجفة قصيرة وهى شيرستون هذا الإلحاح منذ وجودها بمحطة الترحيل؟ أن لها أصدقاء كثيرين. أصدقاء تعاطفت معهم أكثر مما تعاطفت مع آل شيرستون.

لم تشعر أبدا بصداقة متينة مع ليزلى، ومع هذا فلم يمنعها ذلك من أن ترثى هذه المرأة المسكينة تحت البلاطة الرخامية.

ارتجفت جوان وقالت تحدث نفسها :- اننى مقبورة وهناك من يسير فوق مقبرتى.

ولكنها كانت تفكر فى قبر ليزلى وقالت:- إن الجو هنا بارد... بارد ومظلم... سأخرج إلى الشمس... لا أريد البقاء هنا أكثر من ذلك.

يجب أن تخرج... يجب أن تخرج إلى الشمس... وأن تبتعد عن هذه الوساوس أنها بقيت مدة طويلة فى هذه الغرفة ذات الجدران العارية التى تشبه القبر. قبر ليزلى... ورودنى فى المقبرة.

ليزلى... ورودنى.

يجب أن تخرج... إلى الشمس... فان هذه الغرفة نحس...

أنها مقبورة ووحيدة.



هروبا من البرد

هبت جوان واقفة وانطلقت نحو الشمس فى خطى سريعة. وإذ ألقت نفسها فى الخارج راحت تمشى وهى تتحاشى النظر إلى كومة القمامة وحظيرة الدجاج.

تحاشت النظر إليهما بدافع الحرص لأنها كانت بحاجة إلى حرارة الشمس...

الحرارة... كانت تريد أن تهرب من الإحساس بالبرد.

وقد هربت.

ولكن من أى شئ هربت؟

أحست بان مس جيلب تسير بجوارها وسمعتها تقول فى لهجة مصطنعة رتبى أفكارك يا جوان... أبينى عن نفسك بطريقة واضحة. حددى من أى شئ تهربين بالذات وأنت تركضين هكذا.

ولكنها لم تكن تدرى... لم يكن لديها أية فكرة عن ذلك.

مم تهرب؟... أمن خوف مبهم؟... ورعب كان يهددها ويطاردها؟ الخوف من حقيقة تواجدت دائما... ولكن فى الظل، وحاولت أن تهرب

وتروغ منها؟

وقالت:

- انك تتصرفين بطريقة غريبة حقا يا جوان سكودامور.

ولكن هذا التحذير لم يأتها بأية معونة. لا ريب أنها قد أصبحت معتوهة. لا يمكن أن يكون مبعث اضطرابها هذا الإحساس بالضياع فى هذه المتاهات الشاسعة لأنها كانت تتعجل الفرار من تلك الجدران الباردة التى تسجنها والخروج إلى الشمس والفضاء.. لقد أحست بأنها احسن حالا منذ أن خرجت.

وحثت خطاها. كان لابد لها من الابتعاد عن هذه المحطة البغيضة بأى ثمن. عن هذا القبر. عن هذا المكان الكئيب الذى تكاد تختنق فيه.

حيث يمكن للمرء أن يوهم نفسه بان فيه أشباحا.

ولكن ما هذا السخف... إن المحطة يدل شكلها على أنها حديثة البناء وانه لم يمض عليها اكثر من سنتين اثنتين.

وبناية كهذه لا يمكن أن تسكنها الأشباح... والجميع يعرفون ذلك.

كلا. إذا كان فى محطة الترحيل أشباح ما كان جوان سكودامور هى التى خلقتها من نسج خيالها.

ولكن هذه الفكرة بالذات كانت فظيعة.

وأسرعت الخطى.

وحدثت نفسها تقول فى إصرار:

- لا أحد هنا على كل حال لكى يسخر منى... أنا وحيدة تماما... إننى واثقة لن التقى بأحد.

- كانت حالتها أشبه بحالة... من بالذات؟... اهى حالة ستانلى

ولينجستون اللذين التقيا بغتة فى غابات أفريقيا؟

- أظنك دكتور ليفنسجون؟

لم تكن تتعرض لمثل هذه المغامرة على كل حال فان الشخص الوحيد الذى يمكن أن تلتقى به هنا هو جوان سكودامور.

يا لها من فكرة مضحكة... أن تلتقى بجوان سكودامور.

- يسرنى أن أتعرف بك يا مسز سكودامور.

كان هذا أمرا يثير الاهتمام فى الواقع... أن تتعرف إلى نفسها وان... ولكن يا للفظاعة...

وتملكها الخوف فجأة وأسرعت الخطى اكثر عن ذى قبل إلى حد أنها كانت تكاد تجرى تقريبا. وراحت تتعثر. وتعثرت أفكارها كقدميها.

إننى خائفة...

رباه... شد ما أنا خائفة.

- لو أن أحدا ما كان برفقتى.

وفكرت قائلة:

- بلانش... كم أود لو أن بلانش معى الآن.

نعم. كانت بحاجة إلى بلانش بالذات.

لم تكن بحاجة إلى اى أحد آخر.. لا من أهلها ولا من صديقاتها... بلانش وحدها كان فى مقدورها...

بلانش بألفتها وطيبتها المشجعة الدافئة.. بلانش وحدها كان فى مقدورها أن تفهمها... لن يدهشها شئ ولن يجرح شعورها اى شئ.

ثم أن بلانش كانت تقدرها فقد قالت لها أنها عرفت كيف تعيش

وكانت تحبها كثيرا.

فى حين أن ما من أحد آخر.

هذه هى الفكرة التى كانت تراودها دائما... هذه هى الحقيقة التى كانت تعرفها جوان سكودامور الحقيقة... والتى طالما عرفتها.

وخرجت السحالى من جحورها.

وراحت الحقيقة تسخر منها.

ظهرت مقطفات منها، من الحقيقة، كما لو كانت سحالى وراحت تقول ها نحن... انك تعرفيننا جيدا... فلا تدعى العكس.

أظن ما هناك أنها كانت تعرفها... وتعرفها تماما؟

كل هذه المقتطفات وكل هذه الأجزاء المتقطعة من الحقيقة كانت تحدق فيها وتتفرس... بدت لها منذ أن جاءت إلى هنا، وكان يتعين عليها ان تنظمها وان توحد بينها.

كل قصة حياتها... قصة جوان سكودامور الحقيقة كانت هنا، تنتظر أن تشكلها من جديد.

لم تحس أبدا بحاجتها إلى التفكير فيها قبل اليوم، فقد كان اليسير عليها أن تشغل نفسها بأعمال تطبيقية لم تدع ما يكفى من الوقت لكى تفكر فى نفسها.

ولكن ماذا قالت لها بلانش؟

إذا لم يكن أمام المرء إلا أن يفكر فى نفسه طوال أيام متتالية فما الذى يمكن أن يكتشفه؟

وقد ردت عليها ردا سخيفا وتكبرا فقالت:

- وهل يمكن أن يكتشف المرء شيئا لم يكن يعرفه من قبل؟

وتذكرت عبارة نطق بها تونى، فقد قال لها:

- يخيل لى أحيانا يا أماه انك لا تفهمين أحدا.

وكان هذا صحيحا.

فقد تجاهلت أولادها وتجاهلت رودنى... إنها أحبتهم طبعا ولكن من غير أن تعرفهم.

وكان يجب أن تبذل جهدها من غير أن تفهمهم.

فان المرء عندما يحب أحدا فيحب ان يحاول رؤيته كما هو وان يعرف ما يعتمل بين جوانحه لا أن يكتفى بان يعرف ملامحه وقسماته.

ولنأخذ افريل مثلا... وحزنها.

لم تشأ جوان أن تعترف بان افريل تالمت.

وقد احتقرتها افريل دائما.

عرفت افريل منذ نعومة أظفارها طبيعة أمها.

افريل التى عركتها الحياة وحطمتها والتى ربما أصبحت الآن مخلوقة غير راضية.

غير راضية وان كانت شجاعة.

هذا هو الشئ الذى تحتاج إليه جوان... الشجاعة.

كانت قد قالت:

- إن الشجاعة ليست كل شئ.

وقد رد عليها رودنى قائلا:

- حقا.

وكان رودنى على حق.

تونى وافريل ورودنى كانوا يشيرون إليها جميعا بإصبع الاتهام.

وبربارا؟

ما هى مشكلتها؟... ولماذا أبدى الطبيب كل هذا التحفظ؟

ماذا حاول الجميع إخفاءه عنها؟

ما الذى حدث لهذه الصغيرة الملتهبة العاطفة بعد أن تزوجت أول من تقدم لها كما لو لكى تهرب من البيت؟

لان هذا هو السبب... هذا هو ما فعلته بريارا حقا... أنها كانت تعيسة مع أهلها، وإذا كانت تعيسة فذلك لان جوان لم تحاول أبدا بان تجعل لها الحياة رغدة سعيدة.

أخفقت فى حبها أخفقت فى فهمها... كانت من الأنانية والتهاون بحيث قررت ما يناسب بريارا من غير مراعاة لذوقها ورغبتها، وبدلا من أن تستقبل صديقاتها وتحتفى بهن طردتهن بأدب، فلا عجب إذن إذا كانت فكرة الرحيل إلى بغداد قد استهوتها فقد كانت وسيلة للفرار.

وقد عجلت فتزوجت بيل رأى على الفور ومن غير أن تحبه كما قال رودنى فما الذى حدث بعد ذلك؟

علاقة؟... حب تعس؟... مع الميجور ريد بالطبع. وفى هذا تفسير للارتباك الذى أحدثته جوان بمجرد ذكر اسمه. كانت الميجور ريد من الرجال هؤلاء الذين يفتنون فتاة ساذجة تزوجت زواجا غير سعيد.

وعندئذ تملكها اليأس وأصيبت بأزمة عنيفة الضيق الشديد الذى تتعرض لها منذ صغرها والتى تفقد فيها كل معانى التوازن فقد حاولت... نعم... حاولت أن تنتحر بالسم.

وتساءلت جوان إذا كان رودنى على علم بهذا الحب. ولكنها لم تلبث

أن اعترفت بينها وبين نفسها بأنه إذا كان على علم به حقا لمنعها من السفر إلى بغداد بكل تأكيد.

كلا. لم يكن رودنى على علم بهذا الأمر وإلا لكان قد اطلعها عليه. لربما لم يكن ليذكره لها ولكنه كان يبذل قصارى جهده ليمنعها من السفر.

ومع ذلك فلم يكن هناك ما يرغمها على أن تغير رأيها فإنها ما كانت إلا لتخف إلى نجدة ابنتها التعسة، على الرغم من كل شئ.

كان هذا دافعا مشرفا بالطبع.

ولكن ألم يكن ذلك مظهرا من مظاهر الحقيقة؟

ألم يستميلها جمال الرحلة وطرافتها؟.. والمغامرة والرغبة فى رؤية البلاد؟... وإغراء القيام بدور الأم ذات القلب الكبير. ألم تر نفسها فى صورة امرأة طيبة تفيض طيبة وإخلاصا ألم تتصور مقدما استقبال ابنة مريضة وزوج يضنيه القلق؟ الم تسمعهما مسبقا وهما يقولان ما أكرمك إذا قدمت هكذا سريعا.

ولكن الواقع انهما لم يغتبطا برؤيتها على الإطلاق.

وإذا هى توخت الصراحة فقد بدا عليها الوجوم.

وقد لقنا الطبيب ما يجب أن يقول بالطبع ولزما الصمت وبذلا جهدهما لمنعها من معرفة الحقيقة. وحرصا على ان لا تعرف اى شئ لأنهما لا يثقان بها. كانت بربارا لا تثق فى أمها. وقد كانت فكرتها الرئيسية هى إقصاء أمها.

وحدث عن ارتياحهما عندما أعلنتهما بأنه لابد لها من العودة. لقد عرفا كيف يخفيان سرورها تحت ألف اعتراض مهذب، عارضين عليها

أن تطيل مدة إقامتها ولكن ما أن واجهت هذه الفكرة حقا حتى أسرع ويليام فصرفها عنها بكل عزم وإصرار.

صفوة القول أن الخير الوحيد الذى نجم عن رحلتها هذه هو أنها قربت بين ويليام وبربارا بالمجهود المشترك الذى بذلاه معا لكى يتخلصا منها ويحتفظا بسرهما. وقد كان هذا أمرا غريبا، ولكن مما لا شك فيه إطلاقا هو أن إقامتها معهما كان فيها كل الخير لبربارا وزوجها، فقد تذكرت جوان أن ابنتها من ضعفها ووهنها كانت تنظر إلى زوجها مرارا عديدة فى توسل ورجاء. ويبدو أن ويليام فهم ما وراء هذا الرجاء الصامت لأنه اندفع فى فيض من الحديث فى موضوع تافه واتقى بهذه الوسيلة أسئلة جوان المتطفلة وكانت من نتيجة ذلك أن نظرات بربارا إلى زوجها فى امتنان رقيق.

وقد رأتهما جوان على الرصيف معا عند سفرها، وكان ويليام يساند بربارا ولم يكن هناك اى شك فى انه كان يقول لها:

– تشجعى يا عزيزتى... سنفرغ بعد قليل أنها راحلة.

ولا ريب انهما عادا إلى بيتهما بعد انطلاق القطار وآخذا يلهوان مع موسى، تلك الطفلة اللذيذة التى يعبدها كل منهما والتى هى صورة ناطقة من ويليام ولا ريب أن بربارا قد قالت:

– الحمد لله. أنها ذهبت أصبحنا هادئين.

مسكين ويليام... رثت جوان لهذا الرجل الذى يحب زوجته والذى تألم بسببها وظل محتفظا بوفائه لها واخلاصه وحبه على الرغم من كل شئ.

قالت لها بلانش:

– لا تنزعجى بخصوص بربارا.

إننى واثقة أنها ستكون على ما يرام، وسيصلح الطفل كل شئ بينهما.

يا لبلانش الباسلة أرادت أن تطمئن جوان على شئ لم يشغلها أبدا لأنها كانت متدثرة برداء من الشفقة المترفعة والاحتقار نحو صديقة الطفولة.

أحمدك يا ربى على أننى لست مثل هذه المرأة.

نعم. إن شفقتها ببلانش أملت عليها صلاة صغيرة.

وأنها الآن، وفى هذه الدقيقة بالذات على استعداد على أن تتنازل عن الكثير لكى تكون بلانش بجوارها.

بلانش... الطيبة القلب... المحبة، العطوفة... بلانش التى لم تحاول أبدا أن تدين أحدا...

كانت جوان قد تلت صلاتها فى محطة الترحيل فى ترفع وهمى، ولكن هل تستطيع أن تصلى الآن وهى تحس بهذا الذل الكبير... وهى عارية ومجردة من حجب الوهم التى تزينت بها طوال حياتها.

وتعثرت ووقعت على ركبتيها قائلة:

أغثنى يا ربى.

إننى أوشك على الجنون.

ارحمنى من الجنون.

امنعنى من أن أشط فى ذكرياتى.

لا تدعنى استمر فى التفكير.

وغطى الصمت على صلاتها.

الصمت والشمس ونبضات قلبها.

فكرت قائلة:

- إن الله تخلى عنى. لن يخف لنجدتى. أنا وحدى... وحدى تماما.

- وفى هذا الصمت المخيف... فى هذه العزلة الرهيبة...

جوان سكودامور.. الحمقاء التافهه المتكبرة.. وحدها فى الصحراء.

فكرت:

- لقد كان المسيح وحده فى الصحراء. أربعون يوما. وأربعون ليلة.

- كلا... كلا... ما من أحد يستطيع ذلك. ما من أحد يطيق مثل هذا العذاب.

- هذا الصمت... وهذه الوحدة.

وتملكها الخوف من جديد... الخوف من الفضاء الشاسع... وحدها... وحدها مع الله.

ونهضت واقفة فى مشقة كبيرة.

كان لابد لها أن تعود إلى محطة الترحيل... وان تهتدى إليها.

وان تعود إلى الهندى والغلام العربى والدجاجات الضامرة وكومة القمامة.

أن تعود إلى الجنس البشرى.

وألقت حولها نظرة مذعورة.

لم يكن هناك اثر لمحطة الترحيل ولا لمبنى المحطة ولا حتى للجبال فى الأفق.

لا ريب أنها ابتعدت اكثر من الأيام السابقة... مشت بعيدا جدا

بحيث فقدت نقاط الاستدلال العادية.

وزادها هلعا أنها لم تكن تعرف فى أية ناحية تقع محطة الترحيل.

على الأقل لا يمكن سلسلة الجبال الشاهقة قد اختفت ولكن الأفق كان يمتزج بالسحب... أهذه هى الجبال؟... أم هى سحب؟... كان يستحيل عليها التمييز بينهما.

أنها تاهت تماما.

ومع ذلك... ماذا يكون لو أنها اتجهت شمالا.. نعم... هو ذلك، يجب أن تتجه شمالا، مستعينة بالشمس.

ولكن الشمس كانت فوق رأسها تماما، ولم يكن هناك اى أمل فى الاهتداء إلى الطريق عن طريق الشمس.

تاهت... تاهت تماما... لن تستطيع العودة.

وفجأة، وفى انفعال كبير راحت تجرى.

من ناحية فى بادئ الأمر... ولكن لم يلبث الخوف أن تملكها فأسرعت تجرى فى الناحية المقابلة... وراحت تجرى ذات اليمين وذات الشمال مذعورة منزعجة.

وأخذت تبكى وتصيح وتصرخ:

– النجدة النجدة.

وفكرت:

– لن يسمعنى أحد... إننى بعيدة جدا.

وابتلعت الصحراء صياحها وبدا كانين خافت.

وعادت تقول:

- النجدة يا رودنى... أغثنى يا رودنى.

ولكن رودنى كان يبتعد على رصيف محطة فكتوريا وقد اعتلت كتفاه وانتصبت رأسه وقد سره أن غدا حرا لمدة أسابيع وان أحس بأنه عاد شابا من جديد.

ولم يعد بمقدوره أن يسمعها.

افريل إذن... هل تخف افريل إلى نجدتها؟

إننى أمك يا افريل... إننى ضحيت بنفسى من أجلك دائما...

كلا. إن افريل لتخرج من الغرفة فى هدوء وهى تقول:

- لا أستطيع شيئا من أجلك حقا.

تونى إذن؟... هل يخف تونى لنجدتها؟

أبدا انه لن يسرع إليها فهو فى أفريقيا الجنوبية. انه بعيد. بعيد جدا.

وبربارا؟... ولكن بربارا مريضة.. بربارا حاولت أن تنتحر بالسم.

وفكرت... ليزلى... ستخف ليزلى لنجدتى إذا استطاعت... ولكنها ماتت... أنها تألمت وماتت.

لا أمل إذن... لا أحد... ليس هناك أحد.

وراحت تجرى فى قنوط وبلا غاية ولا وجهة. تجرى لا لشئ إلا للجرى.

ونضح وجهها بالعرق... وكذلك قفاها... بل جسدها كله.

وقالت:

- إننى سأموت.

وفكرت:

- رباه... رباه.

سيجدها الله فى وسط الصحراء.

سيهديها الله إلى الطريق الوادى الأخضر.

الوادى الأخضر... الوادى الأخضر... كان لابد لها أن تهتدى إلى الوادى الأخضر بمفردها.

أن ذلك الوادى يشق طريقه حتى قلب كرايمنستر.

كلا. انه يؤدى إلى الصحراء.

الصحراء... أربعون يوما وأربعون ليلة.

وهى ليست هنا إلا منذ ثلاثة أيام.

وصاحت:

- رباه... أغثنى.

- رباه.

ولكن ما هذا الذى ترى؟

هناك، إلى اليمين... هذه النقطة الصغيرة فى الأفق...

ما هى؟...

هى المحطة... لم تضل طريقها إذن... إنها نجحت.

نجحت.

وتخاذلت ساقاها ووقعت ككتلة من اللحم.



الرغبة المؤلمة

وشيئا فشيئا استردت جوان رشدها.

أحست بأنها مريضة ومكتئبة.

وضعيفة... ضعيفة كطفل.

ولكنها نجحت... رأت محطة الترحيل... وبعد قليل، عندما تسترد قواها شيئا ما ستنهض وتعود.

ولكنها فى انتظار ذلك ستبقى مكانها فى هدوء، وسترتب أفكارها وترى الحقائق كما كانت من غير أن تخدع نفسها.

صفوة القول إن الله لم يتخل عنها.

لم يعد لديها هذا الإحساس الفظيع بالوحدة.

وقالت:

... ولكن يجب أن أفكر... يجب مواجهة الحقيقة. فأنا هنا لهذا السبب... لكى استخلص خاتمة لحياتى.

لقد سنحت لها الفرصة لكى تتعلم وتعرف دفعة واحدة أى نوع من النساء هى، جوان سكودامور.

ولهذا السبب جاءت بها الأقدار هنا فى الصحراء.

إن هذا النور القاسى سيكشف لها حقيقتها بقسوة وسيريها فى نور النهار حقيقة كل الأمور التى لم تشأ توضيحها والتى عرفتها تماما.

كانت أول إشارة ترجع إلى الأمس ولعلها يجب أن تعود إلى هذه النقطة كبداية، ألم يبدأ اضطرابها وفزعها من هذه اللحظة؟

كانت البداية عندما استظهرت هذا البيت:

عشت بعيدا عنك هذا الربيع.

إن هذا البيت جعلها تفكر فى رودنى، وقد أسرعت تقول عندئذ:

ولكننا الآن فى نوفمبر.

تماما كما قال رودنى فى تلك الليلة ولكننا الآن فى أكتوبر.

لقد نطق بهذه العبارة فى مساء اليوم الذى جلس فيه مع مسز شيرستون على مرتفعات اشلدون، فقد رأتهما جوان جالسين معا دون أن ينطق أحدهما بأية كلمة وقد رأت أن هذا الموقف منهما ليس وديا على الإطلاق.

ولكنها تعرف الآن... وكان يجب أن تخمن ذلك حقا...

كانت تعرف لماذا كانا جالسين أحدهما بعيدا عن الآخر.

رودنى وليزلى شيرستون.

ولم يعد هناك أى سبب فى الظن بميرنا راندولف.

لم تكن ميرنا راندولف بذى خطر أبدا. لقد اختلقت جوان نفسها أسطورة ميرنا راندولف لأنها كانت تعلم أن هذه الأسطورة لا تستند على أساس، وخلقت من ميرنا ستارا من الدخان ليخفى الحقيقة خلفه، ولأنه كان من السهل لها أن تنسب هذا الدور لميرنا راندولف عن أن تنسبه لليزلى شيرستون.

كانت كرامتها تتألم اقل وهى تنسب إلى رودنى إعجابا شديدا بميرنا راندولف لان ميرنا كانت جميلة، ولأنها كانت من نوع الفتيات اللاتى يحاولن إغراء واستمالة كل رجل تنقصه الإرادة وقوة المقاومة.

فى حين أن ليزلى شيرستون... لم تكن ليزلى جميلة حقا ولم تكن شابة، ولم تكن تعنى حتى بهندامها... ليزلى وقسمات وجهها المتعبة وابتسامتها الغريبة الملتوية... أن تعترف بان رودنى يمكن أن يحبها وان يحبها هذا الحب الملتهب بحيث لا يخاطر بالاقتراب منها إلا فى حدود أربع خطوات... هذا هو ما لم يطاوعها قلبها على الاعتراف به.

هذا الحب الجنونى،وهذه الرغبة المؤلمة غير المحققة، هذا الحب الجارف الذى لم تعرفه هى نفسها...

هكذا كان الموقف بينهما يوم اشلدون، وقد أحست به، ولأنها أحست به اتخذت طريقا آخر وعادت مسرعة وكلها خجل، رافضة أن تسلم فى قرارة نفسها ولو لمدة لحظة واحدة بالحقيقة التى كانت تعرها تماما.

رودنى وليزلى جالسين أحدهما يبعد عن الآخر بأربع خطوات، دون أن ينطقا بكلمة واحدة ودون حتى أن ينظر أحدهما إلى الآخر لأنهما لم يجرؤ على ذلك.

ليزلى أحبت رودنى حبا شديدا بحيث أرادت أن تدفن فى البلد الذى يقيم فيه.

ورودنى ينظر إلى بلاطة القبر ويقول:

ليزلى شيرستون تحت بلاطة من الرخام باردة... ما افظع هذه الحماقة وزهرة الرودندرون التى وقعت... سقوط هذه النقطة الصغيرة الحمراء.

قال رودنى:

- القلب يدمى... القلب يدمى.

ثم اللهجة التى قال بها:

إننى يا جوان... إننى منهوك القوى... ولهجته الغريبة بعد ذلك وهو يقول:

لا يتمتع أى شخص بمثل هذه الشجاعة.

وكان يعنى ليزلى وهو يقول ذلك... ليزلى وشجاعتها.

ليست الشجاعة كل شئ.

- حقا.

وانهيار رودنى العصبى... سببه موت ليزلى.

وتلك الفترة التى قضاها فى كورنواى والتى انقطع أثناءها عن العمل وبقى ممددا لا يشغله شاغل إلا الإصغاء لزقزقة العصافير، غير مكترث بأى شئ مبتسما ولكن فى خضوع واستسلام.

وتونى يقول فى صوت صبيانى وازدراء:

- ألا تفهمين أى شئ يتعلق بأبى؟

والواقع أنها لم تفهم رودنى إطلاقا لأنها عقدت العزم على تجاهله.

ورودنى يقول وهو يوليها ظهره أمام النافذة:

- إن ليزلى لا تفعل شيئا دون أن تتمه.

إلى أى شئ كانا ينظران وهما جالسان، أحدهما بجوار الآخر. هل كانت ليزلى تنظر إلى الورود والأشجار، وهل كان رودنى يفكر فى التنس وحوض الأسماك الحمراء... أو هل كانا يريان هذا المنظر

الحزين وبقعة الأشجار المظلمة فى الأفق التى تشرف على مرتفعات اشلدون؟

مسكين رودنى... مسكين رودنى... المتعب المكدور.

رودنى بابتسامته الرقيقة المشاكسة... رودنى وهو يقول:

مسكينة أنت يا جوان... محبة دائما ودائما وفيه وودودة.

ولكنها كانت زوجة طيبة. أليس كذلك؟

وضعت دائما مصالح زوجها قبل كل شئ آخر حذار... هل كان هذا صحيحا؟

رأت رودنى يتوسل إليها بنظرة... ورأت هذه النظرة الحزينة... هل كان دائما حزين النظرة؟

سمعت رودنى يقول:

- كيف كان فى وسعى أن اعلم إننى سأمقت حياة المكتب إلى هذا الحد؟...

وعيناه الحزينتان وهو يسألها:

- كيف تعرفين إننى ساكون سعيدا؟

رودنى متوسلا إليها أن تتركه يعيش العيشة التى يحلم بها... حياة الزراعة.

رودنى عند نافذة مكتبه يرى الماشية فى ميدان السوق رودنى يتكلم عن تربية الماشية مع ليزلى شيرستون.

رودنى يقول لافريل:

أن الرجل الذى لا يمارس المهنة التى يحبها لا يعرف للحياة معنى.

هى، جوان، التى أرغمت رودنى على كل هذا.

وحاولت، ينهشها القلق والاضطراب، أن تدافع عن نفسها ضد تقديرها الذاتى وضد اكتشافها الشخصى.

ولكنها تصرفت على احسن ما يكون. كان يجب أن تكون عملية، وكان يجب أن تفكر فى تربية الأولاد وتعليمهم. لم تعتمد على أسس أنانية.

ولكن كل هذه الجلبة بخصوص الدفاع الذاتى تلاشت وأمحيت.

ألم تفعل ما فعلت مدفوعة بضجر المعيشة فى الريف؟ أنها أرادت أن تمنح أولادها افضل ظروف الحياة... ولكن ما هى افضل الظروف؟

ألم يكن لرودنى نفس الحقوق التى لها فى تربية والأولاد؟

بل أليس له حق الأولوية؟... ألا يقع على عاتق رب الأسرة اختيار الطريقة المثلى لتربية أولاده، وعلى الأم الحرص على صحتهم متبعة نصائح رب الأسرة بكل حذافيرها.

كانت حياة الريف اصح حياة بالنسبة للأولاد طبقا لرأى رودنى.

ولا شك أن تونى كان يجد فيها سعادته.

وقد أصر رودنى على عدم مخالفة ميول تونى.

انه قال:

– ليس من رأيى إرغام الأولاد على غير ما يريدون.

ولكن ألم ترغم هى رودنى على غير ما يريد؟

قالت وقد عصف بها اللوم فجأة:

– ومع ذلك فإننى احب رودنى. احبه. وما أقدمت عليه لم اقدم

عليه لأننى لا احبه.

ولكنها أدركت الآن... والآن فقط أنها أقدمت على عمل لا يغتفر.

كانت تحب رودنى... ومع ذلك فرضت عليه إرادتها بالذات.

ولو أنها كانت لا تهتم به لكان الأمر اقل خطورة.

ولكنها كانت تحبه، ومع ذلك فقد حرمته من حق لا جدال فيه وهو اختيار دنياه ونوع حياته.

سحبت منه شيئا لن يسترده بعد ذلك أبدا، سحبته منه بدون حياء وبواسطة دموعها، وبمساعدة الطفل الذى كان فى أحشائها... سحبت منه جزءا من دوره ومن سلطاته كرجل.

لأنه كان رجلا هادئا ظريفا رقيقا فلم يحاول أن يقاوم لكى يدافع عن نفسه مع انه كان يعرف انه سيصبح حتى آخر يوم من حياته رجلا محروما يائسا.

وتأوهت فى أعماقها قائلة:

- رودنى... رودنى...

وفكرت:

- لا أستطيع أن أرد له ما حرمته منه... لا أستطيع إصلاح السوء الذى ارتكبته... لا أستطيع شيئا.

ومع ذلك فإننى احبه... احبه حقا.

واحب افريل وتونى وبربارا.

احبهم كلهم.

وأجاب ضميرها:

– ولكن ليس ما فيه الكفاية... لا احبهم كما كان يجب أن افعل.

وفكرت:

– رودنى... رودنى... ألا أستطيع أن افعل شيئا... ألا أستطيع أن افعل شيئا لكى اكفر عما بدر منى.

إننى عشت بعيدة عنك هذا الربيع.

قالت:

– نعم... إننى عـشت بعـيـدا جـدا... منذ وقت طويل... منذ البداية... منذ ربيع حياتنا.

بقيت كما أنا... كانت بلانش على حق... ظللت تلميذة مدرسة سانت آن الداخلية... أعيش بغير اكتراث... اكتفى بالأفكار السطحية، مغتبطة بنفسى، أخاف كل ما يمكن أن أتألم منه.

افتقر إلى الشجاعة.

وقالت:

– ما العمل... ما العمل الآن.

وخطر لها خاطر:

– أستطيع أن أكلمه... أستطيع أن أقول له:

– إننى اسفه فاصفح عنى.

نعم، هذا ما سأفعله، سأقول له:

– اغفر لى. لم اكن اعلم. لم اكن أدرى حقا.

ونهضت. وكادت ساقاها أن تخذلها، ولكنها استطاعت الاحتفاظ بتوازنها بصعوبة، ومشت فى خطوات بطيئة ويجهد شديد كامرأة

عجوز.

وكان السير شاقا. وراحت تحرك قدميها الواحدة بعد الأخرى بمجهود كبير.

وفكرت... رودنى... رودنى.

وأحست بانزعاج كبير... وبضعف اكبر.

ولم تنته المسيرة.

خرج الهندى من داخل محطة الترحيل وأسرع للقائها وقد انفجرت شفتاه فى ابتسامة كبيرة. واتى بحركة كبيرة وهو يصيح:

- نبأ طيب يا سيدتى... نبأ طيب.

نظرت إليه فى غباء فقال وهو يبسط ذراعاه:

- انظرى يا سيدتى... لقد اقبل القطار... القطار فى المحطة... ستأخذين القطار مساء اليوم.

القطار... القطار لكى تسرع إلى رودنى.

وسمعت نفسها تضحك بهمجية وجنون، فتفرس الهندى فيها باستغراب، واستردت رباطة جأشها وقالت:

- لقد اقبل القطار فى الوقت المناسب.



الانعتـاق

حسبت جوان نفسها فى منام...
نعم... فى منام حقا.

فقد اجتازت الأسلاك الشائكة وفى أعقابها الغلام العربى حاملا حقيبتها وسمعته يتكلم فى صوت خشن غليظ مع ناظر المحطة التركية، وهو رجل ضخم شاحب الوجه.

ثم عربة النوم التى تنتظر والمستخدم ببذلته الرسمية البنية اللون وهو ينحنى بالباب... واللافتة التى على العربة والتى تحمل هاتين الكلمتين (حلب- اسطنبول).

الرباط الذى يربط محطة الترحيل فى قلب الصحراء بالمدينة المتمدنة.

والاستقبال المهذب باللغة الفرنسية، والمقصورة المفتوحة أمامها والفراش بأغطيته الوثرية ووسادته الناعمة الملساء..

العودة إلى المدنية.

وظاهريا عادت جوان فغدت المسافرة الهادئة الفطنة.. مسز سكودامور التى غادرت بغداد منذ اقل من أسبوع.. كانت وحدها تعرف التغيير المدهش المريع الموجود تحت هذه الواجهة.

قالت أن القطار جاء فى الوقت المناسب تماما.. فى نفس الوقت

الذى أقامت فيه الحواجز الأخيرة وتغلبت به على خوفها ووحدتها.

رأت كما رأى آخرون غيرها فى عهود قديمة رؤيا... رؤيا منها هى نفسها، وعلى الرغم من مظهرها كإنجليزية عادية تهتم بأقل دقائق الرحلة كان قلبها وذهنها مستغرقين فى إذلال التائب الذى أملى عليها وسط الصمت وتحت الشمس.

أجابت على الهندى بطريقة إلية تقريبا، فقد سألها قائلا:

– لماذا لم تأت لتناول الغداء يا سيدتى.. أن الطعام ينتظرك.. وهو طعام شهى. إن الساعة توشك على الخامسة وقد فات موعد تناول الغداء فهل تتناولين الشاى؟

أجابت قائلة:

– نعم. سأتناول الشاى.

– ولكن أين ذهبت يا سيدتى؟.. إننى بحثت عنك فى كل مكان ولم أجدك. لم اعرف أين ذهبت يا سيدتى..

قالت أنها ذهبت بعيدا.. ابعد مما يجب.

– هذا طيش كبير.. هل ضللت الطريق يا سيدتى؟

أجابت بأنها ضلت الطريق وأنها لحسن الحظ لم تلبث أن اهتدت إليه من جديد أنها تود أن تتناول الشاى الآن ثم تستريح قليلا.. فى أية ساعة سينطلق القطار؟

– فى الساعة الثامنة ونصف. وفى بعض الأحيان ينتظر حتى وصول القافلة. ولكن ليست هناك قوافل اليوم فان المخاضة سيئة لا يمكن عبورها.

وإذ هزت جوان راسها أردف يقول:

- انك متعبة جدا يا سيدتى. هل أنت محمومة؟

أجابت:

- كلا. لست محمومة... لست محمومة على الإطلاق.

- ولكنك تبدين متغيرة يا سيدتى..

- نعم إننى متغيرة الآن... متغيرة جدا. ولعل التغيير يبدو على وجهى.

ومضت إلى غرفتها وسألت المرآة التى لوثها الذباب.

هل كان التغيير ظاهرا؟.. إنها شاخت بدون شك وازرقت عيناها وعلا الغبار بشرتها وتشرب بالعرق.

وغسلت وجهها ومشطت شعرها وتزينت وخضبت شفتيها ثم عادت تنظر إلى المرآة من جديد.

نعم، إنها تغيرت حقا.. هذا الوجه الذى يتفرس فيها بهذه الخطورة فقد شيئا... ما هو؟.. فقد سمته المتكبرة.

إنها كانت متكبرة إلى حد بغيض.. ومازالت تحس حتى الآن بهذا التقزز الشديد الذى تملكها هنا فى الصحراء وبكراهية لنفسها وخزيها الذهنى المفاجئ..

فكرت:

- رودنى.. رودنى..

وأحست بالهدوء وهى تكرر اسم زوجها فى رفق..

وتشبثت به كرمز آمل اتخذته من قرار، ستعترف لرودنى بكل شئ من غير أن تراعى نفسها. هذا هو ما يجب أن تفعله.

سيبدأن حياة جديدة من جديد بقدر ما يسمح به سنها. ستقول له:

- إننى حمقاء عاجزة فعلمنى بحكمتك ورقتك.. علمنى كيف أعيش..

ثم تطلب منه الصفح بعد ذلك لان رودنى يجب أن يغفر لها الكثير وانه لأمر رائع انه لم يكرهها؟. لا عجب إذن أن يكون رودنى محبوبا ومعبودا من أولاده؟ إن افريل نفسها على الرغم من مناقشتها مع أبيها لم تكف عن حبه، ولا عجب إذن أن يفعل الخدم كل ما يروق له وان يشعروا من نحوه بكل الحب والود. إن رودنى قد عامل الجميع بكل طيبة وكل ود.

تنهدت. كانت مرهقة. شديدة الإرهاق... وشربت القهوة ثم استلقت فوق فراشها حتى وقت العشاء والذهاب إلى القطار.

لم تشعر بقلق أو خوف ولم تحاول أن تهتم ماذا تفعل أو كيف تشغل وقتها، ولم تعد ترى سحالى تخرج من جحورها لكى تزدرى بها.

فقد تكشفت لها حقيقتها وتجلى لها كيانها الحقيقى.

لم تكن تهوى الآن إلا أن تستريح، مستلقاة خالية الذهن هادئة فى أعماق روحها صورة مضطربة لرودنى بمظهره الطيب الحزين.

وإذ جلست فى مقصورتها الفت نفسها فى نفس حالتها هذه. كانت قد سمعت التقرير الضافى لسائق القطار عن حادث الخط الحديدى وأعطته جوازها وتذاكرها وأخذت منه وعدا بان يبرق إلى اسطنبول لكى يحجز لها مكانا فى قطار الشرق، وعهدت إليه كذلك ببرقية ليرسلها من حلب إلى رودنى تقول فيها (تأخرت عن السفر... كل شئ على ما يرام لك حبى، جوان).

سيتسلمها رودنى قبل الموعد الذى يتوقع عودتها فيه.

وهكذا تمت كل الترتيبات ولم يعد هناك ما تفعله أو تتكهن به. واصبح فى مقدورها أن تسير مع الحياة كطفل متعب.

كان أمامها خمسة أيام تقضيها فى راحة وهدوء وأمان، فى قطار التوروس (ثم قطار الشرق الذى يقربها فى كل لحظة من رودنى ومن الصفح والغفران).

ودخل القطار محطة حلب فى فجر اليوم التالى.. وكانت هى المسافرة الوحيدة بسبب انقطاع المواصلات مع العراق، ولكن لم يلبث القطار أن ازدحم فى حلب فان التأخيرات والإلغاءات والأوامر المضادة فى حجز الأماكن تسببت فى فيض من الصيحات والاحتجاجات والمطالبات والمشاحنات بجميع اللغات.

وكانت جوان تسافر فى الدرجة الأولى ولكن عربات النوم بقطار التوروس كانت من نمط قديم تضم كل مقصورة فراشين، فلم يلبث أن فتح باب مقصورتها ودخلت سيدة ترتدى ثيابا سوداء وراح الكمسرى يلتقط من النافذة الحقائب التى كان بعضهم يناولها إياها.

ولم تلبث أن بدت المقصورة مزدحمة بحقائب فخمة منقوش عليها رسم تاج.

وكانت المسافرة تتكلم بالفرنسية مع الكمسرى، وارته أين يضع الحقائب ثم انصرف الرجل وعندئذ التفتت إلى جوان وهى تبتسم وقالت بلهجة أجنبية:

– هل أنت إنجليزية؟

كانت ذات وجه طويل شاحب فيه فتنة وعينين زرقاوين جميلتين أعطتها جوان نحو خمسة وأربعين عاما تقريبا.

– اعذرى لى تطفلى هذا ونحن فى الفجر. ولكن القطار يمر هنا

فى ساعة غير مناسبة حقا، وقد أزعجتك أثناء نومك. ولسوء الحظ أن القطار من القطارات القديمة، ولكن على الرغم من هذا وابتسمت، وبدت ابتسامتها هذه المرة اقرب إلى ابتسامة الأطفال، لن نشعر باى ضيق معا. إننا لا نبعد عن اسطنبول إلا يومين ولست مخبولة على الإطلاق، وإذا أفرطت فى التدخين فاغفرلى لى ذلك، ولكننى سأتركك ترقدين الآن. إننى ذاهبة إلى عربة الأكل، وسأنتظر وجبة الإفطار هناك. أرجو أن تعذرينى مرة أخرى لإزعاجى إياك..

– أرجوك. لا داعى للاعتذار. يجب توقع المفاجآت فى السفر.

– أرى انك متفاهمة. هذا افضل.. سنتفاهم تماما..

وخرجت. وفيما هى تسحب الباب خلفها لكى تغلقه سمعت جوان صيحات أصدقائها وهم يحيونها ويدعونها قائلين (ساشا.. ساشا..) ثم أطراف من حديث يجرى فى طلاقة بلغة أجنبية.

صحت جوان تماما وأحست بالهدوء وراحة البال.

وكانت تنام نوما طبيعيا دائما فى القطار. ونهضت وارتدت ثيابها، وعندما غادر القطار محطة حلب كانت قد فرغت تقريبا من زينتها. وما أن انتهت منها حتى خرجت ولكنها ألقت قبل ذلك نظرة إلى حقائب زميلتها الأميرة هوهنباك سالم.

ووجدت هذه الأخيرة فى عربة الأكل جالسة أمام طعام الإفطار تتبادل حديثا حادا مع فرنسى بدين.. وحيت الأميرة جوان بحركة من يدها وأشارت إلى المقعد الخالى بجانبها وصاحت:

– ما أشجعك. لو أننى كنت مكانك لرقدت من جديد. ولكن استمر يا مسيو بوديه. إن حديثك شجى جدا.

وكانت الأميرة تتكلم بالفرنسية مع مسيو بودييه وبالإنجليزية مع

جوان، وكانت تتكلمها بطلاقة، وبالتركية مع الساقى وكانت من وقت لاخر تتبادل بعض الكلمات، بطلاقة كذلك، باللغة الإيطالية مع ضابط إيطالى كئيب السحنة.

وفرغ الفرنسى البدين من حديثه وانصرف وهو يحيى الأميرة وفى أدب، وقالت جوان:

– انك تتحدثين لغات كثيرة.

ابتسم الوجه الطويل الشاحب ابتسامة يشوبها الحزن وقالت صاحبته:

– للضرورة أحكام. فأنا روسية كما تعلمين، وقد تزوجت ألمانيا وأقمت مدة كبيرة فى إيطاليا وأجيد التحدث بثمانى أو تسع لغات على الأقل. ويروق لى أن أتحدث فان كل الكائنات البشرية تثير اهتمامى والحياة قصيرة جدا، يجب أن نتبادل الحديث والآراء، ومن رأيى انه ليس على الأرض ود كثير. إن أصدقائى يقولون لى (ساشا) من المحال أن تحب بعض الناس.. الأتراك والأرمن والشرقيين. ولكنى عند رأيى.. أن كل الناس تثير اهتمامى. جارسون، الحساب.

أسرع الجرسون إلى الأميرة بكل احترام، وتأكدت جوان عندئذ أن زميلة السفر شخصية لها شأنها فى الوسط الراقى.

وانطلق القطار طوال الصبحية وبعد الظهر فى طرقات ملتوية متعرجة فى طريقه إلى جبال توروس.

وجلست ساشا فى مقعدها تدخن وتنطق ما بين وقت وآخر بكلمة على غير انتظار تثير الارتباك والحيرة فى بعض الأحيان. وتحملت جوان شيئا فشيئا سحر هذه المرأة الغريبة الأطوار التى أتت من دنيا تتعارض مع دنياها والتى يختلف ذهنها عن كل من عرفتهم حتى هذا اليوم.

وقالت ساشا عرضا:

- الا تقرئين؟.. وليس معك عمل يدوى أو تريكو تشغلين به وقتك، وهذا أمر نادر بالنسبة لإنجليزية مثلك.

ابتسمت جوان وقالت:

- إننى قرأت كل ما لدى، فقد بقيت بضعة أيام فى تل أبو حميد لا أستطيع حراكا بسبب الفيضان.

- ولكنك تستغنين عن القراءة بسهولة. ألم تشعرى بأى رغبة فى شراء كتاب من محطة حلب؟ كلا انك مسرورة بقضاء الوقت من غير عمل وبرؤية الجبال وهى تمر أمام عينيك. ومع ذلك فانك لا ترينها. أن ما ترينه لا يراه أحد غيرك. أليس كذلك؟ انك تستوعبين فى نفسك غراما كبيرا أو لعلك تجترين ذكراه.. انك تضمين بين جوانحك حزنا كبيرا أو سعادة كبيرة..

ترددت جوان وهى تقطب جبينها فقهقهت ساشا وقالت:

- آه. أرى انك إنجليزية تماما. انك تعتبرين سؤالى هذا تطفلا. أما الروس فيجدونه عاديا. إن عقلية الإنجليز عقلية غريبة حقا. لو إننى سألتك من أين تأتين وفى أى فنادق كنت تقيمين وما هى المناظر التى رأيتها، وهل لك أولاد وماذا يفعلون وإذا كنت قد سافرت كثيرا أو إذا كنت تعرفين حلاقا ماهرا فى لندن فانك تبادرين فى الرد على كل هذه الأسئلة.. ولكن إذا ألقيت عليك الأسئلة التى تخطر بذهنى، هل تشعرين بحزن كبير، وهل زوجك مخلص لك وهل لك عشاق كثيرون، وهل تؤمنين بالله فان كل هذه الأسئلة تثير غضبك وتجرح شعورك ومع ذلك فان كل هذه الأسئلة أهم بكثير من الأخرى.

قالت جوان فى هدوء:

– اعتقد أننا شعب متحفظ قليلا.

– نعم. فان مثل هذا السؤال من خصائص الأمور.

– كلا، ولا أرى لماذا. إننى التقيت ذات يوم بصديقة لم اكن قد رأيتها منذ سنوات، وهى هنغارية وقلت لها:

– (ميتزى. انك متزوجة منذ وقت طويل ولم تنجبى أولادا فكيف هذا؟ فاجابتنى بأنها لا تفهم لماذا حقا، مع أنها بذلت المستحيل هى وزوجها.. وإذا كان لدى ما انصحها به فإنها على استعداد لان تسمع لنصيحتى.. ودار هذا الحديث ونحن على المائدة مع جمع من الأصدقاء، وراح كل منا يقدم مشورته وأكد البعض أن وصفته لن تخيب. ومن يدرى؟ لعل إحدى هذه الوصفات تفلح.

بقيت جوان متشككة جامدة الأعصاب.

ولكنها أحست فجأة بالرغبة فى أن تفتح قلبها لهذه المرأة الأجنبية التى أظهرت نحوها مثل هذا الود الغريب، وكانت لديها رغبة ملحة لكى تروى لها الأزمة التى مرت بها حتى تتأكد، إذا جاز هذا القول بان هذه الأزمة قد وقعت حقا.. وقالت فى شئ من الصعوبة:

– انك أصبت التخمين، فإننى قضيت أياما عصيبة.

– آه، حقا؟ وكيف ذلك؟.. أمع رجل؟

– كلا... أوه... كلا... أبدا. كنت وحدى فى محطة الترحيل بتل أبو حميد، وهو مكان فظيع مملوء بالذباب والقاذورات والأسلاك الشائكة، وتخيم به عتمة كئيبة... ولم يكن هناك من أتحدث إليه، وكنت قد فرغت من قراءة الكتب التى لدى وأصبت... بحالة من الاضطراب الشديد.

- أوه... هذا ممكن الحدوث. انك تثيرين اهتمامى بطريقة غريبة. وإذن؟

- انتهى بى الأمر إلى أن اكتشف أمورا غريبة تكتنف بى. وان افهم أمورا أخرى كنت أجهلها... أو أمورا كنت اعلم بها ولكننى لم اكن أريد التسليم بها. لا يمكننى أن أفسر لك...

- بل تستطيعين. فليس هناك اسهل من ذلك. إننى أفهمك تماما.

أظهرت ساشا اهتماما طبيعيا وصادقا بحيث أن جوان اندفعت بالغريزة فى اعترافاتها وتجد ساشا من الطبيعى أن تتحدث عن مشاعرها وأحاسيسها الخاصة بحيث أن جوان تأثرت بها ونسيت ترددها شيئا فشيئا وراحت تتكلم بدون تحفظ.

- إننى واثقة إننى أبدو لك سخيفة ولكننى أحسست تماما بالضياع وبان الله تخلى عنى وأصبحت وحدى.

- نعم. إن كثيرين غيرك مروا بهذه المحنة... وانه لأمر فظيع أن يتخبط المرء هكذا فى الظلام.

- لم اكن أتخبط فى الظلام، بل كنت أعانى، على العكس من النور.. النور الشديد القاسى.. لا أجد أحدا ألجا إليه ولا ظلا احتمى به.

- الأمر سيان. كان الضوء الشديد بالنسبة لك عذابا لأنك عشت طوال عمرك وأنت تخفين الحقيقة وتصونينها وتدفنينها فى الظل... أما أنا فكنت أتألم من الظلام، لا أستطيع أن أميز طريقى وأحس بأننى ضائعة فى وسط الليل. ولكن المحنة واحدة.. انه الإحساس بان كل شئ قد اخفق وان الله يتخلى عنك.

واستطردت جوان تقول فى بطء:

– وفجأة وقعت المعجزة... وفهمت كل شئ... أدركت ماذا كنت وماذا فعلت... كل أعذارى الكاذبة وأوهامى بانت على حقيقتها وإننى... أظن أننى ولدت من جديد فى شخص امرأة أخرى...

ونظرت إلى جارتها فى قلق، فخفضت ساشا رأسها ولم تنطق فعادت تقول:

– وعندئذ أدركت واجبى... وهو يملى على أن أعود إلى بيتى وان أغير كل شئ... وان ابنى حياتى من جديد وأبدا من الصفر.

وقعت هذه الكلمات فى جوف الصمت. ونظرت ساشا إلى جوان فى تفكير وأحست هذه الأخيرة بشئ من الارتباك وقالت فى حياء:

– أوه... اعترف أن قصتى هذه تبدو ميلودرامية ومفرطة...

قاطعتها ساشا قائلة:

– كلا. كلا. انك لا تفهميننى... إن أزمتك تبدو لى قريبة الاحتمال، فقد وقعت لغيرك... وقعت للقديس بول ولغيره من القديسين... ولكثير من الناس الخطاة... إنها تحول وكشف للحقيقة وترى النفس تواضعها وفتورها. نعم، هذا صحيح تماما. ولكننى أتساءل مع ذلك...

– أحس تماما بأننى كنت باردة القلب نحو شخص احبه.

– نعم. وتشعرين بالندم؟

– ولهذا فإننى أتلهف للوصول إلى البيت. أريد أن أتحدث إليه وان أقول له...

– من نعنين؟... زوجك؟

– نعم. كان كريما دائما، شفوقا جدا. ولكنه لم يكن سعيدا... لم أسعده.

- وتعتقدين انك الآن تفلحين فى إسعاده.

- يجب على الأقل أن اشرح له... وان يعرف كم أحس بالندم، وان يساعدنى... أوه... كيف اشرح لك؟... سأقول له أننا سنبدأ من جديد.

قالت ساشا بلهجة الجد:

- إن القديسين يفلحون فى ذلك.

أجفلت جوان وقالت:

- ولكننى لست قديسة.

- هذا هو ما أفكر فيه.

وفكرت ساشا لحظة ثم أردفت بلهجة أخرى:

- أرجو أن تعذرينى فقد أخطئ...

بدت الحيرة على جوان شيئا ما، وأشعلت ساشا سيجارة أخرى أخذت منها بضعة أنفاس سريعة وهى تنظر من النافذة. وقالت جوان فى ارتباك:

- لا أدرى لماذا قلت لك ذلك.

- لأنك كنت تريدين أن تطلعى أحدا عليه من غير شك. وان تتكلمى عنه. كان الأمر يلح عليك، وكنت تتلهفين إلى أن تتحررى... وهذا أمر طبيعى.

- إننى فى العادة امرأة متحفظة.

طربت ساشا لهذه الملاحظة وقالت:

- وأنت فخورة جدا بتحفظك هذا، مثلك فى ذلك مثل جميع الإنجليز... أوه... ياله من جنس غريب. محتشم جدا. تربكه فضائله

اشد الارتباك ومستعد دائما إلى الاعتراف والجهر بنقائصه.

قالت جوان فى توتر:

- يبدو لى انك تبالغين قليلا.

وأحست فجأة بأنها بريطانية قحة ومختلفة جدا عن هذه المرأة الأجنبية ذات الوجه الشاحب التى تبادلها الحديث فى الركن المقابل من المقصورة... مختلفة جدا عن هذه المرأة التى أطلعتها منذ لحظة على سرها.

وعادت تقول بلهجتها الإنجليزية العادية:

- هل حجزت لك مكانا فى قطار الشرق؟

- كلا. فإننى سأقضى الليلة فى اسطنبول ثم انتقل منها إلى فينيا.

وأردفت تقول فى غير اكتراث:

- وقد أموت هناك فهذا شئ محتمل الوقوع.

ترددت جوان وقالت فى ارتباك:

- هل... هل تحسين بهاجس ما؟

أجابت ساشا وهى تضحك:

- كلا طبعا. كلا، ليست المسالة مسالة هاجس ولكننى ذاهبة إلى فينيا لإجراء عملية... عملية خطيرة جدا... لا تفلح إلا نادرا... ولكننى اعرف جراحين ممتازتين فى فينيا... والجراح الذى اقصده بارع جدا.

- أوه... كيف يمكنك أن... يا للفظاعة.

- أن أفكر أننى قد أموت... ولكن ما الأهمية؟... إننا سنموت جميعا ذات يوم. وقد لا أموت هذه المرة. وإذا نجحت العملية ولم أمت

فإننى أفكر فى دخول الدير وفى الانتظام تحت نظام صارم جدا حيث لا كلام ولا حديث ولا شئ غير التأمل والصلاة.

لم تستطع جوان أن تتصور إن ساشا يمكن أن تعيش طوال حياتها فى الصمت والتأمل. واستطردت ساشا تقول:

- سيكون العالم بحاجة إلى الصلاة بعد قليل بسبب الحرب.

أجفلت جوان وقالت:

- الحرب؟

هزت ساشا رأسها وأجابت:

- نعم. بدون شك. فقد تندلع الحرب فى العام القادم أو الذى يليه.

قالت جوان:

- أظن انك مخطئة.

- كلا. كلا. إن لى اصدقاء مطلعين. وقد أكدوا لى ذلك.

- ولكن أين تندلع الحرب؟... وضد من؟

- ستكون حربا عالمية بين كل الدول. وطبقا لأصدقائى ستنتصر ألمانيا حالا ولكنى لا اعتقد ذلك إلا إذا كسبت المعركة بسرعة مذهلة. أننى اعرف كثيرا من الإنجليز والأمريكان وستكون لهم الكلمة الأخيرة.

قالت جوان غير مصدقة:

- لا يمكن لأحد أن يريد الحرب حقا.

- لماذا تكونت إذن حركة الشباب الهتلرى؟

أجابت جوان فى اقتناع:

- إن لى أصدقاء يذهبون كثيرا إلى ألمانيا وهم يرون أن للنظام

النازى جوانب كثيرة طيبة.

صاحت ساشا:

- أوه... أوه... سوف يغيرون رأيهم هذا بعد ثلاث سنوات.

ووقف القطار فى هذه اللحظة مرة واحدة فدفعها إلى الأمام.

وقالت:

- آه. إننا بلغنا أبواب سيليسيا. هذا رائع، أليس كذلك. هلمى بنا نرى المنظر.

وهبطنا من القطار وتأملنا، عبر فتحة كبيرة فى سلسلة الجبال الوادى الأزرق الذى يمتد أمامها ويختفى فى جوف الضباب.

وكان الليل يهبط والنسمة جميلة هادئة وقالت جوان تحدث نفسها:

- ما اجمل هذا وما أروعه.

وندمت على أن رودنى لم يكن بجانبها ليستمتع بهذا المنظر الجميل.



فرحة العودة

محطة فكتوريا ... أحست جوان أن قلبها يركض بين ضلوعها ... ما أسعدها وما اشد فرحتها بعودتها.

نسيت رحلتها تماما لمدة لحظة وراحت تتأمل فى إعجاب كبير بريطانيا العظمى، بلدها ما اجمل الحمالين الإنجليز. لم يكن الطقس جميلا ولكنه هو نفس الطقس الذى إعتاده الإنجليز. طقس جميل مشبع بالضباب.

ومحطة فكتوريا ... خالية من الروعة والجمال، ومع ذلك فهى المحطة الجميلة العزيزة العادية بمناظرها المألوفة وشذاها المعروف.

وقالت جوان:

- أوه... ما أسعدنى بعودتى. بعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة بين تركيا وبلغاريا ويوغسلافيا وإيطاليا وفرنسا، وبعد زيارة الجمارك وفحص جواز السفر، وبعد أن رأت الأزياء المختلفة وسمعت الكثير من اللغات الأجنبية شعرت بالتقزز... نعم، بالتقزز من كل ما هو أجنبى... حتى تلك المرأة الغريبة... تلك الروسية التى شاركتها مقصورتها من حلب حتى اسطمبول انتهت بان أزعجتها شيئا ما. كانت قد أثارت اهتمامها فى البداية بصفتها عينة من جنس مختلف عن جنسها.

ولكن ما أن بدا القطار يسير بمحازاة بحر مرمرة نحو حيدر باشا حتى راحت جوان تهفو إلى لحظة الفراق. أحست فى البداية بضيق لأنها اطلعت امرأة أجنبية على سرها وكشفت لها عن حياتها الخاصة، ثم انه كان من العسير أن تحدد شعورها ولكنها أحست إنها ريفية بما لا يقبل الجدل بالمقارنة لديها... وهو شعور بغيض، فلم يجدها إطلاقا أن تقول لنفسها انه على ما هى عليه من ريفية يمكن أن تقف فى وجه أى كائن كان. لم تقتنع بذلك وقد انزعجت إذ لحظت أن ساشا كانت رقيقة جدا بالطبع ولكنها على الرغم من ذلك كانت أرستقراطية فى حين أنها هى نفسها لم تكن اكثر من برجوازية صغيرة متواضعة... زوجة محام ببلدة صغيرة... ولكن هذه الفكرة كانت سخيفة.

ومهما يكن فقد قلبت الصفحة الآن، وعادت إلى بلدها ووطئت ارض الوطن.

لم يكن هناك من ينتظرها فى المحطة لأنها لم ترسل برقية إلى رودنى، ولذلك لم يكن يعرف متى تعود.

أحست بالرغبة بان لا تراه إلا فى البيت. كانت تريد أن تدلى إليه باعترافها على الفور من غير أن يتمكن من مقاطعتها أو منعها من ذلك، وسيكون الأمر سهلا إذا ما تم هذا الاعتراف فى البيت.

فلا يتصور أحد أن تقدم امرأة على طلب الصفح والغفران من زوجها بمجرد هبوطها من القطار على رصيف محطة فكتوريا المزدحم بالمسافرين، ثم انه مكان غير لائق لمثل هذا الاعتراف.

كلا، ستقضى ليلة فى فندق جروسفينور لكى تهدئ من روعها ثم

تهبط فى صباح اليوم التالى إلى كرايمنستر.

وتساءلت هل تحاول أن ترى افريل قبل ذلك... سوف تتصل بها عن طريق التليفون.

ومضت قدما إلى الفندق يتبعها الحمال بحقائبها الخفيفة.

وأخذت حماما وبعد أن تزينت اتصلت بابنتها. وكانت افريل لحسن الحظ موجودة بالبيت.

- أهذه أنت يا أماه؟... متى عدت؟

- عدت بعد ظهر اليوم.

- هل بابا فى لندن؟

- كلا. انه لم يعرف بعودتى بعد. لعله كان يسرع للقائى وخشيت أن يزعجه ذلك ويترك ما لديه من أعمال.

خيل لجوان أن لهجة افريل يشوبها شئ من الدهشة وهى تقول:

- نعم. لا ريب انك على حق. كان لديه عمل كثير فى الأيام الأخيرة.

- هل رأيته كثيرا أثناء غيابى؟

- كلا. جاء إلى لندن ومضى يوما فيها منذ ثلاثة أسابيع وتناولنا الغداء معا.

ماذا تفعلين الليلة يا أماه؟ هل تريدين أن تأتى إلى المطعم لتناول العشاء معى؟

- بل افضل أن أراك هنا إذا ما لم يكن فى هذا أى إزعاج لك يا عزيزتى، فان الرحلة أرهقتنى شيئا ما.

- هذا أمر طبيعى. حسنا. سأتى على الفور.

- هل يأتى إدوارد معك؟

- كلا. إن لديه اجتماعا الليلة.

أعادت جوان السماعة مكانها وراح قلبها يدق باسرع من ذى قبل. وقالت افريل... ابنتى افريل...

كم كان صوت افريل باردا متهربا... كانت تتكلم بهدوء وبلا مبالاة.

وبعد نصف ساعة اتصل بها موظف الفندق وقال أن مسز هاريسون ويملوث فى انتظارها بالقاعة، فأسرعت بالهبوط.

وتعانقت الأم والابنة بهذا التحفظ الإنجليزى المعهود، وبدت افريل فى صحة جيدة، وأحست جوان بالفخر والتأثر وهى تدخل مطعم الفندق مع ابنتها، فقد كانت افريل جميلة جدا فى الواقع.

وجلست الأم والابنة أمام المائدة، والتقت عينا جوان بعين افريل وسرت فى بدنها رعشة.

فقد كانت نظرة افريل باردة تنطق بعدم الاكتراث.

لم تتغير افريل، تماما كما لم تتغير محطة فكتوريا. وقالت جوان:

- أنا التى تغيرت... ولكن افريل لا تعرف ذلك.

وسألتها افريل عن أنباء بربارا، وطلبت منها وصفا لمدينة بغداد

فسردت جوان عليها أحداث رحلة العودة. ولم يكن الحديث سهلا، فقد سألتها افريل عن أنباء بريارا بطريقة سطحية، وبدا أنها أحست أن الأسئلة المحددة سيكون فيها فضول وتطفل، ومع ذلك فإنها ما كانت لتستطيع أن تعرف شيئا من الحقيقة... كلا. اكتفت بان احتفظت بطابعها العادى وعدم اكتراثها المهذب.

وقالت جوان تحدث نفسها فجأة:

- الحقيقة... وكيف اعرف أنها الحقيقة؟... ألا يمكن أن يكون هذا وهما منى. مهما يكن فليس هناك أدلة ملموسة.

أبعدت عنها هذا الخاطر، ولكن بمجرد انه مر برأسها هز كيانها. كيف تعرف إذا لم تكن من هؤلاء الناس الذين تقع لهم نزوات؟

وقالت افريل بصوتها المرح:

- إن إدوارد مقتنع بان الحرب مع ألمانيا وشيكة الوقوع.

استردت جوان سرعة بديهتها وأجابت:

- قالت لى زميلة فى السفر. وكان يبدو أنها واثقة من ذلك وأنها على اتصال بناس يعلمون بما يجرى فى العالم. أما أنا فلا أستطيع أن اصدق ذلك، فان هتلر لن يجرؤ على بدء الأعمال الحربية.

قالت افريل فى إيجاز:

- لا أدرى.

ما من أحد يريد الحرب يا عزيزتى.

– أوه... إن الإنسان لا يفعل دائما ما يريد.

قالت جوان فى تأكيد:

– أرى أن هذا الموضوع شديد الخطورة. سينتهى بنا الأمر إلى أن نصدق ذلك.

ابتسمت افريل، ودار بينهما حديث فاتر وإذ فرغتا من تناول الطعام تثاءبت جوان فأسرعت افريل تقول انها لا تريد إطالة الأمسية خشية من إرهاق أمها. واعترفت جوان بأنها متعبة جدا فى الواقع.

وفى صباح اليوم التالى قامت بشراء بعض المشتروات ثم استقلت قطار منتصف الساعة الثالثة إلى كرايمنستر ويبلغها بعد الرابعة بقليل.

ستنتظر رودنى فى البيت وتراه وهو عائد من المكتب فى ساعة تناول الشاى.

وقامت برحلتها وهى تنظر من النافذة فى غبطة وسرور. لم يكن المنظر بذى أهمية فى الموسم الحالى فقد كانت الأشجار عارية وكان هناك رذاذ خفيف يهبط فى جوف الضباب. ولكن كان كل ذلك طبيعيا ومألوفا لها.

بغداد بأسواقها الصاخبة ومساجدها ذات القباب الزرقاء والذهبية اللون أمحت من ذاكرتها واختفت. لعلها لم ترها أبدا. هذه الرحلة الطويلة وهذه الرؤيا الغريبة، وسهول اناتوليا والجليد وجبال طوروس والهضاب العالية القاحلة والقطار وهو ينطلق خلال المضايق الصخرية

فى طريقه إلى البوسفور والى اسطنبول ومآذنها، والعربات الغريبة التى تجرها الأبقار فى البلقان، وإيطاليا وبحر الادرياتيك وسويسرا وجبال الألب عند هبوط الليل... هذا المنظر المختلف وهذه الديكورات المتتابعة... كل هذا انتهى إلى هذه العودة خلال موسم الشتاء الهادئ.

وعادت تقول:

– لعلنى لم أسافر أبدا. ولعلنى لم اذهب إلى الخارج.

واستولى عليها الاضطراب وعجزت عن ترتيب أفكارها وتنسيقها، فان رؤية افريل مساء الأمس جعلها تراجع نفسها وتعيد موقفها... هاتان العينان الباردتين اللتان تتفرسان فيها وهذه النظرة الهادئة غير المبالية... وفكرت أن افريل لم تجدنى قد تغيرت، ولكن كيف كان يمكن لافريل أن تلحظ هذا التغيير؟

مظهرها الطبيعى هو الذى لم يتغير. وتمتمت تقول فى رقة كبيرة:

– رودنى.

واشتعلت الجذوة الداخلية وعاد الأسى إليها بلهفة شديدة للحب والغفران.

وفكرت قائلة:

– ولكن هذا صحيح. صحيح تماما. إننى أبدا حياة جديدة.

واستقلت سيارة أجرة وخرجت من المحطة.

وفتحت أجنس لها الباب، وأظهرت دهشة ومرحا مخادعين وقالت:

- سيغتبط سيدى.

وصعدت جوان إلى غرفتها وخلعت قبعتها ثم هبطت. كان الصالون يبدو عاريا شيئا ما لان الزهور تنقصه. وقالت:

- سأقطع بعض الأوراق غدا واشترى بضع زهور من القرنفل.

وراحت تزرع ارض الغرفة جيئة وذهابا وهى فريسة انفعال شديد. هل تقول لرودنى ما خمنته بخصوص بربارا؟... ولكن إذا ما لم يكن ذلك؟..

نعم، حسنا... إذا لم يكن ذلك صحيحا... وإذا كانت قد اختلقت كل هذه القصة... إنها زيفت هذه القصة استنادا لما ذكرته لها تلك الحمقاء بلانش هاجارد... كلا، بلانش دونوفان، ولكن هل يمكن تصديق ما تقوله بلانش، تلك المرأة العجوز المبتذلة؟

مرت جوان بيدها على جبينها وأحست كان فى رأسها مشكالا. أعطوها مشكالا وهى صغيرة، وقد فتنتها هذه اللعبة وسحرتها، وكانت تلهث وهى تنظر إلى القطع الزجاجية الصغيرة وهى تتشكل وتتخذ رسوما مختلفة.

أية أفكار جنونية استحوذت عليها أثناء تلك الرحلة.

ذلك الجو الفظيع بمحطة الترحيل، وتلك الأزمة التى أصابتها فى الصحراء، كل ذلك جعلها تتصور أمورا كثيرة وفظيعة... أن أولادها لا يحبونها وان رودنى كان يعشق ليزلى شيرستون، وهذا غير صحيح طبعا. يالها من فكرة. بل لقد بلغ بها الوهم والتصور إلى حد أنها لامت

نفسها لأنها خالفت رودنى عندما راودته فكرته فيما يتعلق بالزراعة فى حين أنها فى الواقع أظهرت تفاهما وعرفت كيف تنظر بعيدا جدا.

أوه، يا إلهى... لماذا تضطرب هكذا؟... كل هذه الفظائع التى راودتها واعتقدت أنها صحيحة... كل هذه الافتراضات البغيضة.

هل كانت صحيحة؟... أو تراها غير ذلك؟... لم تشأ أن تكون صحيحة.

كان يجب أن تقدر... يجب أن تختار... ولكن ماذا تختار؟

فكرت... كانت الشمس حامية... والشمس يمكن أن تجعل الإنسان يهذى.

أنها راحت تركض فى الصحراء... ووقعت فوق الرمل... وأخذت تصلى.

هل كان هذا صحيحا؟

أوه؟

من الجنون ومن العته أنها زيفت هذه القصة.. وما اشد ارتياحها وغبطتها بان تجد نفسها فى بريطانيا العظمى وان تشعر بأنها لم تغب عنها وان كل شئ كما هو لم يتغير.

لان كل شئ كان مطابقا، كما هو واضح، لما كان عليه من قبل.

وراح المشكال يدور ويدور.

وكان يتوقف فجأة عند منظر أو آخر.

– رودنى... سامحنى... لم اكن أدرى.

أوه رودنى... ها أنا ذا يسرنى أن عدت.. ماذا تختار؟... وأى استقبال تقابل به رودنى. كان يجب أن تقرر.

وسمعت الباب يفتح.. والصوت الذى تعرفه جيدا... نفس الصوت... كان رودنى يقترب.

ماذا تختار؟... وكيف تعرف؟... حالا.

وفتح باب الصالون ودخل رودنى وتسمر مكانه مدهوشا.

واندفعت جوان... ولكنها لم تنظر إليه على الفور... لم ترفع عيناه إلى وجهه، فقد قالت لنفسها:

– فلأمنحه لحظة... لحظة واحدة.

ثم قالت فى مرح:

– ها أنا ذا يا رودنى... يسرنى أننى عدت.



الخاتمة

جلس رودنى سكودامور فى مقعده ذى المسند المنخفض وراح ينظر إلى زوجته وهى تعد الشاى وتقلب السكر وتثرثر فى مرح.

كانت تتكلم عن فرحتها الكبيرة بعودتها إلى البيت، وكانت تقول وتعيد القول انه لا يمكن ان يتصور مبلغ سعادتها بعودتها إلى إنجلترا والى كرايمنستر والى البيت الحبيب.

وراحت ذبابة كبيرة خدعتها حرارة نوفمبر غير العادية تدور وتدور فوق زجاج النافذة وهى تطن فى إصرار عجيب فى حين راحت جوان تقلب السكر بالمعلقة.

وابتسم رودنى وهو يهز رأسه وهو يقول فى نفسه:

- ضوضاء... كل هذا ما هو إلا ضوضاء... البعض يجد فيها معنى والبعض الآخر لا يجد فيها اى معنى على الإطلاق.

– انه أخطأ على كل حال عندما اعتقد أن هناك ما يشغل جوان أو أنها تشعر باى ندم او باى قلق فى اللحظة التى التقيا فيها، فان جوان لم تكن تعرف المشاغل ولا الندم... بقيت كما هى وكما يعرفها تماما.

وبعد لحظة صعدت جوان إلى غرفتها لتفرغ حقائبها فى حين مضى رودنى إلى مكتبه واغلق عليه الباب ليفرغ من عمل آتى به معه.

ولكنه قبل أن يبدأ اى شئ فتح أول درج واخرج منه خطاب بريارا. وكان قد أتاه بالبريد الجوى وأرسلته بر بارا قبل أن تغادر جوان بغداد ببضعة أيام.

وكان خطابا طويلا مكتوبا بخط رقيق، وكان يعرف ما فيه عن ظهر قلب، ومع ذلك فقد عاد يقرأه من جديد وهو يستوعب على الخصوص الصفحة الأخيرة وفيها يقول:

وأنت تعرف الآن كل شئ. واعترف انك خمنت ذلك تقريبا، ولكن لا تزعج نفسك بشانى، يكفينى أن أفكر أننى كنت حمقاء ومجرمة. ولكن تذكر أن امى لا تعرف شيئا. ولم يكن من السهل إقصاؤها بعيدا وقد قام الدكتور ماك كين بدوره ببراعة كبيرة، وكان ويليام هو الآخر مدهشا، ولا أدرى حقا ماذا كنت افعل بدونه. لم يفارقنى لحظة وكان على استعداد لان يعزل امى إذا استدعى الأمر. وان البرقية التى أرسلتها لى تقول فيها أن امى فى طريقها إلى قد ارعبتنى، وقلت لنفسى انك لا شك حاولت منعها من السفر وأنها أصرت على ذلك. ثم أننى وجدت أن فكرتها فى المجئ كانت رقيقة جدا من بعض وجهات النظر. ولكن لا شك فى أنها كانت تنوى أن تنظم حياتنا. وكنت أخشى

أن افقد رشدى فقد كنت ضعيفة جدا لا أستطيع المقاومة.

وقد أدركت الآن فقط إلى اى حد أتمسك بمويسى أنها جميلة وكم أود لو أن تراها. وإننى أتساءل أحيانا هل أحببتنا ونحن فى سنها أو بعد أن كبرنا. أنت العزيز، يسعدنى جدا أن تكون أنت أبى. لا تزعج نفسك بشأنى فإننى قد استعدت قواى تماما الآن. ابنتك الحبيبة بريارا.

تردد رودنى أمام هذا الخطاب. كان يود أن يحتفظ به فان له قيمة كبيرة بالنسبة له، ففيه اعتراف بالإيمان والثقة فيه من جانب ابنته.

ولكنه قد لا حظ فى حياته العملية الخطر الكبير الذى ينجم عن الاحتفاظ بمثل هذا الخطاب، فانه إذا حدث ومات فجأة فسوف تفتش جوان أوراقه، وتعثر على هذا الخطاب وستتألم بدون داع، وكان يجب أن يجنبها اى ألم وكل إساءة وان تظل سعيدة هانئة فى هذه الدنيا الجميلة الحلوة التى إقامتها حولها.

واجتاز الغرفة وألقى بخطاب بريارا فى النار وقال:

– إنها ستكون على أتم ما يرام الآن، وستكون سعيدة هى وزوجها. وقد شغلته بريارا كثيرا بسبب نقص إدراكها وطبيعتها الشديدة الحساسية. ولكن مرت الأزمة الآن وخرجت بريارا منها من غير جروح. وها هى مغتبطة بوجود بيا ومويسى معها. إن بيل هذا شاب باسل كريم وانه ليأمل أن لا يكون قد تألم كثيرا.

– نعم، اهتدت بريارا إلى طريقها ووجد تونى هو الآخر طريقه فى مزرعة البرتقال التى يديرها فى روديسيا. صحيح أنها بعيدة جدا

ولكن هذا النوع من الحياة كان يناسبه ويروق له. وكان يبدو أن زوجته الصغيرة جديرة به. لم يتألم تونى كثيرا وقد لا يتألم إطلاقا فهو من طبقة السعداء الذين لا يشغلهم اى شاغل واى هم.

– وافريل هى الأخرى فى بيتها... كان يفكر فيها فى كل مرة فى شئ من الرثاء وكثير من الفخر...

كان فخورا بهذه الفتاة المنطقية الإيجابية التى تهفو إلى الاستقرار والتى تتكلم فى سخرية لاذعة ويصعب التأثير عليها لتشبثها برأيها وعنادها.

دخل معها فى نضال وهزمها بالأسلحة الوحيدة التى كان يمكن لهذه الفتاة المتكبرة أن تسلم وتقربها.

أسلحة كان هو نفسه يجد من الخسة والنذالة أن يستخدمها وقد انحنت للمبررات القاسية التى قدمها لها، فهل ترى قد غفرت له وصفحت عنه. لم يكن يظن ذلك، ولكن هذا لم يكن ليهمه كثيرا، وإذا كان قد اقتلع الحنان الابوى من بين ضلوعه فقد ثبت ورسخ احترامها البنوى.كان قد قال لها فى ليلة الزواج:

– أرجو أن تكونى سعيدة.

وقد أجابته فى هدوء:

– سأحاول.

وكان هذا من شيمة افريل. لم تكن تحاول أن تظهر بمظهر البطولة ولا التحسر على الحاضر أو على نفسها. بل كانت تتقبل ظروف الحياة

وتشق طريقها دون أن تطلب معونة أو مساعدة من أحد.

وابعد الأوراق التى تغطى مكتبه والتقط ملف ماسنجهام وجلس بجوار الموقد، وتنهد تنهيدة قصيرة وبدأ يقرا:

يؤجر الطرف الأول للطرف الثانى مزرعته بما فيها من مبان وأراضى وملحقات مختلفة وهى تسع فى... واستمر يقرا وهو يقلب الصفحة.

وذلك بشرط أن لا يزرع قمحا اكثر من مرتين متتابعتين على اى بقعة من الأرض الزراعية على أن يكون هناك فاصل موسمى...

فأفلتت أصابعه الصفحة ووقعت عيناه على المقعد الخالى الذى أمامه. كانت ليزلى قد جلست هناك وهما يتناقشان فى مصير الولدين وفى مناسبة استئناف الحياة العائلية مع شيرستون بعد خروجه من السجن. وقد قال لها عندئذ أنها تدين لولديها باعتبارات كثيرة.

فأجابته بأنها لم تكف فى التفكير فى ذلك وان شيرستون أبوهما على الرغم من كل ذلك فصاح بها بانه خريج سجون ويجب أن تفكر فى كلام الناس وفى الحرج الذى سيتعرضان له، وأنها ستهدر كرامتهما وستعاقبهما ظلما وانه يجب أن تأخذ كل هذه المبررات مأخذ الاعتبار وان لا تكدر سعادتهما، وانه يجب عليها أن تزودهما بأسلحة متينة يواجهان بها الحياة.

فأجابته:

– ولكن هذا هو ما اهدف إليه بالذات. أن شارل أبوهما، وعند

اللزوم أستطيع أن احرمه منهما ولكن يجب أن أرى لولدى أبوهما. كنت أتمنى طبعا أن يكون لهما أب آخر اكثر مثالية، ولكن هذا هو فى الواقع.

وأردفت:

– ماذا تكون عليه حياتهما إذا هما بدأها بالفرار والهرب من الواقع؟

ولا شك انه فهم فكرتها ولكنه لم يقرها، فقد حاول دائما ان يمنح أولاده احسن الظروف، وبذل هو وجوان جهدهما فى ذلك، ونزلا لهم عن احسن الغرف وهى التى تدخلها الشمس ولم يحجما أبدا عن أية تضحية.

صحيح أن أسرته لم تتعرض لاى مسالة شائنة وصحيح انهم لم يعرفوا العار ولا القلق ولا الفشل ولا خيبة الأمل ولا اى انزعاج، ولم تقع أبدا صعوبة من هذا النوع تجعلهما يتساءلان هل من الخير إخفاء واقعة ما عن الأولاد أو الكشف عنها.

كان من رأى ليزلى انه يجب أن تعترف للولدين بالعار الذى جلبه أبوهما على الأسرة. وعلى الرغم من حبها الاموى فقد قررت دون اى تردد أن تلقى جزءا من حملها على عاتقى الولدين الهزيلين، لا لكى تخفف من حملها بالذات ولكنها ابت أن تخفى عنهما اقل شئ من الحقيقة مهما كان بالغ القسوة.

حسنا. كان يرى أنها مخطئة فى ذلك، والحق انه حيا مرة أخرى شجاعة هذه المرأة، ولكنها كانت قد تجاوزت حدود الشجاعة مادامت

تستمد شيئا منها من ولديها.

وتذكر أن جوان قالت له ذات يوم من أيام الخريف فى المكتب:

- الشجاعة... أوه... نعم، ولكن الشجاعة ليست كل شئ.

وقد أجابها:

- حقا؟

ورأى ليزلى من جديد جالسة أمامه تهز حاجبها الأيسر قليلا وتخفض حاجبها الأيمن قليلا فى نفس الوقت وتبتسم ابتسامة خفيفة وهى تسند رأسها على الوسادة الزرقاء البالية التى تكسب شعرها انعكاسا يكاد يكون اخضر اللون. وتذكر فى شئ من الدهشة بأنه قال لها:

- كنت أظن أن شعرك كستنائى اللون ولكننى أراه اخضر.

لم يذكر لها أبدا ملاحظة شخصية كهذه من قبل. ولم يحاول أبدا أن يتحقق من قسمات وجهها. كان يراها مرهقة مريضة ولكنها مع ذلك ورغم كل شئ كانت قوية... نعم... كانت تتمتع بمقاومة طبيعية كبيرة. وقد قال لنفسه فى وقاحة ذات يوم أنها تستطيع أن تحمل كيسا من البطاطس على ظهرها كما يفعل الرجل.

لم تكن هذه الملاحظة خيالية، ولم ير شيئا خياليا فى الذكرى التى يحتفظ بها عنها، فى صورة هذه المرأة التى لها كتف اقصر من الكتف الآخر وحاجب أعلا من الحاجب الآخر والتى تتوتر شفتاها عندما تبتسم وتبدو شعرها اخضر اللون وهى تسند رأسها على الوسادة

الزرقاء البالية.

لم تكن هذه الأسباب باعثة على الحب، ولكن ما هو الحب؟ وكيف يعرف الحب؟ هل يعرفه بالهدوء والسرور الذى يحس به وهى جالسة أمامه فى هذا المقعد بشعرها المخضر بسبب انعكاس الوسادة؟ او هل يعرفه بالطريقة التى قالت بها فجأة تصور أننى كنت أفكر فى كوبرنيك.

كوبرنيك؟... ولماذا كوبرنيك بالذات؟... فقد كان كوبرنيك راهبا له نزوات غريبة وقد تخيل الدنيا كما يريد... كان راهبا ماكرا ذكيا أراد أن يكتسب شهره وخلودا فعبر عن دنياه بهذه الصورة التى رسمها.

ولكن لماذا قالت ليزلى وزوجها فى السجن وأمامها حياتها التى كان يجب أن تكتسبها وقلقها بخصوص ولديها، لماذا قالت له وهى جالسة فى مكانها هذا تصور أننى كنت أفكر فى كوبرنيك.

مهما يكن من أمر فقد أثاره كوبرنيك منذ ذلك اليوم، بحيث علق فوق مكتبه صورة له وكان يقف أمامها ويتمتم ليزلى.

فكر قائلا:

– كان يجب أن أقول لها على الأقل أننى احبها... كان يجب أن أقول لها ذلك فى ذلك اليوم.

– ولكن هل كان ذلك ضروريا؟... تذكر عصر اليوم الذى قضياه معا فوق مرتفعات اشلدون، وجلوسهما تحت شمس أكتوبر... عذاب وحب بدون امل، وكل منهما جالس على بعد أربع خطوات من الآخر

كما كانت الحكمة تقضى بذلك... أدركت بأنه يحبها، بلا ريب خمنت ذلك، وفكر فى ارتباك:

- تلك المسافة بيننا... شحنة كهربائية... مشحونة بالرغبة.

لم يتبادلا نظرة واحدة.. تأمل هو الأشجار والمزرعة وسمع صوت الجرار من بعيد واعجب بلون الأرض المزروعه... واحتفظت هى بعينيها مثبتين فى الحقول وفى الغابة التى تمتد حتى الأفق.

كانا يتأملان الأرض الموعودة التى لم يكن أحدا منهما ليستطيع أن يلجها.

كان يجب أن أقول لها فى تلك اللحظة إننى احبها.

ولكن لا هو تكلم ولا هى كذلك تكلمت.

وقطعت ليزلى حبل الصمت أخيرا بان تممت:

- وصيفك الخالد لن يذوى أبدا.

وكان هذا كل شئ، بيت واحد من الشعر، ولم يكن يعرف ماذا تقصد به، بل لعله كان يعرف... نعم، لعله كان يعرف.

وسادة المقعد بليت، وكذلك وجه ليزلى، لم ير قسماتها فى وضوح. لم يكن يتذكر إلا شفتيها المتوترتين.

ومع ذلك، فطوال ستة أسابيع جاءت وجلست هنا قابلته كل يوم وتكلما معا بقلب مفتوح مجرد وهم بلا شك. توهم وجود ليزلى أخرى أجلسها مكانها وهمس لها بما يجب أن تنطق به وجعلها تقول ما يريد

أن تقوله، فأطاعته وهى ترفع ركنى شفتيها لأنها كانت تبتسم وهى تنظر إليه.

فكر رودنى فى أن هذه الأسابيع الستة كانت أسابيع من السعادة استطاع فيها ان يدعو واتنكسين وان يقضى امسية رائعة مع هارجريف تيلور، وان يستقبل أصدقاء كانوا يروقون له ولا ترتاح جوان إليهم، وقام بنزهة طيبة على قدميه فى الجبال ذات يوم أحد.

واعد الخدم مما أراد من أطعمة وتناول طعامه وهو يمضغ فى بطء وأمامه كتاب مفتوح وقدحا من الماء والصودا. وقد زاول العمل قليلا بعد العشاء وهو يدخن غليونة. وإذا ما أثقلت عليه الوحدة جاء بليزلى أجلسها فى المقعد الذى أمامه.

وصيفك الخالد لن يذوى أبدا.

وخفض عينيه من جديد على العقد الذى بين يديه. ويجب تحت كل الظروف أن يعنى الطرف الآخر من الأرض كما لو...

وقال فى إعجاب:

- أننى اعرف مهنتى جيدا.

- أننى أصبت نجاحا باهرا فى مهنتى.

- لو أننى اشتغلت بالزراعة لكان الأمر عسيرا متعبا.

- ومع ذلك فإننى متعب جدا.

لم يشعر منذ وقت طويل بهذا التعب.

وفتح الباب ودخلت جوان.

– أوه، رودنى... كيف يمكنك أن تقرا فى الظلام؟ وأسرعت خلفه فأضاءت النور فابتسم لها شاكرا.

وقالت فى رفق وهى تجلس:

– انك مخطئ يا عزيزى إذ ترهق عينيك هكذا... ما كان عليك إلا أن تدير المفتاح.

– إننى اتخذت عادات سيئة.

– هل تتذكر ذلك اليوم الذى تهيا لك فيه ان ترفض اقتراح العم هنرى وان تشتغل بالزراعة؟

– نعم. أتذكر ذلك جيدا.

– الست مسرورا إذ منعتك من ذلك؟

– نعم... وإننى لسعيد بذلك.

– تتملكنا جميعا فى بعض الأحيان أراء مضحكة.

– حتى أنت؟

قال هذا مداعبا ولكن أدهشه أن يراها تقطب جبينها. وارتسمت على وجهها سمة من الحزن وقالت:

– إن أعصابنا تفلت منا أحيانا.

– هل تعرفين أننى أحسدك على الرحلة التى قمت بها الآن؟

– كانت رحلة مثيرة للاهتمام، ولكنى لا احب أبدا أن اضطر إلى الإقامة فى مكان مثل بغداد.

قال رودنى فى لهجة حالمة:

– أود أن أتصور الصحراء. لا ريب أنها رائعة. هذا الفراغ الفسيح، وهذا الضوء الشديد. ان الضوء هو الذى يجذبنى على الخصوص... فإننى احب أن أرى فى وضوح.

– هذا فظيع... فظيع... هذه المساحات الصحراوية... وهذا القحط وهذا العدم...

ألقت حولها فى الغرفة، نظرات حادة محمومة كالحيوان الذى يحاول الهرب. ولكن لم تلبث أن استردت هدوئها وقالت:

– إن هذه الوسادة بليت جدا. أن استبدل بها أخرى جديدة.

آتى بحركة من يده ولكنه لم يلبث أن قمعها مهما يكن... لم لا؟... أن الوسادة بليت وليزلى شيرستون ترقد فى قبرها والمكتب فى نمو وازدهار والمزارع رهن قطعة من أرضه.

وراحت جوان تمشى فى المكتب وهى تمشى هنا وهناك كان الغبار يعلو كل شئ كان يجب الاعتراف بان الفوضى والاضطراب يملئان المكان منذ ستة أسابيع.

وتمتم رودنى:

– انتهت الإجازة.

- ماذا؟

- ماذا قلت؟

- هل تكلمت؟

- بدا لى انك قلت أن الإجازة انتهت وكأنى بك كنت احلم وتحسب نفسك لا تزال فى الوقت الذى يذهب الأولاد فيه إلى المدرسة.

- نعم. لا ريب أنى كنت احلم.

- هل اشتريتها حديثا؟

وكانت تنظر إلى لوحة كانت موضوعة بالمقلوب.

- نعم... فى مزاد هارتلى.

- آه.

- كوبرنيك... أهى ذات قيمة؟

- لا أدرى.

وعاد يقول:

- ليست لدى أى فكرة. الذى له قيمة؟. وما لا قيمة له.. وهل للذكرى قيمة؟

تصور أننى كنت افكر فى كوبرنيك.

مسكينة مسز شيرستون.. كانت حياتها كلها أحزانا.

ولكنه لم يلبث أن قال لنفسه أن ليزلى لم تكن حزينة أبدا... شقت

طريقها خلال خيبة الآمال والآلام والشقاء كرجل يشق طريقه فى المستنقعات والأرض المحروثة.

وتأمل زوجته وفكر قائلا:

- إنها دائمة النشاط قديرة، مجتهدة وسعيدة كأنها لا تزال فى الثامنة والعشرين من عمرها.

- مسكينة أنت يا صغيرتى جوان.

- لماذا مسكينة؟.. ثم إننى لست صغيرة.

- أنا الصغيرة جوان.. إذا تركونى وحدى ملكنى الاضطراب.

- لست وحدى، إننى اعتمد عليك.

- نعم. اعتمدى على.

ولكنه كان يعلم وهو ينطق بكلماته هذه إنها عزاء وهمى. وحدث نفسه قائلا:

- أنت وحدك.. وستكونين وحدك إلى الأبد.. ولكنى احمد الله على انك لن تعرفى ذلك أبدا.

تمت

